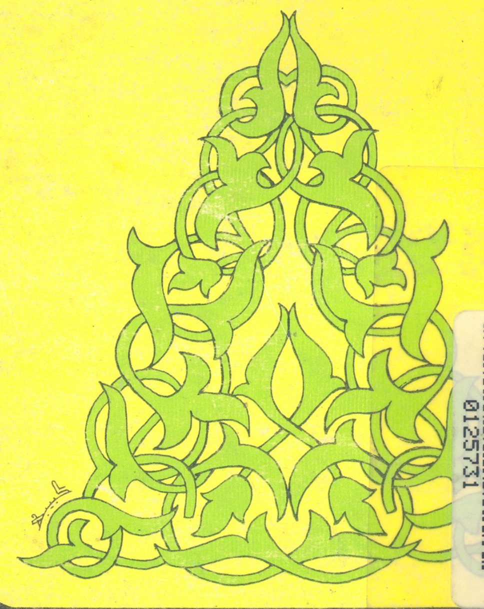
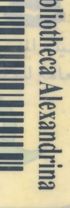
الاستقلال الحضاري

د. محمد عمارة







Bibliotheca Alexandrina
01257731

الاستقلال الحضاري

الاستقلال الحضاري

د. محمد عمارة

كلمة

[إن المقلدين للتمدن الغربي إنما يُشَوِّهون وجه الأمة ، ويُضَيِّعون ثروتها ، ويَحُطّون من شأنها .

إنهم المنافذ لجيوش الغزاة ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون لهم الأبواب؟!! . . .]

جمال الدين الأفغاني

كلمات

قديم هو ذلك الصراع بين أمتنا وبين الغرب الاستعماري . .

- فالقهر البيزنطي حلقة قديمة في سلسلته . .
- والحروب الصليبية قد مثلت حلقته الوسيطة . .
- والغزوة الاستعمارية الحديثة . . هي ذروة هذا التحدي التاريخي والحضاري ، الذي استهدف ، ولا يزال كيان أمتنا وذاتيتها وإمكاناتها . .
- وربيب هذه الغزوة الحديثة : الكيان العنصري

الصهيوني . . هو الشريك الأصغر في التحدي المعاصر . .
الذي هو امتداد لهذا الصراع القديم !! . .

* * *

ولقد تميزت المراحل القديمة في هذا الصراع الحضاري بوضوح الرؤية لدى أمتنا إزاء هذا الغرب الاستعماري ، الذي ما فتيء يقذفنا بحملات الغزو ومحاولات الإبادة وموجات النهب والاحتواء . .

لكن الأمر لم يعد كذلك في ظروف صراع أمتنا ضد الغزوة الاستعمارية الحديثة ، لا لخفاء أهدافها وغموض نواياها . . وإنما لما حملت معها من « فكر » كانت أمتنا في حاجة إلى كثير منه كي تنهض وتعوض ما فاتها في حقب الجمود والتخلف التي حكمها فيها وتحكم فرسان المماليك وسلاطين آل عثمان . . . ولما تضمنه هذا « الفكر » من جوانب مثلت « عوامل استلاب » حاول بها الغرب الاستعماري ، ولا يزال احتواء أمتنا ، وطمس معالم تمايزها واستقلالها ، وتشويه معرفتها بذاتيتها . . وصولاً الى تجريدها من طاقات الثورة في سبيل النهضة والاستقلال! . .

ولذلك . . وجدنا ، ونجد : « الموقف من الغرب » . . قضية من قضايانا الفكرية الخلافية . . . على عكس ما كان عليه موقف أسلافنا الذين واجهوا هذا الغرب تحت أعلام الفتوحات العربية الاسلامية . . . ومن خلف أبطالنا القوميين ، الذين مثل نموذجهم : الناصر صلاح الدين الأيوبي . . . واجهوه بتمايز

كامل وواضح في المواقع والمواقف بلغ مرتبة تمايز « الكفر » عن « الايمان ».

بل إن خلاف حركتنا الفكرية حول الموقف من الحضارة الغربية كاد أن يصبح ثغرة عظمى تجعل بأس مفكرينا ومثقفينا بينهم شديداً ، الأمر الذي يصيب طاقاتنا الفكرية بنزيف يسلم الى الضعف والهزال!.. فبينما نجد :

- « سلفية نصوصية » تسعى إلى معاكسة قوانين التطور - التي هي سنة من سنن الله في الكون والمجتمع وتجاهد لصب الحاضر والمستقبل في القوالب التي صنعها « سلفها الصالح » في عصور الجمود والتخلف تحت حكم المماليك وتحكم العثمانيين!!..
- نجد « سلفية نصوصية » « متغربة ».. تسعى ، هي الأخرى ، لصب حاضرنا ومستقبلنا في القوالب التي صنعها « السلف الغربي ».. بدءاً من اليونان القدماء ، وحتى نهضة الأوربيين المحدثين!.

وإذا كان الخيار الأول سيقودنا إلى « انغلاق » يقف بأمتنا عند « التخلف الموروث » الأمر الذي سيعجزها عن تقديم البديل وإبداع المشروع الحضاري الكافل لنهضتها وإفلاتها من قبضة الهيمنة الغربية.. فإن الخيار الثاني سيقود الأمة إلى « التبعية » للمركز الحضاري الغربي ، وهي تبعية يسعى لها الغرب ويسمح

بها شريطة أن لا تتعدى إطار سلبيات وأمراض نموذجه الحضاري ، الذي كاد أن يبلغ نهاية الطريق المسدود؟! . .

ولأننا نرفض الاستسلام لأي من هذين الخيارين . . كانت صفحات هذا الكتاب الساعي الى التبشير بطريق ثالث ومتميز في هذا الصراع الدائر حول الموقف من الحضارة الغربية .

- طريق التمييز - في موروثنا - بين « الثوابت » وبين « المتغيرات » . . .
- طريق النضال من أجل الحفاظ على نقاء الهُوِيَّة الحضارية للأمة ، في وجه محاولات المسخ والنسخ والتشويه الذي تمارسه فكرية « التغريب » وتيار « المتغربين » . .
- طريق فتح نوافذ العقل على مختلف الحضارات ، من موقع الراشد المستقل ، الباحث عن عوامل القوة ، يدعم بها ذاتيته المتميزة ونهضته الحضارية المستقلة . . والرافض لكل عوامل الاستلاب لشخصيته القومية وللسمات التي ميزت حضارة أمته عبر قرون تاريخها الطويل والمجيد . .

تلك هي الرسالة التي تحاول الوفاء بها صفحات هذا الكتاب عندما تعالج هذه القضية المحورية من خلال دراسات ثلاث ، تمثل أقساماً ثلاثة في هذا الكتاب :

١ - الاستقلال الحضاري . . وماذا يعني في النهضة المنشودة لأمتنا . . ؟

٢ ـ والعلاقة بين « موروثنا » العربي الاسلامي وبين « الوافد » الغربي؟ . .

٣ ـ ونموذج تطبيقي لهذه العلاقة ، من خلال دراسة موقف واحدة من أعرق مؤسساتنا الفكرية والتعليمية ـ [الأزهر] ـ . . موقفه من « التغريب » . .

فإذا نهضت هذه الصفحات برسالتها ، فحملت ما قصدنا إليه الى الباحثين والقراء كانت سعادة الكاتب الذي يحمل هموم أمته ، ويناضل لتنوير طلائعها بمخاطر التحديات التي يفرضها عليها أعداؤها الكثيرون! . .

والله من وراء القصد . . وهو ولي التوفيق؟ . .

د. محمد عمارة

- ١ -

الاستقلال الحضاري

مقدمات تمهيدية

منذ بدء الهجمة الاستعمارية الحديثة على ديار العروبة والإسلام ، وضحت نوايا وأهداف هذه الموجة من موجات التحدي ، وتميزت عن غيرها من الموجات التي ابتليت بها أمتنا عبر تايخها الطويل . .

فهي لا تبغي ، فقط : السيطرة على طرق التجارة الدولية . . ولا تقنع بالنهب الاقتصادي الاستعماري . . ولا تكتفي بتفتيت وطن أمتنا ، لتحول دون وحدتها ، فقوتها ، فنهوضها . . ولا تقف أطماعها عند تحويل شرقنا العربي والإسلامي إلى « هامش أمن » للغرب الأوربي . . .

لا تكتفي هذه الهجمة الاستعمارية بكل ذلك . . بل إنها ، في سبيل تأييد جميع ذلك وتأبيده وتكريسه ، سعت وتسعى الى سحق شخصيتنا القومية الخاصة ، ومسخ هويتنا الحضارية المتميزة ، والحيلولة بين أمتنا وبين استعادة قسمات استقلالها الحضاري المفقود . . ورأت في تحويلنا إلى « هامش حضاري »

للغرب ، الضمان لبقائنا « هامشاً » له في الأمن والاقتصاد ! . .

ومن هنا ، وبسبب هذه الأهداف الاستعمارية تنوعت أسلحة الصراع ، وتعددت ميادينه ، فشملت ساحات : « الفكر » و« المادة ». . وخاصة : « المفكرون » و« العامة ». . واستنفر « العلماء » و« الجند ». . واحتاج إلى : « القلم » و« السيف » عبر تاريخه الطويل! . .

ولقد استعان الاستعمار، في صراعه مع أمتنا، على الجبهة الحضارية، بعوامل كثيرة تدخل في عداد «حيل الخداع والتمويه»، النابعة من «غرور المنتصرين واستعلائهم على المهزومين»! . .

فهو قد جاء الى بلادنا فعاجل الصحوة التي حاولنا بها الإفلات من ظلام العصر « المملوكي ـ العثماني » وقيوده ، واليقظة من سبات ليله البهيم والطويل. . صحوة النهضة المصرية التي قادها ، بمصر والشرق ، محمد علي باشا الكبير [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩ م] . . وصحوة الثورة العرابية [١٢٩٨ ـ ١٢٩٩هـ ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ م] التي طمحت إلى محو آثار الهجمة الاستعمارية على نهضة محمد علي بعد سنة ١٨٤٠م؟!. .

وكانت حركة الاستشراق ، في مجملها وأغلبيتها ، طليعة هذا الزحف الاستعماري على جبهتنا الحضارية العربية

الإسلامية . . . وكانت هذه الحركة الاستشراقية أعلم منا ، يومئذ ، بتراثنا الحضاري ، فألحت على عقل أمتنا ووجدانها بالمقولة التي تزعم أننا أمة غير متميزة حضارياً ، فتراثنا العربي - كما قالت - فقير في الخَلْق والإضافة والإبداع ، وعقلنا العربي عاجز عن التفلسف والفكر المركب ، وليس لأسلافنا غير فضل النقل والحفظ لتراث اليونان ، والمحاكاة لتراث الفرس والهنود؟! . .

ولم يكن هدف هذه المقولة الاستشراقية هو ، فقط ، تثبيط الهمة ، وفل العزيمة ، وخفض الهامة ، وكسر العود ، وإذلال النفس العربية الإسلامية . . وإنما كان الهدف أبعد من ذلك وأكثر وأخطر . . كان الهدف : استخدام كل ذلك للوصول الى مقولة ثانية ، تزعم أن التمايز الحضاري ، ومن ثم الاستقلال الحضاري ، هو ، في الأساس ومن حيث المبدأ ، مجرد أكذوبة ، لم يعرفها التراث ولم يشهدها التاريخ ، ومن ثم فلا جدوى من جعله هدفاً لنضالات الحاضر والمستقبل . . فالحضارة واحدة . . وهذه الحضارة الواحدة هي الحضارة « الإنسانية » . . كانت قديماً يونانية . . ثم « نقلها » العرب والمسلمون إلى الأوربيين ، الذين أسسوا عليها حضارتهم الحديثة ، التي هي حضارة العصر « الانسانية » الوحيدة! . . فأوربا هي « المركز » . . كانت كذلك قديماً وأيضاً في الحديث؟! . .

ومن ثم . . فما على الذين يريدون أن « يتحضروا » إلا

السعي إلى اللحاق بهذه الحضارة الأوربية الغربية ، بجعل « عقلهم » و « واقعهم » امتداداً « لعقل » أوربا و«واقعهم». . وباختصار : جعل بلادهم قطعة من أوربا ـ كما نُسِب الى الخديوي اسماعيل [١٢٤٥ ـ ١٣١٢هـ ١٨٣٠ ـ ١٨٩٥م] .

فالقضية ، في نظر أصحاب هذه المقولة ، هي : « التخلف » في جانبنا . . يقابله « التقدم » في جانبهم . . وليست « التبعية » التي تفرضها علينا « سيطرتهم » الاستعمارية ! . .

وما لدينا من « قيم » و« رؤى » و« تصورات » ، بل و« معتقدات »، زعموه داخلاً في نطاق « التخلف » الذي يجب التخلي عنه ، واستبداله بما عندهم من بدائل « متقدمة »! . . وأدخلوا في ذلك أيضاً ما تميز به شعبنا من أنماط خاصة في تنمية واقعه المادي ، وما اختص به من أساليب في العيش ، وما اعتاد من عادات وتقاليد! . . لقد أطلقوا وصف « الأسطورة » على جميع ما لدينا ، ووصف « العقل » على جميع ما لديهم. . . وطلبوا منا الهجرة من « الذات »، والانسلاخ عن « المميزات »! . .

لقد أرادوا لأمتنا الانسلاخ عن جوهرها؟! . . وسموا هذا الانسلاخ « تحضراً » و« تحديثاً » . . لأنهم رأوا ـ بتجربتهم وذكائهم ـ أن هذا الجوهر ، الذي يميز هذه الأمة ، هو « قوة الطرد المركزية » التي ستحرك الأمة في اتجاه الاستقلال الحقيقي والتحرر من سيطرة الاستعمار؟! . .

ولما كانت حضارة هؤلاء الغزاة هي حضارة الغازي المنتصر ، فلقد وجدت مقولاتهم هذه في صفوف أمتنا من يزين صورتها ويبيض وجهها ويفتح لها في عقل الأمة النوافذ والأبواب والثغرات ، ويمهد لها الأرض في الأفئدة والقلوب ، ويزيل من طريقها العقبات! . . فكان أن تبلور في حركتنا الفكرية ما عرف « بتيار « التغريب »، ذلك الذي تقدم أعلامه وأنصاره إلى الأمة بوصفهم فرسان الانقاذ والتحرر من أصفاد عصر المماليك والعثمانيين . .

ولقد خيل للناس ـ حينا من الدهر ـ أنه لا بديل عن « جمود » العصور المظلمة ـ « المملوكية ـ العثمانية » ـ إلا الانخراط في موكب الساعين إلى أن نكون « غرباء » في الحضارة . . وأن التجديد واليقظة والإحياء ، عن غير هذا الطريق ، مستحيل . . مستحيل! . .

ولقد ساعد على ازدهار هذا التصور والتصوير ما كانت عليه المؤسسات والتيارات التي احتكرت لنفسها حق الحديث عن التراث وباسم « السلف الصالح »! . . فلقد كان تراث هذه المؤسسات مثقلاً بالخرافة والشعوذة ، قد تجمد فتحلل ، وتجاوزته الظروف وتخطته الملابسات ، وأضحى بالياً كأنه أكفان الموتى! . . لأنه لم يكن إبداع الأمة ، ولا عبقرية الأسلاف العظام ، وإنما كان « حكاكات » عصر جمود هذه الأمة وتخلفها ، وتطبيقات سلفها الذي لم يكن صالحاً؟! . .

فكان جمود هـذه المؤسسات ونـوعية « تـراثها ».ممـا يزين ويغري بسلوك طريق « التغريب »! . .

لكن أصالة هـذه الأمة الحضـارية ، وعـوامل « الصحـة » المستكنة في كيانهـا الحضاري قـد استنفرهـا هذا المـأزق الذي وضعت فيه شعوبها عندما هجم عليها الاستعمار ، فكان أن برز الموقف الثالث ، والتيار الثالث . . تيار « التجدد الذاتي »، الذي يمد جسور التواصل الحضاري مع كل حضارات الأمم الأخرى ، ليؤثر ويتأثر ، وليتفاعل ، وليأخذ ويعطي ، من مـوقع الـراشد المتميـز ، الذي لا يفقـده التواصـل الحضـاري مـالـه من تميـز واستقلال . . كما لا يدخله هذا « التميز والاستقلال » في « عالم الجمـود » و« مقبـرة المتجمـدين » الـذين يقتلهم الانـغـلاق والاستعلاء؟! . .

ومنذ نشأة تيار « التجدد والتجديد » هـذا ، تصارعت على الساحة الفكرية لأمتنا هذه التيارات الثلاث :

١ ـ تيار الجمود :

ذلك الذي استعصم بفكرية العصور الوسطى واعتصم ! . . بعـد أن أضفى على هذه الفكـرية ، التي جسـدت عصر تخلفنـا الحضاري ، قداسة الدين وقدسيته! . . ولقد تمثل تيار « الجمود » هذا في المؤسسات التقليدية العريقة ـ إلا قليلاً من أعلامها ـ تمثل في عـدد من شيوخ الأزهـر ، والزيتـونة ، وفي قـوم زعمـوا أنهم « مجتهدون » ، رغم تسليمهم واستسلامهم لأساطير تـراثية ظلت

تفعـل فعلهـا في تقسيم المسلمين إلى « شيعـة » و« سنـة »؟!..
وكـذلـك تمثـل تيـار « الجمـود » هـذا في تنـظيمـات « الـطرق الصوفية »، التي غرقت في البدع والخرافات والرسوم ، وانقطعت صلاتها « بالتصوف الحق »، سواء أكان « عقلانياً » أم « شـرعياً » تهذيبياً؟!..

وخـلف هـذا التيـار سـارت « العـامـة » ، لـتمـثيـله « الاستمرار » ، ورفضه « التغييـر »، وحفاظـه على « المألـوف » وهبـوط تصوراتـه العقـائـديـة إلى مستـوى تصـورات « العـامـة » و« الجمهور »!..

٢ ـ وتيار التغريب :

ذلك الذي انبهـر أهله بتألق الحضـارة الأوربية وإنجـازاتها وانتصـاراتهـا ، خصـوصـاً عنـدمـا قـارنـوا بينهـا وبين النمـوذج « الحضاري » الذي يستمسك به تيار « الجمود »، بعد أن حسبوا ـ لجهلهم بتراثهم الحضاري ـ أن تصور أهل « الجمود » هذا هـو حقيقة تراث أمتنا الحضاري!.. فدفعتهم هذه المقارنة إلى إدارة الـظهر للتـراث ، وتـوليـة الـوجـه والعقـل والقلب إلى الحضـارة الأوربيـة ، مصـدقين زعـم الأوربيين أن حضـارتهم هـذه هي « الإنسانية » ، ومن ثم « الوحيدة » في العصر ، وأن على من يريد التحضر أن يلحق بها ، ويذوب فيها ، وينطبع بقسماتها وسماتها ، فيفكر كما يفكر الأوربيون ، ويحيـا كما يحيـون ، ويتمثلهم في « المقاصد » و« الأدوات » على السواء!..

ولقد تمثل تيار « التغريب » هذا ، أساساً ، في الاعلام الذين « قلدوا » الغرب ، بعد أن درسوا حضارته ، سواء منهم من درسها في عواصمها أو في المؤسسات التعليمية التي نشأت في بلادنا على نمط مثيلاتها في الغرب فلسفة ومنهاجاً! . . وسار خلف هذا التيار فريق من أبناء الأمة ، أعانهم الاستعمار على الامساك بزمام التوجيه في « المدرسة » و« الجامعة » و« الصحيفة » و« المنتدى » وكل أدوات التوجيه ومؤسسات « التحديث »؟! . .

٣ ـ تيار « التجديد » :

ذلك الذي أبصر أعلامه العلاقة بين تياري « الجمود » و« التغريب »، فأهل « الجمود » يقيمون الدليل ـ وإن يكن كاذباً ـ على عدم صلاحية مواريثنا كي تنهض بحاضرنا ، على النحو الذي يضمن للأمة مواجهة ما تواجه من تحديات . . الأمر الذي يدفع فريق « التغريب » وتياره الى التماس التحضر وقوته وعافيته لدى من فرضوا على الأمة هذه التحديات؟! . . مع إغفال الفريقين لجوهر تراثنا الحضاري الخلاق ، الذي مثل ويمثل صفحات الازدهار الحضاري لأمتنا العربية الاسلامية ، والصالح كي يمثل الزاد الذي تتزود به الأمة وهي تصنع حاضرها الراهن. . وتخطو نحو المستقبل المنشود! . .

ولقد تمثل تيار « التجديد » هذا في الأعلام الذين استوعبوا تراث الأمة ، ثم لم يحبسوا عقولهم في تيار من التيارات القديمة التي فرقت ، بالتعصب ، صفوفها! . . كما لم يدفعهم استيعابهم

للتراث إلى الغرق في القضايا القديمة التي شغلت الأولين بالجدل ، والتي تجاوزها العصر . . لأنهم رفضوا - إيمانا منهم بقانون التطور - إمكانية إعادة الحاضر أو المستقبل كي يُصَبّ أي منهما في قوالب التجارب التي صنعها الأسلاف . . ثم إنهم لم يغلقوا عقولهم دون التيارات الحضارية الأخرى ، والتجارب الانسانية التي ازدهرت وتزدهر خلف حدود العروبة والإسلام ، ودون المواريث الحضارية غير العربية الاسلامية . . فرأوا :

- الانطلاق من تراث الأمة ، باعتباره طاقة تشحن أبناءها بـ« الكبرياء المشروع » الذي يعينها على مواجهة التحديات المعاصرة ، وإنجاز مشروعها الحضاري الخاص . .

- والمحافظة على القسمات والسمات التي تمثل « البصمات » الثابتة في شخصية هذه الأمة وحضارتها . . وخاصة ما كان منها « ديناً » وضعه الله . . أو « روحاً حضارياً » تميزت به هذه الأمة عن غيرها من أمم الحضارات الغنية والعريقة . .

- والتفاعل مع الحضارات الأخرى ، والإفادة منها ، دون تقليد يمسخ شخصيتنا الحضارية . . وإنما « بتمثل » الراشد ذي الموقف المتميز والخاص ! . .

لكن تيار « التجديد » هذا قد ظل حبيس « الصفوة » التي امتلكت زمام « الأصالة » و« المعاصرة » معاً ، ووازنت بينهما موازنة عادلة وخلاقة . . وساعد على حبسه في هذا الإطار أنه قد حوصر وتلقى الطعن من تياري « التغريب » و« الجمود »

كليهما ، لما مثله من خطر حقيقي على غاياتهما ووسائلهما جميعاً! . . .

* * *

غير أن تيار « التجديد والتجدد الذاتي » هذا لم يكن « فصيلة » واحدة متحدة في طول بلادنا العربية وعالمنا الاسلامي ، فلقد تميزت فيه « الفصائل » وتعددت « الحركات » وتنوعت « الدعوات »، بسبب ما بين أقاليم عالمنا العربي وأمتنا الاسلامية من تفاوت في مراتب التحضر ، وتنوع في مستوى التحديات التي تواجه هذه الأقاليم ، واختلاف في المكونات الفكرية التي لونت مسار الدعاة والرواد في هذه الفصائل والحركات والدعوات . .

لكن الحديث عن « فصائل » هذا التيار ، وعن علاقته باستقلال أمتنا الحضاري ، يستدعي أن نقدم بين يديه « مقدمات تمهيدية » لا غنى عنها لوعي كنه هذا التيار ، وما يمثله لأمتنا من طوق نجاة مما يواجهها من تحديات! . .

● **وأولى هذه المقدمات ، يتطلبها عنوان هذا الكتاب ! . .**

ذلك أننا ممن يؤمنون بأن حضارتنا هي : « عربية - إسلامية ». . فهي حضارة أمتنا ، التي هي عربية قومياً . . وهي إسلامية ، لأن « الاسلام الحضاري » يمثل فكريتها - « أيديولوجيتها » - المتميزة. . **فالإسلام الحضاري هو الرسالة**

الخالدة لأمتنا العربية الواحدة ، يستوي في ذلك أبناؤها الذين يتدينون « بالإسلام الدين » ، وأولئك الذين يتدينون « بدين التوحيد » ، سالكين إلى هذا التدين شرائع ومناهج أخرى لرسل آخرين سبقوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) على درب علاقة السماء بالإنسان ! . .

ثم . . إنها « عربية - إسلامية » ، لما لأمتنا العربية من دور قائد في نشر « الاسلام الدين » ، والقيام على تجديده ، وفي قيادا الأمم الاسلامية لمواجهة ما يفرضه عليها الأعداء من تحديات . . تلك كانت مهمتها تاريخياً ، ولا تزال قائمة ، بل وقدراً من أقدارها ، في عصرنا الحديث ! . .

● وثاني هذه المقدمات ، يتطلبها العنوان ، أيضاً ! . . فهو يعني أنه قد كانت لأمتنا العربية الاسلامية حضارة متميزة ومستقلة عن حضارات متميزة لأمم أخرى ، ثم فقدت أمتنا هذا الاستقلال الحضاري ، وغابت عن ساحتها ، وغامت في أعين فريق من أبنائها تلك القسمات الحضارية الخاصة التي أكسبت حضارتها ذلك التميز وهذا الاستقلال . . ثم جاءت هذه الدعوات والحركات الإصلاحية والتيارات التجديدية - التي سنتحدث عنها - في العصر الحديث لتحاول استعادة هذا الاستقلال الحضاري لأمتنا ، بالكشف عن قسمات تمايزها الحضاري ، وبلورة هذه القسمات أو تطويرها . .

● أما المقدمة الثالثة ، فإنها تجيب عن سؤال تطرحه ليقول :

هذه الحضارة المتميزة، ما هي قسماتها الرئيسية ، التي تميزها ، فتجعلها مستقلة ، أو متميزة ، عن غيرها من الحضارات؟. . . والتي كانت عين هذه الدعوات والحركات التجديدية عليها وهي تسعى نحو هذا الاستقلال الحضاري في عصرنا الحديث؟؟. .

ونحن إذا شئنا « تكثيف » الإجابة على هذا السؤال ، أمكن لنا ذلك إذا نحن قلنا : إن حضارتنا هي « حضارة التوحيد »!. . .

فلو تخيل المرء أن كل أمة من الأمم العريقة ، ذات الحضارات المتميزة، قد « صاغت وسَكَّت ، لحضارتها « عُمْلة » تميزها . . وصنعت ذلك أمتنا ، لكانت « عُمْلَتها » التي تميز حضارتها مزدانة برمز « التوحيد » على وجهيها!. . « التوحيد الديني » على أحد وجهي « العُمْلة ». . . و« التوحيد القومي » على وجهها الآخر. . والصلات بينهما ، والتفاعل جاعلهما وجهان لعملة واحدة ، ترمز لحضارتنا العربية الاسلامية. . حضارة التوحيد!. .

ففي « التوحيد الديني »: فلسفة هذه الأمة ، بمعنى « تصورها للكون ». . حتى لقد سمى العلم الذي جسد إبداعها الفلسفي - وهو « علم الكلام » - بعلم « التوحيد »؟!. . وهي بهذا التصور التوحيدي للكون قد أفصحت عن أهم ما يميز حضارتها من قسمات ، ألا وهي : « قسمة التوازن والموازنة » بين المتقابلات والمتناقضات ، واتخاذ الموقف الوسطي ، العادل ،

الذي يؤلف بين ما يحسبه آخرون، في حضارات أخرى ، غير قابل للتأليف . . بل والمؤاخاة بين هذه المتقابلات ، بنظرة شمولية تثمر « الموقف الثالث » ، « الوسطي » ـ بمعنى العادل ـ والرافض لكلا الموقفين المتطرفين الباطلين ، لأن كلا منهما قد جاء ثمرة للنظرة الوحيدة الجانب ـ الجزئية ـ القاصرة ـ التي لم تبصر سوى قطب واحد من أقطاب ظواهر هذا الكون! . .

« فالنظرة التوحيدية للكون » هي التي وازنت وألفت وآخت بين « التوحيد الديني ». . الذي يعني وجود الفاعل الاول والسبب الأول في هذا الكون : الله ، سبحانه وتعالى . . وبين ما في « الطبيعة والطبائع » من خصائص ذاتية تجعلها فاعلة لأفعال ومسببة لأسباب! . .

وهي التي وازنت بين « التوحيد الديني ». . الذي يقطع بأن العالم هو خلق الله . . وبين تصور هذا العالم قديماً ، وفق مقولة فلاسفة الاسلام وأغلب متكلميه : إن فعل القديم قديم! . . فلم تشهد حضارتنا ذلك الانقسام الذي جعل القائلين بقدم العالم . « ماديين » ، والقائلين بالخلق الإلهي : « مثاليين » ـ كما حدث في التراث الفلسفي للحضارة الأوربية ، وفي إبداعها الفلسفي الحديث ـ . . بل لقد بلورت حضارتنا ما يمكن أن يسمى : « المادية ـ المؤمنة »؟! . . وكان فلاسفتها وأغلب متكلميها : « ماديين ـ مؤمنين »؟! . . يؤمنون بالله الخالق للطبيعة ـ [الخليقة] ـ وفي ذات الوقت يعطون للطبيعة وقوانينها مالها من فعل وتأثير! . .

وهذا « التوحيد الديني » . . هو الذي طبع حضارتنا بطابع الموازنة والتوازن بين : « الانسان » وبين « الكون والمحيط »، فانتفت ، بهذه الموازنة ، أسباب « الغربة » وعوامل « الاغتراب »!. . وبين : « الفرد » وبين « المجتمع والمجموع ». . . وبين : « الدين » وبين « الدولة »، فبرئت هذه الحضارة من القائلين « بالمقدس »، فالكهانة والسلطة الدينية . . . ومن القائلين « بالطبيعي » ، « فالعلمانية » ، و« فصل الدين عن الدولة والمجتمع . . واتخذت لنفسها مكاناً وسطاً ـ لا يعرف هذه الثنائية ـ يستلهم من « الدين » فلسفة نظم « الدولة »، على حين يصبح العقل الانساني والتجربة الانسانية ومصلحة الأمة هي المبدعة والحاكمة في هذه النظم المتطورة أبداً . . فكان « **التمييز** » بين الدين والدولة ، لا « الوحدة » ولا « **الانفصام والفصل** » هو موقفها الذي تميزت به عن حضارات الآخرين! . .

كذلك كانت الموازنة بين « الدنيا » وبين « الآخرة »، على النحو الذي رفضت فيه وبه حضارتنا الإغراق في الماديات. . وأيضاً رفضت الرهبنة والانقطاع للنُسُك . . فجعلت « الآخرة » مؤسسة على « الدنيا »، وقالت إن صلاح الدنيا وعمارتها شرط لصلاح الدين وإقامته. . وبلغت في ذلك إلى الحد الذي جعلت فيه تحقيق الله لعباده احتياجاتهم المادية والأمن في الحياة هو المبرر المستوجب عبادتهم إياه؟! [لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت . الذي أطعمهم من

جوع وآمنهم من خوف][1].

وما الـدين إلا أن تقـام شعـائـر
وتُـؤْمَـنَ سُبْـلٌ بـسننـا وهـضـاب ! . .

كمـا يقـول شـاعـر الاسـلام حسـان بن ثـابت [٥٤هـ ـ ٦٧٤م]. . .

وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها الإمام الغزالي [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] عندما يقول :

« إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا . . فنظام الدين بالمعرفة والعبادة ، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات ، من الكسوة والمسكن والاقوات والأمن . . . فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية . وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يفرغ للعلم والعمل ؟ وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة ؟ فإذن : إن نظام الدنيا ، أعني مقادير الحاجة ، شرط لنظام الدين »[2] .

وهذا « التوحيد الديني » . . . هو الذي وازن بين « العقل » وبين « النقل والوحي » ، فلم نشهد في حضارتنا الانحياز

---

(١) قريش : ١ ـ ٤ .

(٢) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ١٣٥ . طبعة القاهرة ـ صبيح ـ بدون تاريخ .

لأحدهما ، رفضاً للآخر - على الأقل عند جمهرة تياراتنا الفكرية - بل شهدنا كيف كان « العقل » هو السبيل لإدراك الألوهية ، واليقين بها . . وكيف كان ، مع الكتاب والسنة ، سبل الاستدلال في الدين . . الأمر الذي جعل الفلسفة تتدين ، على حين قد تفلسف الدين؟! . .

وهذا « التوحيد الديني » . . قد وازن ، أيضاً ، بين « الثوابت الدينية »، التي اكتمل بها أمر « العقائد الدينية والعبادات» . . والتي مثلت في شئون الدنيا « أُطُراً ، وغايات ومقاصد ، ومثلاً عليا، وكليات ، وفلسفات » . . وازن بين هذه « الثوابت الدينية » وبين « المتغيرات الدنيوية »، التي اختص بها العقل الانساني ، يبدع فيها، خلقاً وتطويراً ، وفق المصلحة ، وفي ضوء ثوابت الدين وأُطُره وكلياته ، تحقيقاً لمقاصد الشريعة ، التي تمثل مصلحة الامة جُماعها وسداها ولُحمتها! . .

وهذا « التوحيد الديني » . . . هو الذي علّمنا أن الشريعة المنزلة ليست فقط « الكتاب »، بل ومعه « الميزان »؟! ، الذي هو « القسط والعدل ، والشريعة العادلة عندما توضع في الممارسة والتطبيق » . . « فالعدل » مع « الإيمان »: جناحان يطير بهما المجتمع المسلم طيراناً متوازناً [الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان][1] [وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرت لأعدل

---

(1) الشورى : ١٧ .

بينكم][1].

هكـذا . . وعلى هذا النحـو كان أثـر « التوحيـد الديني »، كجُماع لفلسفة الإنسان المسلم ، « وكعدسة » لأمّة وجامعة يـرى منها الكون، ويتصـور على هديهـا الوجـود المادي والاجتمـاعي والإنساني . .

وهكذا كان هذا الوجه من وجهي « عُمْلة » حضارتنا العربية الاسلامية! . .

* * *

أما الوجه الآخر لهذه « العملة الحضارية »، فهو « التوحيد القومي »! . .

ذلك أن وثنية العـرب في الجاهليـة ، بما كـانت تعني من تعدد الآلهة في القبائل ، كانت تغذي وتجسد غياب وحدة الهُوِيَّة لهذه القبائل العربية . . فجاء « التوحيد الديني » ، ليوحد هُويتهـا في « الـدين »، وليسهم في وحـدة هـذه الهُـويـة في « القـوميـة والـدولـة » ، ومن هنـا كـانت العـروة الـوثقى بين « التـوحيـد الديني »و« التوحيد القومي »، وكان مكان أحدهما من الآخـر هو مكان وجه العُمْلة الأول من وجهها الثاني ! . . [واعتصمـوا بحبل الله جميعـاً ولا تفرقـوا ، واذكروا نعمـة الله عليكـم إذ كنتم أعداء

---

(١) الشورى : ١٥ .

فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون][1] [وألّف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم ، إنه عزيز حكيم][2] . . فأثر هذا « التوحيد الديني » في « التوحيد القومي » هو ـ كما يقول القرآن الكريم ـ آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزات الاسلام! . .

ولقد سارت الجماعة العربية على هذا الدرب . . فتوحدت القبائل في « كل قومي واحد »، أصبحت « الدولة » العربية الاسلامية إطاره وأداته ، وبلغ من ارتباط « التوحيد القومي » بـ« التوحيد الديني » الى الحد الذي اعتبرت فيه وحدة « الدولة المدنية » حقاً تقتضيه فريضة « الزكاة الدينية »، فكان قتال خلافة ابي بكر الصديق [٥١ق . هـ ـ ١٣هـ ٥٧٣ ـ ٦٣٤م] لمن « ارتدوا » عن وحدة الدولة القومية ، رغم إيمانهم بأصول الدين ، لأن « وحدة الدولة » القومية غدت حقاً من حقوق شهادة « التوحيد الديني » : لا إله إلا الله؟! . . .

وعبد عصر الفتوحات كان « الاستعراب » القومي ـ لساناً [لغة] وثقافة وحضارة ـ السبيل لاتساع دائرة الأمة القومية ، فامتزجت « القبائل » بـ« الشعوب » ، واحتضن « الاسلام »

(١) آل عمران : ٦٣ .

(٢) الأنفال: ١٠٣ .

« المواريث الحضارية » لهذه الشعوب ، فكانت الأمة الواحدة، والحضارة الواحدة الجديدة. . تبلورت الامة بالاستعراب ، وتبلورت الحضارة في عصر التدوين. .

ولقد تميزت هذه العملية التوحيدية القومية بما تميزت به حضارتنا من « الموازنة والتوازن » بين المتقابلات والمتناقضات ، فاتخذت الموقف « الوسطي والعادل » موقف « الشاهد » على المواريث الحضارية القديمة ، الذي يعدل في الحكم على صلاحيتها كي تدخل في نسيج الحضارة المستقبلية [وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس][1]. . كذلك اتخذت هذه العملية التوحيدية القومية هذا الموقف « الوسطي العادل » عندما وازنت بين « المواريث الحضارية غير العربية »، وبين « كليات الاسلام » المتعلقة « بالدنيا »، فبلورت منهما « الاسلام الحضاري ». . وعندما وازنت بين « فضائل » مختلف الجماعات والشعوب والأمم التي أدخلها الفتح في إطار الدولة الجديدة ، فصنعت من كل هذه الفضائل قسمة في الحضارة الشابة ، تتميز بها الأمة الوليدة ، رافضة قطبي التطرف والصراع : عصبية العرب الجاهلية العرقية. . وتعصب الشعوبية ضد كل ما هو عربي. . . وهي ، أيضاً ، قد وازنت بين « مركزية » « دولة الخلافة » وبين ازدهار « الولايات » وتنوع المحليات والأقاليم ،

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

فكـان الاسهـام المتعـدد والمتنـوع في البنـاء الحضـاري العـام والعظيم! . .

ولقد كان المنهج الذي صاغته الأمـة وأبدعـه عقلها طـريقاً لصنع إنجازها الحضاري المتميز هذا ، كان متسماً ، هو الآخر ، بهذِه القسمة المميزة لهذا الانجاز! . . فهذه الأمة قد فتحت نوافذ عقلها على مختلف الحضارات، ونـظرت ببصرهـا وبصيرتهـا في مواريث اليونان والفرس والهنود ، ثم أخذت، وتمثلت ، من موقع الراشد ذي الموقف المتميز ، فلم يحولها ذلك إلى يونان أو فرس أو هنـود! . . وإنمـا ظـل إنجـازهـا الحضـاري عـربيـاً إسـلاميـاً متميـزاً ! . . وكمـا تميـزت « الثمـرة » فلقـد تميـزت « الأداة » ـ المنهج ـ عندما لم يقف عند « النظر الفلسفي والفكري » فقط ، كما كان حال « القياس » عند اليونان. . . وعندما لم يهمل « النظر الفلسفي والفكري » ، مكتفياً « بالتجريب » الذي تتقاذفه وتتجاذبه موجات الخطأ والصواب. . . وإنما وازن بينهما ، فكان أن تبلور « المنهـج الاستقـرائي » ،القائم على المـلاحـظة والتجـريب والاستخـلاص الفكـري، ثم العـودة الى التجـريب ، فـالفكـر النظري . . وهكذا . . وفي هذه الموازنة المنهجية بين « المـادة » و« الفكر » لم يعد « العالم المادي » ظـلاً « لعالم المثـل » ، كما كـان الحال في الحضـارة اليونـانية ، وفي نـظرية « المُثـل » عند أفلاطون [٤٢٧ ـ ٣٤٧ق.م] ، كمـا لم يصبح « الفكـر » مجرد انعكاس « للمادة »، كما هو الحال في « الماديـة الفجة » ، التي طلعت علينا بها أوربا في العصر الحديث! . . وإنما كانت العلاقة

الجـدلية بين « الفكـر » و« المادة »، على النحـو الذي يشيـر إليه فيلسـوف الإسـلام جمـال الـدين الأفغـاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] عنـدما يقـول : « **إن كـل « شهـود » يحـدث « فكراً »، وكل « فكر » يكون له أثر في « داعيـة » يدعـو إليها ، وعن كـل « داعيـة » ينشـأ « عمـل »، ثم يعـود من « العمـل » إلى « الفكر ». دَوْرٌ يتسلسل ، ولا ينقـطع الانفعال بين « الأعمـال » و« الأفكار » ما دامت الأرواح في الأجساد ، وكل قبيل هو للآخر عمـاد ، آخر « الفكـر » أول « العمل » ، وأول « العمـل » آخر « الفكر »**[1] . .

هكذا تميزت حضارتنا . . عندما أصبح «التوحيد» هو روحها العظيـم ، إن في النظر إلى الكون وتصوره ـ « التوحيد الـديني » ـ . . وإن في الصياغة للمجتمع والدولـة ، وتصور الإنسـان لهما ، وعلاقتهما بهذا الانسان . . وإن في الأداة ـ المنهج ـ الذي استعان به الانسان العربي على بلورة هذا الانجاز. . . « فالتوحيد » يعني « التــوازن ». . كـمــا أن « الموازنــة ». . . و« التــألــيـف » . . « والتوفيق ». . و« الوسطية ». . تعني ، في الجوهر : الانحياز إلى « التوحيد »! . .

● **ورابعة هذه المقدمات التمهيدية ـ وخاتمتها ـ تبدأ بالسؤال :**

---

(١) [الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني] ج ١ ص ١٤٠. دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م .

متى فقدت حضارتنا هذه استقلالها؟ . . ولماذا؟ . .

أما : لماذا ؟ . . فلأنها قد فقدت خاصيتها ، أي طابعها الوسطي المتوازن . . أي أصيب « توحيدها » بالتمزق والانفصام ! . . . .

وأما : متى ؟ . . وكيف حدث ذلك؟؟ . . فالرأي عندي أن **البداية كانت مع بداية افتقاد أمتنا قسمة التوازن والموازنة بين « القوة » و« العقل » . . بين « السيف » و« القلم » . . بين « المادة » و« الفكر » ! . .**

لقد كان عمر بن الخطاب [٤٠ق . هـ - ٢٣هـ ٥٨٤ - ٦٤٤م] رضي الله عنه ، أول من تنبه إلى خطر « الرفاهية » على كفاءة « القوة الضاربة والحامية » ، التي لا بد منها لحماية « الدولة » و« الأمة » ومنعتهما ورفاهيتهما . . فمنع الجند من امتلاك الأرض الخصبة عندما فتحوا أودية أنهار مصر والشام والعراق ، بل وبنى لهم مدناً خاصة ، ومنع الناس في البلاد المفتوحة من التزيي بالزي الخاص للجنود! . . وفرض الحجر على الصحابة ، وخاصة من كان منهم من أشراف قريش ، كي لا يغادروا العاصمة - [المدينة] - إلا بإذن ، ولأجل مسمى ، حتى ولو كانت الحجة هي الغزو والجهاد في سبيل الله! . . وهو القائل : «لآخذن بحلاقيم قريش لأمنعهم من أن يتجاوزوا الحرثين! » . .

لكن عثمان بن عفان [٤٧ق . هـ - ٣٥هـ ٥٧٧ - ٦٥٦م] رضي الله عنه ، لم يصنع ذلك الذي صنعه عمر بن الخطاب . .

ففي عهده « خرجوا إلى البلاد الغنية التي فتحت ، فلما نزلوها ، ورأوا الدنيا؟! ورآهم الناس ، انقطع إليهم الناس. . وتقربوا إليهم ، وقالوا : يملكون ، فيكون لنا في ملكهم حظوة؟!. . » ويكمل المؤرخ « الطبري » الحديث فيقول : « **فكان ذلك أول وهن على الاسلام ، وأول فتنة كانت في العامة!** »[1]. .

فلما كان العصر العباسي ، كانت الرفاهية قد ابتعدت بالعنصر العربي عن حياة الجندية وخشونتها ، فافتقدت الأمة قسمة التوازن بين « القوة » وبين « العقل ». . ثم كان حذر « الدولة » من العنصر العربي لميله إلى « العلويين » من آل البيت ، ونصرته لثوراتهم التي كان يقودها « الزيديون ». . وكانت « الشعوبية » ، المدفوعة بالثأر ضد الدولة العربية ، والمشحونة بالمواريث المجوسية ضد الاسلام ، تسعى لتقويض « الدولة » ولإفساد « الدين »!. . فما كان من الخليفة العباسي المعتصم [١٧٩ - ٢٢٧هـ ٧٩٥ - ٨٤١م] **إلا أن خطا الخطوة القاتلة عندما اختار للدولة جندها وقوتها الضاربة من الترك المماليك ، الغرباء عن حضارة الأمة ، بحكم العنصر والحس والنشأة والتكوين، والذين لا يكنون وداً لعقلانية حضارتها ، بحكم كونهم « عسكراً » فضلا عن كونهم مماليك؟!. . فلما تضخمت هذه المؤسسة العسكرية ، الغريبة عن الروح الحضاري للأمة ، تجاوز**

---

(١) ابن أبي الحديد [شرح نهج البلاغة] ج ١١ ص ١٢ ، ١٣ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.

الأمر حدود « فقدان التوازن » إلى رجحان كفة « القوة » على كفة « العقل » ، فكان انقلاب المتوكل العباسي [٢٠٦ ـ ٢٤٧هـ ٨٢١ ـ ٨٦١م] الذي أطاح بالتيار العقلاني، الذي بلور الصفحات المشرقة لحضارتنا، وجاء بمن يقفون مع «ظواهر النقل»، متنكرين للعقل ومنكرين جدواه! . ومن يقفون مع «التشبيه» و«التجسيد»، المنافي « للتوحيد » و« التنزيه »! . . ومن يرجحون علوم الآخرة على علوم الدنيا! . .

فلما امتد العمر بسلطان العسكر المماليك ، وتوالت دولهم على مقر الخلافة وأقاليمها ، ومد في عمر هذه الدول وأحكم من قبضتها ذلك الخطر الصليبي الزاحف من أوروبا ، تراجعت قسمة العروبة من حضارتنا ، وظهر ذلك التناقض الذي زعموه بين الاسلام والعروبة ، كمحاولة لإبراز الرباط الديني الذي يجمع الحاكم بالمحكوم ، ونفي الرباط القومي ، الذي يستنفر المحكومين كي ينهضوا فينفضوا عن كاهلهم ذلك السلطان الغريب عن قوميتهم[1]! . . ففقدت حضارتنا روحها المميز لها ، وغابت قسمة الموازنة والتوازن ، التي طبعت هذا الروح . . فكان أن دخلت مرحلة التراجع ، فالجمود! . تلك المرحلة التي تدعمت بالسيطرة العثمانية على أغلب أقاليم العالم العربي . . واستمرت حتى ظهور حركات التجديد والنهضة في عصرنا

---

(١) انظر ، في تفصيل ذلك ، كتابنا [الاسلام والعروبة والعلمانية] طبعة بيروت سنة ١٩٨١م .

الحديث.. والتي كان عليها، كي تستعيد لحضارتنا استقلالها، أنْ تبعث وتطور القسمات التي ميزت هذه الحضارة، وصنعت لها هذا الاستقلال.. وعلى وجه التحديد قسمات:

أ ـ السلفية الدينية:

تنفض بها عن العقائد الدينية ركام البدع والخرافات والزوائد والاضافات التي تراكمت عليها في عصر الجمود المظلم.. وتعيد بها إلى الدين جوهره الأهم وروحه الأعظم، وهو «التوحيد الديني» في العقائد والعبادات.. ومن ثم تعيد إليه طاقة الفعل والخلق والابداع على الجبهة الحضارية..

ب ـ والاستنارة والتمدن:

في شؤون الحضارة وأمور الدنيا ونظم المعاش والعمران، حتى تستطيع الأمة فتح نوافذ عقلها على الحضارات الأخرى وتجارب الأمم التي تقدمت، وليصح عقلها فتتمكن من التمييز بين تراثها الخلاق المحرك لطاقاتها المبدعة والباعث لامكانياتها الخلاقة، وبين تراث عصر الركاكة والجمود.. الأمر الذي يعنها على الموازنة بين «أصالتها» وبين «العصر» الذي تعيشه و«المستقبل» الذي تفكر فيه!..

ج ـ وعروبة السلطة:

في المجتمع، حكومة، وإدارة، وجيشاً، وتعليماً،

وثقافة ، وتشريعاً . . حتى تضمن سيطرة العقل والروح التي جعلت « التوحيد » هو المزاج المميز لحضارتها في عصر الازدهار. .

وبقدر نجاح حركات التجديد والنهضة ودعوات الاصلاح في تبني أدوات التجديد هذه ، واستخدامها بكفاءة واقتدار ، كان نجاحها في التعبير عن طموح الأمة لتجاوز عصر توقفها الحضاري ، والدخول ، بمشروعها الحضاري المستقل ، عصر النهضة والإحياء! . .

دعوات التَّجديد السّلَفيَّة
واستقلالنا الحضاري

بدأت يقظة أمتنا ، في عصرها الحديث ، بظهور الحركات السلفية ، التي رامت تجديد الدين ، وصبغ المجتمع بصبغة هذا الدين بعد تجديده . . وكان « تدين » حركات التجديد هـذه ـ أي اتخاذها الدين سبيلاً للبعث القومي والحضاري ـ التعبيـر التلقائي عن مكان الاسلام ودوره في أي مشروع لإيقاظ هذه الأمة وتجديد حياتها . .

ومنـذ البدء ، كـان واضحاً أن هـذه الدعـوات والحركـات الدينية السلفية تواجه خطرين رئيسيين وعدوين أساسيين :

أولهمـــا :

« التخلف » الذي صنعته وتحرسه فكرية العصور الوسطى والمـظلمـة . . فكـريـة عصـور تسلط المـمـاليـك وسلطان العثمـانيين . . « التخلف » عن جوهـر الاسلام وحـركته الحيـويـة وطاقته المبدعة ـ عقيدة كان هذا الاسلام أو شريعة ـ فلقد أحلت

تلك العصور محل « الإسلام الحق » نسقا فكرياً مثقلاً بالشعـوذة والخرافة والسلبيـة والتواكـل . . بعد أن أضفت على هـذا النسق قداسة الدين! . .

وثـانيهمــا :

« التقدم » الذي تسلحت به أوربا الاستعمارية في هجمتها الحديثة على ديار العروبة وعالم الاسلام. . والذي أرادت به نهب اقتصاديات الأمة ، واحتلال أرضها ، ومسخ شخصيتها القومية ، وإزالة تمايزها الحضاري ، كي تصبح « هامشاً » لأوربا ، إن في الاقتصاد أو الأمن أو « القيم » و« الثقافة ». . وقسمات الحضارة بوجه عام! . .

ومن بين الدعوات والحركات السلفية الدينية التي استيقظت الأمة على وقع خطواتها كانت : « الوهابية ». . و« السنوسية ». . و« المهـدية »، أبـرز هذه الـدعـوات والحـركـات. . . وهي وإن جمعتها غايات التجديد والإصلاح على أسس دينيـة سلفية ، إلا أن النظرة المتأملة المتأنية تكشف ما بينها من تمايز فرضته واقتضته ظروف الواقع والبيئة والتكوين على القادة والـدعاة والجمهـور. . واستدعته التحديات التي واجهت هذه الدعـوات والحركـات في البيئات المتميزة التي نشأت فيها. .

- ١ -
الوَهّابيَّة

في بيئة بدوية بسيطة ، هي « نجد » ، بشبه الجزيرة العربية ، ولد ونشأ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢م] . .

وكانت السيادة الإسمية والرسمية على موطنه لخلفاء آل عثمان. . وكان ابن عبد الوهاب سليل أسرة من الفقهاء ، أخذ عنهم علوم الدين ، كما درس على علماء مكة والمدينة ، وظهر نزوعه المبكر إلى النهج السلفي ، الرافض لما طرأ على عقائد الاسلام وعباداته من بدع وخرافات وإضافات . .

لقد نظر ابن عبد الوهاب فوجد عامة الناس يتخذون الوسائل والوسائط شفعاء إلى الله ، بل ويتوجهون إليهم بالطلب والدعاء والاستغاثة في الملمات. . كما وجد البدع قد أصابت العبادات ، بالزيادة والنقصان. . فلما عرض صورة « إسلام العامة » هذا على حقيقة « اسلام السلف » وجد أن الاسلام الأول ـ إسلام السلف ـ قد أصبح « غريباً »!. . فكان أن وجد نفسه في ذات الموقف الذي

وقفه إمام السلفيين القدماء : الامام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م] عندما دعا إلى العودة لإسلام شبه الجزيرة ، الأول ، إسلام ما قبل عصر الفتوحات ، ذلك الذي يكفي الانسان منه النصوص ، دونما حاجة إلى العقلانية الكلامية أو الفلسفية ، وما أثمرت من « قياس » و« رأي » و« تأويل »[١] ! . .
وكانت بيئة « نجد »، البسيطة ، أكثر ملاءمة للإسلام السلفي البسيط ، فظواهر النصوص تكفي للإجابة على علامات استفهام انسانها البسيط ، كما تكفي لتصحيح معتقداته وتصوراته ، وإعادة عباداته إلى إطار الاسلام الصحيح والبسيط . .

بدأ ابن عبد الوهاب يدعو إلى إسلام السلف ، ويبشر بفكر ابن حنبل ، وابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] وابن قيم الجوزية [٦٩١-٧٥١هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] ويركز على إصلاح « العقائد » وتقويم « التصورات » وتصحيح « العبادات » . . فحكم بالشرك ، الظاهر والجليّ ، على المتوسلين إلى الله بالأولياء والصالحين والمشاهد والمزارات والرموز ، بل رأى أن شركهم هذا هو أعظم من شرك الجاهلية الأولى[٢] . . . ورفض - كما صنع اعلام السلفية الأول - أن يحتكم

(١) انظر الفصل الذي كتبناه عن « السلفية » بكتابنا : [تيارات الفكر الاسلامي] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢م . وطبعة ١٩٨٤م . وطبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .
(٢) ابن عبد الوهاب : رسالة [هدية طيبة] - مطبوعة ضمن [مجموعة التوحيد] ص ١٥٦ - طبعة المكتبة السلفية . القاهرة .

لغيـر النصـوص ، فهـاجم « القياس » ، حتى لـو كان صحيحـاً ، وأعرض عن « التأويل » في فهم النصوص وتفسيرها[1] . . . وأعلن أن « الرأي » لا وزن له بجانب النصوص[2] . . .

وكان طبيعياً أن تصطدم هذه الدعوة السلفية بفكرية العصور الوسطى ، تلك التي كان يرعاها خلفاء آل عثمان! . .

ولم يقف أمر هذا التصـادم عند الحـدود الفكريـة . . فلقد كان ابن عبد الوهاب أكثـر من « شيخ » ، وأعـظم من « فقيه » ، وأكبر من « داعية » . . ومن ثم فإنه لم يشـأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها أو مواعظ يلقيها أو مذهب فقهي يبشر به ، أو حتى حلقـة من الاتباع والمـريدين . . لقـد أراد أن تكون « لـدعوتـه » « دولة »، تضمن لها التطبيق والانتشار والاستمـرار . . فالله يـزع « بـالسلطان » ما لا يـزع « بالقـرآن »؟! . . ولقد زاد هـذا العـزم والـسعي من احتمـالات التصـادم ومن حجمـه مـع خلفـاء آل عثمان! . .

غادر ابن عبد الوهاب « حريملا » ـ التي بـدأ فيها دعـوته ـ إلى « العينية » ، فعرض مذهبه على رئيسها عثمان بن أحمـد بن معمر ، الذي استجاب لدعوته ، فعقد معه عهـداً أن ينصر دعـوة [لا إله إلا الله] ، ويسخر قوته لاقتلاع عقائد « الشرك » ورموزه ،

---

(١) المصدر السابق . رسالة [هذه مسائل الجاهلية] ص ٨٧ .

(٢) عبد الكريم الخطيب [الدعوة الوهابية] ص ١٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م .

مقابل « أن يملكه الله نجداً وأعرابها »![1] . . فتحرك جيش « العينية » ، وفي مقدمته ابن عبد الوهاب ، لهدم القباب ، واقتلاع الأشجار وإزالة الرموز التي كان العامة يقدسونها ويتخذونها وسائط تقربهم - بزعمهم - إلى الله زلفى ! . . وكان قبر الصحابي زيد بن الخطاب [١٢هـ ٦٣٣م]، باليمامة ، من بين القباب التي قاد ابن عبدالوهاب عملية هدمها، بعد أن أجفل حتى جند أمير « العينية » عن الإقدام على هدمه! . . ولقد استفز ذلك أعراب الناحية ، فخشي عثمان بن معمر عداءهم ، فطلب إلى ابن عبد الوهاب مغادرة المنطقة خوفاً على حياته . . فغادر « العينية » إلى « الدرعية » سنة ١١٥٨هـ سنة ١٧٤٥م .

وفي « الدرعية » تحالف ابن عبد الوهاب مع أميرها محمد بن سعود [١١٧٩هـ ١٧٦٥م] . . فسادت الدعوة السلفية فيها وفي نجد وما تاخمها . . ثم أخذ يعرض دعوته على حجاج بيت الله الحرام وزوار مسجد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، في موسم الحج والزيارة . . وبدأ الحجاج يسمعون ويتناقلون آراءه التي تحكم « بالكفر » حتى على خليفة المسلمين العثماني؟! . .

وكان ابن عبد الوهاب يقود الجهاد ، في طليعة جيش ابن سعود . . فهاجموا « كربلاء » ، بالعراق ، واستولوا على الكنوز الذهبية والفضية النفيسة لمشاهدها ومزاراتها سنة ١٢١٦هـ

(١) المرجع السابق ص ٦٤ .

١٨٠١م. . ودخلوا المدينة المنورة سنة ١٢٢٠هـ ١٨٠٥م، وأزالوا القباب والشواهد الخاصة بمزارات الصحابة في مقابر البقيع. . وفي العام التالي ذهب ابن سعود إلى مكة، حاجاً ومستعرضاً قوته، فبايعه «شريفها»، وطرد من كان بها من رجال الدولة العثمانية. . وهكذا تمت للوهابية ـ الدعوة والسلطة ـ السيطرة على الحرمين ونجد والحجاز، فتصاعد تحديها «للدولة» العثمانية و«لفكريتها» المثقلة بالشعوذة والخرافة!.

لكن العثمانيين، بعد أن فشلوا في مواجهة الوهابية، استعانوا بمحمد علي باشا، والجيش المصري، الذي أسقط الدولة الوهابية وأجهز عليها عندما احتل عاصمتها «الدرعية» في ٧ ذي القعدة سنة ١٢٣٣هـ (٨ سبتمبر سنة ١٨١٨م)، بعد سنوات طويلة من القتال. . وبعد ثلاثة أرباع القرن على ظهور دعوة ابن عبد الوهاب. . وبقيت الوهابية «دعوة» تسعى لإقامة «الدولة»، حتى تيسر لها ذلك في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، على يد الملك عبد العزيز آل سعود [١٢٩٣ - ١٣٧٣هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٣م]. .

* * *

● كانت الوهابية، على جبهة «**العقائد والشعائر الدينية**»، حركة تجديد سلفية، نشأت في بيئة عربية بسيطة، لم تعرف الفكر المركب، لخلوها من تعقيدات الحضارة وأنماطها الفكرية المركبة، فكانت صورة إسلامها هي صورة الإسلام العربي الأول

في عصر صدر الإسلام . . ومن هنا كانت ثورة تجديدية ضد صورة الإسلام العثماني ، ذلك الذي أثقلته البدع والخرافات طوال العصر الذي فقدت فيه حضارتنا مقومات الإبداع وقسمات الاستقلال . . وكان « التوحيد » الإسلامي الخالص ، كما بشرت به الوهابية ، إسهاماً في إعادة روح التميز والاستقلال إلى البناء الحضاري لأمتنا على جبهة « العقائد والشعائر الدينية » . .

● والوهابية ، كامتداد للفكر السلفي ، الرافض للتأثيرات الفلسفية اليونانية في حضارتنا ، قد تبنت إبداع أعلام السلفية ـ وخاصة إبداع ابن تيمية ـ في صياغة « منطق إسلامي » متميز لحضارتنا، بدلاً من « منطق أرسطو » الذي تبناه عدد من فلاسفة المسلمين ، أو تأثروا به . . فإزاء هذه القسمة من قسمات تمايزنا الحضاري ، كانت السلفية ، عند ابن تيمية ، تتويجاً لجهود عربية إسلامية استقلالية بدأت ونمت . . بدأت بإبداع الإمام الشافعي ، محمد بن إدريس [١٥٠ ـ ٢٠٤هـ ٧٦٧ ـ ٨٢٠م] في « أصول الفقه » ، التي قدمها في مقابل « منطق أرسطو »، الذي رفضه باعتباره ابنا للغة اليونان ، يستحيل أن يكون منطقاً لأهل اللغة العربية! . .ونمت هذه الجهود بإبداع المتكلمين المسلمين ـ من المعتزلة وغيرهم ـ لأصول الدين ـ علم الكلام ـ الذي رفضوا فيه وبه منطق أرسطو ، لارتباطه « بالميتافيزيقا » اليونانية الوثنية ـ التي لم تعرف الوحي ولم تعترف به ـ والمخالفة لإلهيات المسلمين والاسلام! . .

ولقد توج ابن تيمية هذه الجهود ، التي تمت على درب التمايز والاستقلال الحضاري ، بنقده لمنطق أرسطو ، الذي رآه مقيداً للفطرة الإسلامية بقوانين صناعية متكلفة ، وحائلاً بقوانينه الكلية الثابتة دون الوفاء بالحاجة الاسلامية المتغيرة . . وداخلا فيما لا ضرورة له ، حيث لم يشتغل به الصحابة ولا الأئمة ، ومع ذلك فلقد توصلوا ـ كما يقول ـ إلى كل نواحي العلم؟! . . توجت هذه الجهود بتبلور منطق الحضارة العربية الاسلامية الاستقرائي ، القائم على الملاحظة والتجريب ، في مقابل منطق أرسطو، القائم على المنهج القياسي ، والنابع من روح الحضارة اليونانية، التي لم تحفل بالتجربة بقدر ما ركنت الى النظر الفكري والفلسفي[1] . .

وعلى هذه الجبهة الفكرية ، كانت الوهابية ، كامتداد للفكر السلفي ، إسهاماً في الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الاسلامية . . وإن تكن بداوة بيئتها ، وفقر الفكر الفلسفي عند أعلامها قد جعل إسهامها على هذه الجبهة متمثلاً في رفض التبعية الفكرية ، مع العجز عن الابداع في بلورة البديل وتطويره! . .

● وعلى « جبهة العروبة » . . كانت الوهابية إسهاماً في

---

(١) د . علي سامي النشار [مناهج البحث عند مفكري الاسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الاسلامي] ص١٨٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٦٣ ، ٣٠٥ ، ٣٧٨ ـ ٣٨٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

الجهد المبذول كي تستعيد الأمة هذه القسمة من قسمات استقلالها الحضاري. . فهي « كدعوة » و« كدولة »، قد مثلت طليعة التحديات العربية للسلطنة العثمانية المتسلطة على أغلب أقاليم الوطن العربي. . ثم هي ، في المجال الفكري ، قد سحبت ـ إسلامياً ـ الشرعية والمشروعية عن ولاية العثمانيين على العرب ، عندما تبّنت وأبرزت موقف أغلب فقهاء الاسلام ـ ومنهم فقهاء السلفية ـ المنحاز لضرورة توافر شرط العروبة القرشية فيمن يتولى منصب الخليفة والإمام! . .

لقد مثلت الوهابية ـ بهذا الموقف الفكري والعملي ـ في يقظتنا الحديثة : بعداً قومياً ، لم يصل بها إلى حد جعلها حركة قومية ، عربية ـ بالمعنى المتعارف عليه في الأدب السياسي الحديث ـ لكنه مثل إسهاماً بارزاً على درب العروبة الساعية كي تنفض عن كاهلها سلطة الترك العثمانيين ! . .

● لكن الوهابية ، بسبب من بداوة البيئة التي نشأت بها ، قد اتخذت موقفاً غير ودي من « العقلانية » ومن « التمدن ». . . فظواهر النصوص كانت كافية للإجابة على ما تثيره بيئتها البدوية البسيطة من مشكلات ، وما تطرحه من علامات استفهام. . ومواريثها السلفية ، التي بدأت بإمام السلفية ، أحمد بن حنبل ، قد رفضت « عقلانية المسلمين » ضمن رفضها « لعقلانية اليونان »! . . وجاءت الوهابية ، محكومة بأوضاع بيئتها البدوية ، فرفضت « التمدن » عامة ، كجزء من رفضها ذلك « التمدن

الغـربي » الذي كـان يتسلل إلى عالم الاسـلام من تلك الثغرات التي فتحها الغرب في جدار آل عثمان؟!..

ولقد دفع الوهابية على هذا الـدرب، وأوغل بهـا في هذا السبيل خلطها الشديد بين ما هو « دنيا ، وما هو « دين »، فلما لـم « تميز » بينهما ، فحسبت أن تجديد « الدنيا » يتحقق بما يتجدد به « الـدين »، فـدعت إلى « السلفيـة الـدنيـويـة » كمـا دعت إلى « السلفية الدينية » ، وغفلت عن أن تجديد ثوابت الدين لا بد فيه من « الاتباع » دون « الابتداع » ، بينما تجديد متغيرات الدنيا لا بد فيه من « الابتداع »، في اطار المقاصد الدينية والأُطـر العامة التي نـزل بهـا الـروح الأمين على الـرسـول ، عليـه الصـلاة والسـلام. . . ولم تـدرك الـوهـابيـة أن « الاتبـاع » هنـا لا يثمـر « التجديد »، بل يؤدي إلى « الجمود »!..

ولقـد تحـدث الإمـام محمـد عبـده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] عن هذه السلبية في الدعوة الـوهابيـة ، رغم اتفاقه معها في « السلفية الدينية » ، التي جعلته يدعـو إلى « فهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخـلاف ، والرجـوع في كسب معـارفـه إلى ينـابيعهـا الأولى. . . »[1] يتحـدث الإمـام محمـد عبـده عن قصـور الـوهـابيـة على جبهـة « العقـلانيـة »

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمـد عبده] ج ٢ ص ٣١٨. دراسـة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

و« التمدن »، فيقول : « إنهم أضيق عطنا ـ [أفقا] ـ وأحرج صدراً من المقلدين . فهم وإن أنكروا كثيراً من البدع ، ونحوا عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه ، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به ، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء »[1]؟! . . .

* * *

في هذه المواقع ، وعند هذه الحدود وقفت الوهابية على جبهة نضال أمتنا لاستعادة استقلالها الحضاري ، وبلورته ، في عصرنا الحديث . . .

لقد انتصرت « للسلفية الدينية » . . . و« للعروبة » . . لكنها تخلفت عن مستويات طموحات أمتنا الحضارية على جبهة « التمدن » ، عندما استبدلت ـ على هذه الجبهة ـ « سلفية الدين » « بمستقبلية الدنيا وتمدنها »! . . فوقفت صلاحيات فكريتها في « التمدن » عند حدود البيئة البدوية التي نشأت وتبلورت فيها ، وعجزت عن تلبية حاجات البيئآت العربية الاسلامية المتحضرة ، ذات الفكر المركب والطور الحضاري المتقدم! . . .

---

(١) المصدر السابق . ج ٣ ص ٣١٤ .

- ٢ -

السّنوسيَّــة

تميـزت نشـأة إمـام السنـوسية محمـد بن علي السنـوسي [١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م] عن نشأة محمد بن عبد الوهاب.. فلقـد ولد السنـوسي بقريـة « الواسـطة » بالقـرب من « مستغانم »، بمقاطعة « وهران » الجـزائريـة ، في بيئة عـربية لا تغلب عليها البداوة . .

وكـان طموحـه إلى العلم والفروسيـة ملحوظـاً منـذ النشـأة المبكرة ، فمنذ الصبا كان يقسم يومه إلى قسمين ، أحدهما لطلب العلم ، والثاني للفروسية والتدرب على القتال!.. وهو قد درس في « القـرويين » ، بمـدينـة فـاس المغـربيـة ، و« الأزهـر »، بالقاهرة.. وانخرط في عـدد من طرق التصوف.. وتلقى العلم عن عدد من شيوخ مكة والمدينة..

وكـان السنوسي مـالكي المـذهب في الفقـه.. وليس بين الامـام مـالـك بن أنس [٩٣ - ١٧٩هـ ٧١٢ - ٧٩٥م] وبيـن

« العقـلانيـة » مـا بين أحمـد بن حنبـل والمنهـج العقلي من خصام؟!!.. وفي بيئة غير عاريـة من قسمات المـدنية والتمـدن كون السنوسي طريقته ، وشرع يبث الدعوة ويصنع الدعاة..

● ولقد كانت سلفية السنوسية متميزة ، لذلك ، عن سلفية الوهابية.. فهي تشاركها في الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد لتجديد الدين ، وفي رفض فكرية السلطنة العثمانية ، لما أثقل إسـلامها من خرافات ، وزوائد وبدع.. لكن الطريقة السنوسية قد مزجت « الشـريعـة » بشيء من « التصـوف »، وخلطت « البـرهـان » « بالاشراق »!.. فهي « بالشريعة والبرهان » تجد الدين ، عندما تعـود إلى منابعـه كي تفهم عقائـده وشعـائـره وشـرائعـه.. وهي « بالتصوف » تستعين على تربية النفس وتقـويم السلوك وصقـل الملكـات وبسمو بالوجدان!... صنعت ذلـك المزيـج مع ميـل ملحوظ إلى « الشريعة والبرهان » !...

ولقد أنجزت السنوسية على هـذا الدرب إنجـازاً عظيمـاً ، فهي قـد صححت عقـائـد الـذين انخـرطـوا فيهـا من الأتبـاع والمريدين ، وكثير منهم ، وخاصة في الصحراء المغربية ، كانت تشوب عقائدهم الاسلامية ، بل وشعائرهم عناصر وثنية وجاهليـة عديدة!... وهي قد نشرت الاسلام بين أقوام أفارقة كثيرين كانوا وثنيين ، فقـطعت الطريق على التبشيـر الاستعماري الـذي كـان يمهد ، بالمسيحية . الأرض للنهب والاحتلال والاحتواء!.. ولقد كان لها الفضل في صنع « الحزام الاسلامي »، الممتد في وسط

افريقيا ، من شرقها إلى غربها ، وإقامة سلطنات وإمارات اسلامية عدة حاربت الاستعمار الغربي وأعاقت سيطرته سنوات. . وصنعت ذلك أيضاً عندما تصدت للاستعمارين الايطالي والانجليزي على الجبهة الشمالية والشرقية ، وعندما أقلقت السيطرة الفرنسية على بلاد الشمال الافريقي. . .

وكان هذا إنجازاً هاماً وإسهاماً بارزاً استعانت السنوسية في صنعه « بسلفيتها المجددة » تلك التي واجهت بها خرافة عصر الجمود وخطر المد الاستعماري على هوية الأمة واستقلالها الحضاري .

● وعلى جبهة « العروبة » ـ عروبة « الدولة » و« الفكر » و« الحضارة » ـ أسهمت السنوسية إسهاماً بارزاً وملحوظاً. . . فهي قد نشرت العربية مع نشرها الاسلام في أصقاع جديدة. . وهي قد رفضت الاعتراف بشرعية التسلط العثماني على حكم الأمة العربية ، عندما تبنت وأبرزت موقف فقهاء الاسلام من ضرورة عروبة الخلافة وقرشيتها. . وفي كتاب السنوسي [الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية] يدافع عن هذا الشرط من شروط الخليفة ، ويستشهد برأي أبي الحسن الماوردي [٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨م] ويرفض رأي الذين يشيعونها في غير العرب من المسلمين ! . .

ثم إن السنوسية السياسية قد اتخذت من الدولة العثمانية موقفاً يتراوح ما بين « الصمت الحذر »، و« المراوغة » ،أو

« العداء »! . . فهي قد أزعجت طلائع المد الاستعماري الغـربي على إفريقيا ، وأقلقت الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي ، وخاصة في الجـزائر ، حتى لقـد كتب وزير الخـارجية الفـرنسي جابرييل هانوتو G.Hanotaux[١٨٥٣ - ١٩٤٤ م] وهـو يتحدث عن « المسـألة الاسـلامية »، فعبـر عن انـزعـاجـه من « كفـاح » السنوسيين ضد الأوربيين ، و« كـراهيتهم للمدنية » الأوربية! . . وصرح بأن موقفهم غير الودي من الدولة العثمانية ، ومقاطعتهم لها سببها ما بين هـذه الدولـة وبين أوربا من عـلاقات! . . وعبـر عن مخـاوفه من مقـاومتهم للسيطرة الأوربيـة المسيحية الاستعمـاريـة فقال : « . . . إن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنايا الفتـوح وطـن أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم ، ولكن لم تثبط هممهم؟!». . . ثم يستطرد هانوتو في الحديث عن خطر السنوسية على الاستعمار الفرنسي ونمطه الحضاري فيقول : « لقد أسس الشيخ السنوسي ، في جهة ليست بعيدة من الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر - [؟!] - مذهباً خطيراً ، لـه أشياع وأنصار . . . ومن مذهبهم التشـدد في القواعـد الدينيـة . . ولقد لبثوا زمناً مديداً لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية [العثمانية] بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية [الاستعمارية الأوربيـة] - . . . وهم يطرحـون حبائـل الـدسـائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحنا في إفريقيا الجنوبية؟! . فهنـاك ، في قرانـا وبلدانـا - [كـذا؟!] - ترى درويشـا فقيـراً ، متدثراً بأرديته البيضاء ، المعلمة بخطوط سوداء ، يلهـج لسانـه

بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويه عن ذلك شيء . . وهـذا الدرويش ـ الذي ينتقل من خيمة إلى خيمة ومن قرية إلى قرية ، راوياً حوادث الأقطاب الأولياء من مشايخ الاسلام ـ إنما يبذر في القلوب ، حيثما حل وأينما توجه ، بذور الحقد والضغينة علينا . . »[1]؟! . . .

وعندما ضغطت الدول الأوربية الاستعمارية على السلطان العثماني عبد الحميد [١٢٥٨ ـ ١٣٣٦هـ ١٨٤٢ ـ ١٩١٨م] كي يوقف النشاط السنوسي ، استجاب لهذا الضغط ـ بعد تمنع وإبطاء ـ فاستدعى المهدي السنوسي [١٢٦٠ ـ ١٣٢٠هـ ١٨٤٤ ـ ١٩٠٢م] ليقيم في الآستانة ، في « قفص ذهبي »! كالذي احتبس فيه ذلك السلطان جمال الدين الافغاني ، حول ذات التاريخ؟! . . ولكن المهدي السنوسي تخلص من هذا الفخ ، متلطفاً . . بل ونقل مقره بعيداً في الصحراء الليبية ، فغادر « جغبوب » إلى « الكفرة » فلما زاد الخطر واقترب ، انتقل من « الكفرة » إلى « فرو » بالسودان الأوسط؟! . .

ذلك أن السنوسية كانت تدرك أن الضعف العثماني قد حول الدولة العثمانية إلى جدار مليء بالثغرات التي يتسلل من خلالها نفوذ الغرب الاستعماري كي يلتهم ديار العروبة والاسلام . . حتى لقد غدا « الترك ـ كما يقول أحمد الشريف السنوسي ـ مقدمة

---

(١) [الاسلام والرد على منتقديه] ص ١٨ ، ١٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .

النصارى - [أي المستعمرين الأوربيين] - ما دخلوا محلاً إلا ودخله النصارى! » . . وحتى ليقول المهدي السنوسي : « الترك والنصارى ، إني أقاتلهم معاً! » .

فالسنوسيون ، بموقفهم مع العرّبية ، ومع الاسلام العربي ، وبعدائهم لأعدائهما ، أوربيين كان هؤلاء الأعداء أو أتراكاً عثمانيين . . . وأيضاً ، بما أعادوا وبعثوا من فروسية عربية في الخلق والقتال ، وبما انحازوا إليه من ضرورة عروبة الخلافة وقرشيتها ، كانوا أصحاب إسهام عظيم على هذه الجبهة من جبهات الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الاسلامية . .

● وإزاء قسمة « التمدن » ، أبدعت السنوسية نموذجاً متميزاً يجتذب الأنظار ويدعو البصائر إلى التأمل العميق . . فالسنوسي كان صاحب نظر في العلوم الطبيعية ، واقتناء لأدواتها ، إلى جانب تبحره في علوم الدين واجتهاده فيها! . . وأمام الخطر الاستعماري الشامل والمحدق والمهدد لكيان الأمة ، أدرك الرجل أن لا بد من « المرابطة »، بما عناه هذا النظام في تاريخ الاسلام من تنظيم لطاقات الأمة وحشد لها في وحدات مقاومة متراصة تتصدى ، « بالبناء وبالقتال »، لخطر الأعداء ! . . فكانت فكرة « الزاوية » السنوسية ، كمؤسسة متكاملة لصنع الرجال ، دينياً ودنيوياً ، وتنمية المجتمع ، ومجاهدة الأعداء ، ونشر العروبة والاسلام! . . كانت « الرباط » الاسلامي الحديث ، الذي يبعث ويجدد روح « الرباط » و« المرابطة » الاسلامية الأولى ، تلك

التي قال عنها الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها! . . »[1] . . والتي قامت عليها وباسمها دولة جددت الاسلام بالمغرب حيناً من الدهر ، هي دولة « المرابطين » [٤٤٨ - ٥٤١هـ ١٠٥٦ - ١١٤٦م] . . .

كانت « الزاوية » السنوسية هي : مؤسسة الحكومة - [الطريقة] - . . ومزرعة الدولة . . ونموذج المجتمع الجديد الموعود . . فغير المسجد ، نجد فيها : منزلاً لقائدها - [المقدم] - وللوكيل ، وللشيخ . . . وفيها بيوت للضيوف وعابري السبيل ، وللفقراء الذين لا مأوى لهم ، وفيها مساكن للخدم ، ومخازن للمؤن ، واصطبل ، ومتجر ، وفرن ، وسوق . . . وحول هذه المباني « العامة » توجد المساكن الخاصة بالقبائل التي تقوم « الزاوية » في منطقتهم ، لتطويرهم وقيادتهم . . .

« وللزاوية » أرض زراعية خاصة بها ، وآبار جوفية ، وصهاريج لحفظ المياه . . وأرضها وحدائقها تزرع جماعياً ، تعمل فيها القبائل ، بلا أجر ، يوم الخميس من كل أسبوع؟! . . كما تتدرب فيها يوم الجمعة من كل أسبوع على الفروسية والقتال! . . . ومحصول أرض الزاوية ينفق على احتياجات فقرائها ، وضيوفها ، غذاء وكساء وتعليماً وعلاجاً وزواجاً ، وما بقي يذهب لمقر الطريقة الرئيسي . . .

---

(١) رواه : البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة والدارمي وابن حنبل .

و« مقدم » الزاوية هو ممثل شيخ الطريقة ، وقائد قبائلها في الجهاد!. . و« الوكيل » هو المشرف على الزراعة وشؤون الادارة والاقتصاد. . أما « الشيخ » فإنه يتولى التعليم وشؤون الزواج . . . ومن هؤلاء الثلاثة ومن رؤساء القبائل المحيطة « بالزاوية » يتكون مجلس إدارتها. .

تلك هي « الزاوية » السنوسية : أداة التنمية المتميزة ، التي صاغتها البيئة ، والتي جعل منها الخطر الاستعماري قلعة للذب عن العروبة والاسلام والجهاد في سبيل الله!. . ولقد وصفها السنوسي فقال : » إن الأرض تبتهج من حولها بأنواع الأشجار ، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار ، وتنتشر فيها العمارة ، وتتسع الإدارة . . والعاملون فيها ، بالزراعة والحرف ، هم السابقون عند الله للعاكفين على الأوراد والأوراق والمسابح ! ». . .

لقد صاغت بيئة « الزاوية » ، وحدد الخطر المحدق بأهلها الصورة والحدود التي جاء عليها هذا النموذج السنوسي في « التمدن ». . . وهو وإن لم يكن النموذج الأصلح لبيئات أكثر تطوراً ، إلا أنه قد كان ، في واقعه وظروفه ، إنجازاً عبقرياً على درب التمايز ، والاستقلال الحضاري[1] . .

---

(١) انظر عن السنوسية : د. أحمد صدقي الدجاني [الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م. وشكيب ارسلان [حاضر العالم الاسلامي] طبعة بيروت سنة ١٩٧١م. ود. محمد عمارة [العرب والتحدي] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠م .

- ٣ -
المهديّة

في جزيرة « لبب » ، على بعد خمسة عشر كيلو متراً من « دنقلة » ، بالسودان ، ولد مؤسس « المهدية » - « المهدي » - محمد أحمد [١٢٦٠ - ١٣٠٢هـ ١٨٤٤ - ١٨٨٥م] في أسرة فقيرة ، قعدت بها إمكانياتها الفقيرة عن أن ترسله إلى الأزهر الشريف كي يتعلم فيه ، فاحترف النجارة ، لكنه حصل علم « الفقهاء الفقراء » المحليين! . . ومارس التعليم. . . ثم اتجه إلى التصوف ، فزهد ، وتنسك ، حتى ذاعت شهرته ، وعلا نجمه ، وأصبح ، في « الطريقة السمانية » ، خليفة له « راية » و« مريدون »! . . ثم أصبح شيخاً لهذه الطريقة سنة ١٢٩٧هـ - ١٨٨٠م . .

وكان لمحمد أحمد طموح إلى الاصلاح العام للمجتمع ، وإلى بناء مجتمع على غرار مجتمع الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، في صدر الإسلام. . . ولقد استعان على ذلك الإصلاح بالفقهاء والحكام ، لكنهم خذلوه ، فاتجه إلى عامة الناس؟! . .

وفي الأول من شعبان سنة ١٢٩٨هـ ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١م أعلن محمد أحمد على الناس أنه « المهدي »، وأن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قد جاءه في الرؤيا ، وكلفه « بالمهدية ».. ودعا الناس إلى الايمان به « مهدياً » وإلى الهجرة إليه ، والجهاد معه لإقامة الدين ، وتحرير البلاد من الأتراك والأجانب ، وإنقاذ ديار الاسلام قاطبة « من غانة إلى فرغانة»[1] »!..

* * *

كانت مهمة التجديد واليقظة والتحرير بالسودان أكثر صعوبة منها في غيره من البلاد... فوحدة الشعب لم تتبلور بعد ، والتفتت الإداري والتمزق القبلي يثقلان الخطو نحو بلوغها... والفقهاء قد تحولوا إلى أتباع للحكام ، يبررون مظالمهم ، ويحكمون قبضتهم على العقول والقلوب .. والمتصوفة قد استقطبوا عامة الناس إلى « أقطابهم » ! واقتسموهم في « طرقهم »!، وأشاعوا في حياتهم الخرافة التي قتلت فيهم الطموح وأماتت منهم الطاقات وعطلت لهم العقول؟!..

---

(١) « غانة » : مدينة عربية اسلامية ، في أقصى جنوب المغرب العربي.. و« فرغانة » : مدينة اسلامية ، في بلاد ما وراء النهر ، متاخمة لبلاد التركستان ـ التي تمثل الآن إحدى الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفياتي ـ... والعبارة تعني : من مغرب عالم الاسلام إلى مشرقه!.. انظر : صفي الدين البغدادي مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع] تحقيق : علي البيجاوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

وأمام هذه المهمة الصعبة وقف محمد أحمد . . . فبلغت به المعاناة حد تمثل الأسطورة ـ « المهدية ». رؤية منام ، بل ويقظة! . . وغدت هذه الأسطورة البوتقة الأفعل في صهر الأمة وتوحيد الجماعة واستنفارها للجهاد خلف مهديها للتجديد والتحرير والإصلاح! . . .

* * *

● ولقد واكبت المهدية صعود نجم « الثورة العرابية » ضد الخديوي توفيق [١٢٦٨ ـ ١٣٠٩هـ ١٨٥٢ ـ ١٨٩٢ م] والتدخل الأوربي الاستعماري في مصر. . . وكان هذا التدخل ، الذي تسلل إلى بلادنا من الثغرات التي صنعها عجز الأتراك العثمانيين ، قد جعل السودانيين ، بقيادة « المهدي »، يرون في هذا الثالوث ، المكون من : الأوربيين. . . والأتراك. . . والحكومة الخديوية : عدواً واحداً وبلاءاً متحداً! . . .

فبعد معاهدة لندن سنة ١٢٥٦هـ ـ ١٨٤٠م ، التي قننت اختراق تجربة مصر المستقلة من قبل أوربا والعثمانيين ، زاد النفوذ الأجنبي في مصر ، وخاصة زمن حكم الخديوي سعيد [١٢٧٠ ـ ١٢٧٩هـ ١٨٥٤ ـ ١٨٦٣م] والخديوي اسماعيل [١٢٧٩ ـ ١٢٩٦هـ ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م]. . وبصورة أكبر عندما تولى الحكم الخديوي توفيق [١٢٩٦ هـ ـ ١٨٧٩م]. . وانعكس ذلك على السودان ، الذي كانت إدارته للحكومة الخديوية

المصرية ، حتى بلغ الأمر حد تعيين العديد من الأوربيين حكاماً على أقاليم السودان ، ليحكموه باسم الخديوي! . . ففي « بحر الغزال » حكم الايطالي « جيسي »، ثم خلفه الانجليزي « لبتون بك »! . . وفي « دارفور » حكم النمساوي « سلاطين »! . . وفي « كوبي » حكم « أميلياني »! . . وفي « الفاشر » حكم « مسيداليا »! . . وفي « لادو » حكم الألماني « سنتزر »! . . وفي « فاشوده » حكم النمساوي « ارنست مانرو »! . .

وكان السودانيون يسمون الحكم الخديوي بالحكم التركي ، ويصفون حكامهم بالأتراك! . . وزادت مبررات هذا الوصف عندما انحاز الخديوي توفيق إلى الغرب والأتراك ضد الثورة العرابية! . .

وكانت المظالم الاجتماعية لهذا الحكم « التركي » قد بلغت في السودان وبأهله حد المأساة! . . .

وأمام هذا العدو كان رد فعل « المهدية » المعادي للأتراك . . فهم « كفرة »، لا بد من جهادهم ، وهم أعداء ، لا بد من « مغايرتهم » ، حتى في الزي والعادات والتقاليد ، ولا سبيل للتعامل معهم إلا السيف! . .

يقول « المهدي » لأتباعه ، في أحاديثه ومنشوراته ، معبراً عن ما نراه : « **قسمة عربية ، معادية للسيطرة التركية** ». . **يقول :** « **اتركوا كل ما يؤدي إلى التشبه بالترك الكفرة ، كما قال الله تعالى**

في الحديث القدسي : [قل لعبادي ، المتوجهين إليّ ، لا يدخلون مداخل أعدائي ، ولا يلبسون ملابس أعدائي ، فيكونون هم أعدائي ، كما هم أعدائي . .] . . فكل الذي يكون من علاماتهم ولباساتهم فاتركوه!» . .[1] . .

وهو يحدثهم عن أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد أمره بذلك ، وحرضه عليه ، فعداء الترك واحد من « المهام المهدية » ، فيقول لأتباعه : « لقد حرضني سيد الوجود ، صلى الله عليه وسلم ، على قتال الترك وجهادهم . . لقد أمرنا النبي أمراً صريحاً بقتال الترك ، وأخبرنا بأنهم كفار ، لمخالفتهم أمر الرسول باتباعنا ، ولإرادتهم إطفاء نور الله تعالى الذي أراد به إظهار عدله . . ولقد أعلمني الرسول أن الترك لا تطهرهم المواعظ، بل لا يطهرهم إلا السيف، إلا من تداركه الله بلطفه ! . . »[2] .

وهو يذكرهم بظلم الترك وعسفهم فيقول : « إن الترك قد وضعوا الجزية في رقابكم ، مع سائر المسلمين . . وكانوا يسحبون رجالكم ، ويسجنونهم في القيود ، ويأسرون نساءكم وأولادكم، ويقتلون النفس التي حرم الله بغير حقها ، وكل ذلك

---

(١) [منشورات المهدية] ص ١٦٦ . تحقيق : د. محمد ابراهيم أبو سليم. طبعة بيروت سنة ١٩٦٩م.

(٢) المصدر السابق . ص ٧٤ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٣٢ .

لأجل الجزية التي لم يأمر الله بها ولا رسوله.. فلم يرحموا صغيركم ولم يوقروا كبيركم!.. »[1].

فشحن قومه بشحنة قومية، عندما استنفر فيهم روح « المغايرة » للأتراك.. وكان هذا إسهاماً « للمهدية » على درب التمايز القومي عن الأتراك العثمانيين..

* * *

● وأمام « الفكرية » التي بلغت بها « طرق » التصوف والمتصوفة قمة الخرافة والشعوذة، كانت دعوة « المهدية » إلى سلفية تحرر العقل من هذه القيود والأغلال التي عطلت طاقات الفكر الاسلامي، وتكشف عن هذا الفكر الركام الذي أفقده معالمة الحقيقية.. فدعت « المهدية » إلى العودة للمنابع، وإسقاط التفسيرات التي جاءت بنت زمانها وظروفها، بعد أن مر الزمان وتغيرت الظروف... فالمتقدمون رجال « فكروا » لعصورهم، ونحن رجال « نفكر »، في إطار الأصول، لعصرنا... ولقد حدّث « المهدي » أنصاره، وحاور مجادليه فقال لهم: « لا تعرضوا لي بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين، فلكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال.. ولقد كانت الآيات تنسخ، في زمن النبي، على حسب مصالح الخلق، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب

---

(١) المصدر السابق ص ٤١، ٤٢.

المصالح .. نحن نقفوا آثار من سلف من المهتدين السالفين ، على نهج محمد ، صلى الله عليه وسلم ... فاتبعوا ، أحبابي ، كلام الله في القرآن ، ولا تتبعوا ترهات فايت الزمان! . وقد بايعتموني على أن لا تشركوا بالله شيئاً! .. »[1] .

لقد عادت « المهدية »، على الجبهة الفكرية ، لتستلهم المنابع الأولى .. فالمهدي : خليفة الرسول ، وخلفاؤه هم خلفاء الراشدين الأربعة .. وهم قد تخطوا بذلك تجارب الأمة المأساوية التي مزقت الشمل وأفقدت حضارتنا الاستقلال... وعلى الجبهة الفكرية ألغت « المهدية » تراث المذاهب الفقهية ـ أو حولته إلى « تراث تاريخي » ـ وقنَّن « المهدي » للشعب أحكاماً فقهية لم تلتزم بمذهب فقهي واحد ـ وإن وضح فيها أثر المذهب الشافعي أكثر من غيره ـ ... كما ألغت « الطرق الصوفية » وتراثها الخرافي... وعادت تستلهم الكتاب والسنة ، وتعلي من قدر « المصلحة » في تفسيرها لنصوصهما المتعلقة بأمور الدنيا ، وتسلك سبيل الاجتهاد إلى هذه السلفية المجددة! ..

وكان هذا إسهاماً لا ينكر على درب الاستقلال الحضاري للأمة! ..

* * *

● وعلى جبهة « التمدن » ، وجدت « المهدية » في

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٨٨ ، ٣١ .

« جماعية الفكر الاجتماعي للإسلام » : الفكر النظري الذي يلبي احتياجات المجتمع السوداني ، القبلي والبسيط ، والذى لم تتمايز فيه بعد الطبقات تمايزاً حاداً وراسخاً وعريقاً . . كما وجدت فيها العلاج الثوري الناجع للمظالم الاجتماعية التي رزح الناس تحت نيرها واكتووا بنارها قروناً تطاول عليها الأمد! . .

لقد انحاز الحكام والفقهاء إلى صف أعداء « المهدية »، ومعهم المنتفعون بالظلم الاجتماعي الذي ساد قبل الثورة . . أما أتباع « المهدي » وأنصاره فإن أغلبيتهم الساحقة قد تألفت من العامة والفقراء والأعراب ، الذين حرموا من الثروة ، ومن العلم معاً ! . . **و« المهدي » قد استنفر جماهيره إلى الجهاد بالجنة الموعودة ، وهيأ لهم سبل العيش وأدوات الجهاد بالجماعية الاسلامية التي أقامها لهم في الثروات والأموال والاقتصاد . .**

وعندما كان خصوم « المهدية » يعيبون عليها فقر أتباعها في المال والتعليم ، كان « المهدي » يفاخر ويفخر على هؤلاء الخصوم بهذا الفقر؟! فيراه شرفاً يسلكه هو وأتباعه في سلك السلف الصالح . . فيقول : « إن أتباع الرسل كانوا هم الضعفاء والجهلاء . . أما الملوك والأغنياء وأهل الترفه فلم يتبعوهم إلا بعد أن خربوا ديارهم وقتلوا أشرافهم وملكوهم بالقهر ، كما قال تعالى ، حاكياً عن قوم نوح : [وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي][1] . . وقال تعالى : [وما أرسلنا في قرية من

---

(١) هود : ٢٧ .

نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين][1] . . ولقد قال أهل الغنى والطغيان عن أتباع نبينا : إنهم الأجلاف الأعراب ، عراة الأجساد ، جياع الأكباد . . فلم ينفعهم غناهم ، بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة . . وجعلهم الله غنيمة الضعفاء الأعراب الذين كانوا يستهزئون بهم . . وكذلك نرجو الله أن يكون الأغنياء ، ومن وراءهم ، غنيمة للبقارة والجهلاء والأعراب! . . »[2] .

ويرد « المهدي » على خصومه ، من الأثرياء ، والفقهاء المدافعين عن الأثرياء ، بحجة أنه قد كان في صحابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من كانوا أغنياء ، يملكون أسباب الثروة ، يرد « المهدي » على خصومه هؤلاء ، ويناقش شبهتهم ، فيقول : « . . . إن الصحابة الذين باشروا الأسباب[3] ، لم يدخلوا فيها إلا بعد الخروج عن كل شيء ، حتى تمكن نور الايمان في قلوبهم . . . ومن كان عنده منهم أسباب فهي إنما كانت في أيديهم ، لا في قلوبهم . . . . . وكانوا عليها كالوكلاء ، ينفقونها حسب أوامر موكلهم ومولاهم ، ولذا قال لهم ربهم : [وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه][4] ولم يقل : وأنفقوا مما

(١) سبأ : ٣٤ ـ و٣٥ .
(٢) [منشورات المهدية] ص ٣١٣ ، ٣١٤ .
(٣) الأسباب : تقارب ما نسميه اليوم « رأس المال » الذي يستثمر .
(٤) الحديد : ٧ .

ملكتموه!.. وقال صلى الله عليه وسلم: آخر أصحابي دخولاً الجنة: عبد الرحمن بن عوف، لمكان غناه.. وهو أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي؟!..»[1].

وانطلاقاً من هذا الفكر الاسلامي المنحاز إلى الجماعية، واستجابة لضرورات المجتمع السوداني وطابعه، أقام «المهدي» التجربة الاجتماعية المتميزة عن التطبيقات العثمانية والمملوكية، وعن تطبيقات الحضارة الأوربية في الأموال والأقتصاد... ففي البيعة له «بالمهدية»، كان المبايعون يعطونه أنفسهم وأموالهم.. وهو هنا الرمز والتجسيد للجماعة و«للدولة»!.. وفي الأرض الزراعية، وقف بالملكية عند الحد الذي يستطيع الانسان المالك أن يزرعه.. وما زاد على ذلك «يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج».. أما الدكاكين، والوكالات التجارية، والقيصريات، والمعاصر والطواحين، وموانى السفن - [المشارع] - والحدائق.. الخ.. الخ.. فلقد اعتبرت، كالفيء، مصالح عامة، فهي للمجاهدين والمساكين!..

وفي هذا التنظيم الاجتماعي الجماعي، تقررت للإنسان المقادير الكافلة سد ماله من احتياجات ضرورية، دون ما زاد عن الضرورات.. «فمن انضم للجهاد فله ضرورته، والزائد على الضرورة، إنما هو على العبد، لا له!.. ومصالح الخلق كلها

(١) [منشورات المهدية] ص ٣٣، ٣٤، ٥١، ٥٢، ٢٦٧.

متعلقة ببيت المال! . . » كما يقول « المهدي »[1] . . .

هكذا أبدعت « المهدية » في « التمدن » وفي ميدانه الاجتماعي خاصة ، أمراً متميزاً ، استلهمت فيه جماعية الاسلام ، واستجابت به لضرورات المجتمع ومصالحه . .

أما في الميدان السياسي « للتمدن » فلقد كانت « المهدية » إبداعاً يستلهم الأسطورة التراثية التي جعلت من « المهدي » ذلك البطل الاسطوري الذي تعده السماء لينتشل المجتمع من أزمته ويخلصه من مأزقه ، فيملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلأت بالجور والفساد! . . .

* * *

هذا عن دعوات التجديد الديني السلفية : « الوهابية » . . و« السنوسية » . . و« المهدية » . . ومدى إسهام تجديدها السلفي في الاقتراب من مطلب أمتنا في « الاستقلال الحضاري » . . .

وإذا كانت هذه الدعوات وحركاتها قد منعتها « بداوة البيئة » من أن تولي « التمدن » ما يجعله النموذج الصالح للتعميم ، والوافي باحتياجات النهضة الكفيلة بمواجهة الغزوة الأوربية المسلحة بحضارتها الحديثة . . فإن هناك « فضيلة » أخرى من فضائل التجديد الديني قد برئت دعوتها من هذه الثغرات

---

(1) المصدر السابق . ص ٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ١٦٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ .

والسلبيات ، وهي مدرسة [الجامعة الاسلامية] ، التي تبلورت من حول جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ - ١٨٣٨ - ١٧٩٧م] والإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] وعبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢م] وعبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠م]. . . فتيار [الجامعة الاسلامية] هذا قد استفاد من تجارب أمتنا في هذا الميدان. . ولذلك وجدنا عنده :

أ - السلفية في الدين ، تجدده. . والعقلانية أداة في هذا التجديد. .

ب - والعروبة في القومية . . على أسس حضارية ، غير عرقية . .

ج - والموازنة بين الخصوصية الحضارية ، وبين الاستفادة من الحضارات الأخرى. .

د - والنظرة المستقبلية المستنيرة في « التمدن » . .

هـ - والموازنة بين « الخصوصية القومية » للعرب ، وبين « الرابطة الاسلامية » الجامعة لقوميات أمة الاسلام. .

ففي فكر أعلام هذا التيار - الذي لم تقم بعد التجربة التي تجسده - تكتمل العناصر الأولية والضرورية لمشروع الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الاسلامية!. . .

النهضة المصرية
والاستقلال الحضاري

الأمر الذي لا شك فيه أن النهضة المصرية ، التي قادها محمد علي باشا الكبير [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ١٨٤٩ م] هي التي دخلت بعالمنا .العربي وشرقنا الاسلامي إلى رحاب عصر اليقظة والبعث والإحياء. . العصر الحديث! . .

لقد تطلعت مصر إلى هذه النهضة على عهد حكم علي بك الكبير [١١٤٠ ـ ١١٨٧هـ ١٧٢٨ ـ ١٧٧٣م]. . ثم جاءت الحملة الفرنسية [١٢١٣هـ ١٧٩٨م] لتنبه الأذهان بواسطة الخطر القادم في ركاب الغزو الاستعماري ، ولتلعب دور « الماس الكهربائي » ، الذي لم يصعق ضحيته فيميتها ، ولم يكن المصدر الحقيقي ليقظتها ومبعث حياتها ، وإنما كان « المنبه » لها كي تستيقظ ، فتعي العصر ، وتدخل فيما يدخل فيه الأحياء المعاصرون! . . . ولقد تجسد هذا الأثر في كلمات شيخ الأزهر ، الذي خالط علماء الحملة الفرنسية ، الشيخ حسن العطار [١١٨٠ ـ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ ـ ١٨٣٥ م] التي تقول : « إن

بلادنا لا بد أن تتغير ، ويتجدد فيها من العلوم والمعارف ما ليس فيها؟!». . . ثم جاءت التجربة الإصلاحية التي قادها محمد علي لتضع أمنية الشيخ العطار في الممارسة والتطبيق! . .

صحيح أن دعوات دينية سلفية قد سبقت النهضة المصرية هذه في بلادنا العربية ، وحاولت التصدي لخطر « التخلف الذاتي القديم »، الموروث عن العصر « المملوكي ـ العثماني » ، والذي يشل خطو الأمة ويكبل عقلها ، فيحول بينها وبين النهوض. . . . ولخطر « التقدم الغربي الحديث »، الذي جاء في ركاب الغزوة الأوربية الحديثة ، يريد نهب خيرات الأرض ، واحتلال مواقعها لاستراتيجية ، وتأييد ذلك وتكريسه بمسخ شخصيتها القومية المتميزة ، وسلخها عن قسمات حضارتها العربية الاسلامية الخاصة بها . .

لكن هذه الدعوات الدينية السلفية ، التي سبقت النهضة المصرية في الزمن ، أو واكبتها ، قد سلكت طريقاً متميزاً عن ذلك الذي سلكه محمد علي وهو يسعى ، بمصر ، في طريق النهضة والإصلاح . .

● فـ« الوهابية » ، مثلاً ، قد كانت لها الريادة ، من حيث الزمن المبكر والتوقيت الذي سبق النهضة المصرية بأكثر من نصف قرن . . فلقد تبلورت ـ كما قدمنا ـ حول داعيتها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢م] في « نجد » بشبه الجزيرة العربية ، وأقامت «دولتها» منذ أن تحالف ابن عبد الوهاب

مع أمير « الدرعية » محمد بن سعود [١١٥٨هـ - ١٧٤٥م] . .

● أما « السنوسية » ، فإنها عاصرت نهضة محمد علي . . ثم استمرت بعدها . . فهي قد تبلورت - كما سبق وأشرنا - حول داعيتها ومؤسسها محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م] . . وأقامت « زواياها » ، وكونت قادتها ومريديها ، وانجزت أعظم انجازاتها خلال القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين . .

لكن . . . لا السبق التاريخي ، الذي كان « للوهابية » على نهضة محمد علي . . . . ولا الاستمرارية التي تحققت « للسنوسية » بعد حصار أوربا والعثمانيين لنهضة مصر الحديثة ، يمكن أن يعقدا لواء ريادة الشرق إلى عصر النهضة والإحياء لهذه الدعوات . . . وإنما يظل لواء هذه الريادة معقوداً لمصر ، فهي التي دخلت بأمتها العربية ، بل وبعالمنا الاسلامي إلى رحاب العصر الحديث ، وخطت لهما معالم اليقظة والتنوير . . .

أما سبب هذه الريادة ، فهو ما تميزت به وامتازت تلك النهضة عن تلك الحركات التجديدية الدينية السلفية من خصائص ومميزات . . . وفي مقدمتها :

أ - أن هذه النهضة المصرية قد نشأت وتبلورت في مجتمع متحضر نسبياً ، وفي مناخ يأتي ، بمقاييس التمدن والتحضر ، في طليعة دول الوطن العربي وأقاليم عالم الإسلام . . « فالدولة » - بل

والـدولة المـركزيـة القويـة ـ لها في مصـر أطول عمـر في تاريـخ « الدولة » على الإطلاق ! . .

والطبقات الاجتماعية متبلورة إلى حد كبير . . . والمواريث الفكرية قد تجاوزت « التبسيط » إلى « التـركيب » . . . والأزهر ـ رغم ما شابه من جمود العصـور الوسـطى ـ قد حفظ شعلة العلم والتعليم موقدةً ومضيئـة في ليل العصـر « المملوكي ـ العثماني » البهيم والطويل ! . .

والـوضع القـائـد لمصـر ـ كمـركـز خـلافـة أو سلطنـة ـ أو المتميز ، على الأقل ـ كولاية تتمتع بالاستقلال الذاتي ـ قد ثبت ، وفرض نفسه ، وأحدث آثاره على وضـع البلاد وعلاقاتهـا بأقـاليم الدولة الإسلامية وولاياتها منذ أن استقل بها الطولونيون ، في عهد مؤسس دولتهم أحمد بن طولون [٢٢٠ ـ ٢٧٠هـ ٨٣٥ ـ ٨٨٤ م] وألحقوا بها أقاليم أخرى في المشرق العربي . .

فلم تكن مصر : « نجد الصحراء »! . . . ولا هي كانت : « الصحراء الليبية »؟! . .

ب ـ كما تميزت هذه النهضة المصرية ، التي قادها محمد علي باشا ، بكونها حركة « إصلاح مدني » ، قـادها « **مصلحـون مدنيون** » ، ونهضت بأعبائها كوكبة من المثقفين والعلماء والقـادة والمدراء الذين تميـزوا عن « المصلحين الدينيين » ، والـذين لم يتقدموا إلى الأمة « كفقهاء وعلماء دين ». . فالمنطلقات للإصلاح

كانت « مدنية ».. والمعايير في هذا الاصلاح كانت « مصلحة الأمة »... والموقف من الدين، في هذه التجربة، قد تمثل في:

● تجنب الاصطدام « بممثليه »، الذين رفضوا « الإصلاح المدني »، أو تحفظوا إزاءه.. مع تركهم لعالمهم، وترك عالمهم لهم، يعيشون فيه ويفكرون له، على نحو ما كان الحال قبل عصر النهضة والإصلاح!..

● وتجنب أن يأتي « الاصلاح المدني » ـ الذي سعت إليه التجربة، وطبقته ـ ماساً بشيء من المسلمات الدينية التي أجمع الناس على قدسيتها، أو منكراً لأمر من الأمور التي عرفت من الدين بالضرورة، أو مصطدماً بتصور من التصورات التي اكتسبت قداسة الدين، وذلك حتى لا تتاح الفرصة لأعداء الإصلاح، من علماء الدين، لاستنفار العامة ضد هذا الإصلاح!..

ولم يكن موقف محمد علي هذا من الدين وعلمائه اختياراً فكرياً حراً.. فهو لم يعتمد على الاسلام في نهضته الإصلاحية، ولم يؤسس هذه النهضة على التجديد الإسلامي والاسلام المتجدد، لا لأنه ضد الاسلام، وضد أن ينهض الدين بدور الأساس، والحافز في النهضة، على نحو ما صنع « العلمانيون » في النهضة الأوربية، وإنما الذي حكم موقف محمد علي هذا، وحدد له « المصلحة المدنية »، لا « السلفية الدينية » معياراً وإطاراً للإصلاح هو:

١ ـ أن الرجل لم يكن من علماء الدين. . وفاقد الشيء لا يعطيه ! . . ثم إنه هو الذي بدأ الإصلاح وقاده ، ولم يكن « سيفاً » بيد « العمامة » كما كان حال ابن سعود مع ابن عبد الوهاب! . .

٢ ـ أن صورة القيادات الدينية قبيل عصره ، وفي السنوات الأولى من حكمه على وجه الخصوص ، لم تكن ـ في جملتها وأغلبيتها ـ لتفرض الاحترام على من هو في مثل طموح هذا الرجل! . . فالكثيرون من شيوخ الأزهر كانوا قد شغلتهم عائداتهم المالية من « دوائر الالتزام » و« نظارات الأوقاف » ، حتى غدوا رجال دنيا ، إن لم نقل طلاب ترف دنيوي ، يقترفون في سبيل تحصيله ما لا يليق بعلماء الدين ، فضلاً عن من يتصدى منهم لقيادة الإصلاح! . . وفي وصف الجبرتي [١١٦٧ ـ ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢م] لحالهم هذا يقول ـ وهو الشيخ في الدين. . وفي التاريخ الصادق! ـ: « إنهم افتتنوا بالدنيا ، وهجروا المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس ، مع ترك العمل بالكلية ، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد أمراء المماليك ، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان ، وأجروا الحبس والتعذيب والضرب ، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية ، والحصص ، والالتزام ، وحساب الميري ، والفائض ، والمضاف ، والرماية ، والمرافعات والمراسلات. . . زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد

والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور، وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية؟!..»[1].

٣ ـ وحتى الرجل الذي تميز عن هؤلاء العلماء والشيوخ بالثورية، والارتباط بالجماهير، وهو السيد عمر مكرم [١١٦٨ ـ ١٢٣٧هـ ١٧٥٥ ـ ١٨٢٢م] كان حاله وحال محمد علي باشا على نحو يجعل التعاون بينهما شبه مستحيل، فطموحهما معاً كان بلا حدود، الأمر الذي جعل صدامهما يأتي مبكراً جداً..!.. فلما خذل الشيوخ زميلهم السيد عمر، وباعوه «بالجرايات» ونظارات الأوقاف، مال هو الآخر إلى نصرة المماليك، كشركاء في «لعبة السلطة»، كي يحول دون انفراد محمد علي بها، فحدثت المفارقة العجيبة عندما انتصر الشيخ الثائر لأركان النظام الظالم القديم ـ وهو الذي سبق له وقاد الأمة ضد هذا النظام القديم؟!.. فكان أن تخلص منه محمد علي بقرارات وافق عليها «العلماء»، و«محاضر» تطوع بتزييفها هؤلاء العلماء»[2]!..

٤ ـ والفكرية المحافظة والجامدة التي كان عليها هؤلاء الشيوخ..

---

(١) [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] ج ٧ ص ١٤، ١٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م.

(٢) المصدر السابق. ج ٧ ص ٦٧ ـ ٧٦.

فكرية العصور الوسطى ، التي استنامت إلى غلق باب الاجتهاد ، واستمرأت الكسل العقلي عن معاناة الخلق والإبداع ، واكتفت بالحكاكات اللفظية في ترديد « المتون » و« الحواشي » و« الشروح» و« التعليقات » و« التلخيصات » و« الاعتراضات » . . الخ . . الخ . . إن هذه الفكرية ما كان لها ولا لأصحابها أن يكونوا شرارة الإصلاح ولا قادته الذين يجعلون من فكرهم « أيديولوجية » النهضة ، ومن قائد مثل محمد علي اليد التي تزرع الاصلاح الاسلامي في تربة مصر وعقل الأمة ووجدانها . . لقد كان هؤلاء الشيوخ يعيشون أسرى فكرية العصر القديم . . بينما كانت البلاد تتطلع إلى عصر جديد، فكان الانفصام بينهم وبين هذه النهضة قدراً مقدوراً . . وصدق عليهم ، إزاء « الاصلاح المدني »، ما صدق على محمد علي ، إزاء « الاصلاح الديني » : فاقد الشيء لا يعطيه! . .

هكذا تميزت نهضة محمد علي عن حركات الاصلاح الديني ودعواته . . لأنها لم تجد المصلح الديني ، الذي تواكب استنارته الدينية مجتمعاً متحضراً كمصر . . فكان أن بدأت نهضة « إصلاح مدني » ، إن في المنطلقات أو المعايير أو الغايات أو الأدوات . . وإن لم يخرجها طابعها « المدني » عن النسق الحافظ لاستمراوية روح شريعة الإسلام . .

* * *

● في القاعدة المادية « للتمدن »، انتقلت نهضة محمد علي بمصر إلى مرحلة جديدة ، وبلغت بها « كمية » الإصلاحات إلى حال « كيفي » جديد . .

ففي الزراعة : أُلغي نظام « الالتزام » [١٢٢٩هـ ١٨١٤م] . . ووزعت الأرض على الفلاحين « تكليفاً » ـ من ثلاثة أفدنة إلى خمسة أفدنة ـ . . وسيطرت الدولة ، بالتخطيط ، على الانتاج الزراعي ، وتطورت المحاصيل . . وحدثت ثورة في الري والصرف، وزادت الرقعة المزروعة ، أفقياً ، إلى نحو ثلاثة أمثالها . . وتحول أهل الريف من « أقنان » إلى فلاحين! . .

وفي التجارة : أنهت سيطرةُ الدولة سيادة التجار الأجانب على السوق الداخلي والخارجي للتجارة المصرية . . وسُدَّت ثغرةُ ضعف البورجوازية التجارية الوطنية ، التي نفذ منها التجار الأجانب للسوق التجاري . . وتطورت التجارة كماً وكيفاً . . وخضعت للمشروع الاقتصادي المستقل . .

وفي الصناعة : أقامت النهضة قاعدة صناعية ، كبرى وحديثة ، ومرتبطة بالانتاج الوطني ـ عسكرية ومدنية ـ . . برأسمالية الدولة ، وتخطيطها ، وإدارتها . . وكانت سابقة في ذلك ، كمّاً وكيفاً ، لليابان ، وللولايات الألمانية مجتمعة ـ ولم تكن قد اتحدت هذه الولايات الألمانية ، بعد؟! ـ . .

وفي جهاز الدولة : بدأت البعثات العلمية ، التي درست « التمدن الأوربي » في النهوض بتكوين جهاز دولة حديث . . وفي

تطوير الثقافة العربية الإسلامية ، وريادة بعث التراث وإحيائه ، ومواصلة المسيرة التي توقفت بسيادة عصر الجمود الحضاري . . ووضح لرواد الثقافة والفكر هؤلاء أنهم يواصلون ، في عهد محمد علي ، مهام نظرائهم في عصر الخليفة العباسي المأمون [١٧٠ ـ ٢١٨هـ ٧٨٦ ـ ٨٣٣م]. كما تكون الجيش الوطني الحديث سنة ١٢٣٥هـ سنة ١٨٢٠م .. لحماية النهضة ، وتمهيد السبيل أمامها كي تأخذ مداها . .

وفي الفكر : بدأت العربية تتجاوز منحدر الركاكة وتتجه ، عائدة ، إلى الفصاحة . . وشرعت المكتبة العربية تزدان بذخائر التراث العربي الاسلامي التي جاورت المترجمات الحديثة في مختلف العلوم والفنون . . . وتحركت طاقات الابداع الفكري لتصنع ـ على الجبهة الفكرية ـ شيئاً عظيماً ومتميزاً . .

فكان هذا جميعه ـ وهو مجرد إشارة لصرح عملاق ـ إنجازاً غير عادي على درب التمدن الحديث . . .

* * *

● وانتقلت النهضة من « الإطار العثماني » إلى « الدائرة العربية »، ببطء وتدريج . . . فمحمد علي والعديد من كبار معاونيه هم « عثمانيون » غير عرب ، إن بالجنس أو بالثقافة . . . لكنهم تناقضوا مع الدولة العثمانية ، ورأوا أن ضعفها ، المستعصي على العلاج ، يغري حراس هذا الضعف من

المستعمـرين الأوربيين بوراثـة تركتهـا ، فسعوا إلى تجـديدهـا ، فتحالفت مع حراس ضعفها الطامعين بوراثتهـا ، ضد محـاولات الاصلاح؟! . .

ثم هي قـد استعـانت بمحمـد علي وجيشه لمحـاربـة الوهابيين ، فانغمس بجيشه هذا في حرب عـربية ، ببـلاد عربيـة تسع سنوات [١٢٢٦ ـ ١٢٣٤هـ ـ١٨١١ ـ ١٨١٨ م] . . وأصبح بـانتصـاره في هـذه الحـرب ، هـو الحـامي الحقيقي للحـرمين الشريفين! . . فتطلع ـ بمصر وإمكاناتها ـ إلى الشام ، ولاحت في الأفق خريطة دولة صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م] التي كـانت طوق النجـاة من خطر قـديم عـاد الآن من جديد؟! . .

ثم إن البعثـات العلمية قـد كونت كـوادر عربيـة للدولـة ، أخذت تزامل كوكبة القادة الـذين أتوا مـع محمد علي إلى مصـر صغاراً ، فنشأوا فيهـا نشأة عـربية ، جعلتهم يعتـزون بالعـروبة ، وينفرون من الانتساب إلى الأتراك . . وفي مقدمة هؤلاء القادة ابن محمـد علي ، ابـراهيـم بـاشـا [١٢٠٤ ـ ١٢٦٤هـ ١٧٩٠ ـ ١٨٤٨م] الذي كان يستنكر نسبته التركية ، ويقـول : « أنا لست تـركياً ، فـإني جئت مصـر صبيـاً ، ومنـذ ذلـك الحين مصـرتني شمسهـا ، وغيـرت من دمي ، وجعلتـه دمـاً عـربيـاً! »[1] . . .

---

(١) د. محمد عمارة [العروبة في العصـر الحديث] ص ١٤٦. طبعـة بيروت سنـة ١٩٨١م .

ومصطفى مختار بك [١٢٥٤هـ ١٨٣٨م] - أحد كبار مستشاري ابراهيم باشا العسكريين . . وناظر المعارف - الذي يعبر عن هذه « الهُوية العربية » عندما يقول : « إننا وإن كنا في الغالب مولودين في تركيا ، لكننا قد اكتسبنا الجنسية - [القومية] - المصرية بحكم التوطن . . . فقد جئنا مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا ، فلسنا الآن أتراكاً ، ولم يبق فينا ما يربطنا بهذا الشعب الذي لا يترك في طريقه اينما سار سوى دلائل الخراب . . . ولقد اندمجنا في أمة أخرى أرقى وأنبل وأذكى من الأمة التركية ، اندمجنا في تلك الأمة العربية ، التي سبقت أوربا إلى الحضارة ، وازدانت أيام عزها وسؤددها بذلك العمران الذي يتجلى للناظرين في المدن الزاهرة التي أنشأتها ، والعمائر الجميلة التي أقامتها . . »[١] .

وبذلك تهيأت لهذه النهضة عوامل الانتقال من « الدائرة العثمانية » إلى « الدائرة العربية » ، فسعت إلى قيام الدولة العربية ، بإحياء القومية العربية ، وجعل العربية هي الخط الذي يحدد حدود هذه الدولة! . . لتنقذ وطنها وأمتها من الخطر المتربص بوفاة دولة الرجل المريض! . .[٢] .

وكانت فتوحات محمد علي في السودان [١٢٣٥ - ١٢٣٧هـ ١٨٢٠ - ١٨٢٢م] . . والحملة على الشام [١٢٤٧هـ

(١) المرجع السابق . ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٣٥ - ١٤٧ .

١٨٣١م]. . وشمول النهضة ودولتها : مصر والسودان ، والأجزاء العربية على الساحل الشرقي لافريقيا ، مع الشام ، وأغلب أجزاء شبه الجزيرة العربية . . وامتداد نفوذها إلى العراق والخليج . . كان ذلك أول « إنجاز عربي » في عصرنا الحديث! . . .

* * *

● لكن . . . ماذا عن علاقة هذه النهضة بالإسلام : الرسالة الخالدة لأمتنا الواحدة ؟ . . .

هل انقطعت الصلة بين « تمدنها » وبين « التمدن الاسلامي » ؟ . . وهل كانت صورة « للتمدن الغربي »، أدخل بها محمد علي بلادنا وأمتنا في إطار « التغريب »؟؟ . .

إن البعض يرى ذلك ، فيجيب على هذا التساؤل بالإيجاب . . . لكنه - في رأينا - بجانب الواقع ، ويجانبه الصواب! . . .

فمنذ البداية كان واضحاً أن محمد علي باشا يأخذ عن أوربا « التمدن » الملائم لمجتمعه الشرقي . . ولا يأخذ عنها « القيم » أو « الثقافة » أو « النظريات »! . . . والبعثات العلمية التي ذهبت إلى أوربا ، وتعلمت ، ثم عادت لتصنع الانجاز العظيم ولتعطي النهضة روحها الفكري - ورفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م] نموذج لها - قد رأت أوربا بعين إسلامية مسلمة . . فسعت إلى « التمدن العملي » وإلى « العلوم العملية »

وإلى « المعارف البشرية المدنيـة » وإلى « فنون الصنـاعة »، ثم جاءت بها لتجدد « دنيا » الأمة ، مجتهدة في إثبات عدم منـاقضة هذه العلوم لما نختص به من « قيم » و« عقائد » وقسمات حضارية مميزة لنا. . . بل وأعلنت أن أصل هذا « التمدن البشري » هو من علوم حضارتنا في عصر ازدهارها ، أخذه الأوربيون فنهضوا به ، ثم طـوروه. . وهم عندمـا أخذوا منـا لم يـأخـذوا « القيم » ولا « الـدين » ولا خصائصنـا الحضاريـة ، بـدليـل أنهم استعـانـوا « بـالتمدن الاسـلامي والعربي » في نهضتهم ، ومـع ذلـك ظلوا متميزين حضاريـاً. . . فنحن إذ نأخـذ اليوم « التمـدن الأوربي » لننهض به لن نصبح ، في الحضـارة ، أوربيين . . . وما هي إلا بضاعتنا قد ردت إلينا. . كما يقول الطهطاوي!. . .

ويشهد على أن هذا كان موقف هذه النهضة من هذه القضية ذلك الحكم الذي شاع في كتابات كتاب تيار « التغريب »، عنـد تقييم نهضة محمد علي . . فلقد انعقد إجماعهم على نقده لأنه قد أخـــذ عن أوربـا فقط « علوم الصنعـــة » ، ولم يـأخـــذ « القيم » و« النـظريات » ، ونـظروا في تخصصـات البعثـات العلميـة التي أرسلها لتتعلم هناك فوجدوا ذلك شاهداً لهم على هذا الاتجـاه ، فزادوا من نقدهم هذا؟!. . .

وهـذا الذي نقـدوه وانتقدوه ، هـو ما يشهـد عندنـا للرجل والنهضة التي قادها ، دون أن يشهد عليهما!. . . .

وغير هذا الـدليل ، الـذي يشهد ، « بـالسلب » ، على ما

نقول. . نجد فكر رفاعة الطهطاوي ـ الذي كان النموذج المجسد لنوعية العلاقة بين « تمدننا الاسلامي » وبين « التمدن الأوربي » ـ نجد فكر الطهطاوي يشهد على ما نقول « بالايجاب »! . . .

لقد انفتح الرجل على « التمدن الأوربي » كل الانفتاح ، وأنجز على درب الاستفادة منه أعظم الانجازات ، وذلك دون أن يفقد هويته القومية والشرقية ، وقيمه الاسلامية الخاصة ـ بل والأشعرية المحافظة ـ! أو يفقد خصائصه الحضارية العربية الاسلامية. .

فهو يتحدث عن أن « البلاد الافرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب ، التي لا ينكر إنسان أنها تجلب الأُنس وتزين العمران! »[1]. . ويدعو ، حتى طلاب الأزهر الشريف ، إلى دراسة ما تتيحه لنا الحضارة الأوربية من « معارف بشرية مدنية » و« علوم حِكْمِيَّة عملية »، لأن النهضة الحقيقية لا بد لها من هذا « التمدن المدني »، الذي سيصبح « تمدناً إسلامياً » عندما يجاور ، في أرض الواقع الناهض ، عقائدنا وقيمنا وخصائصنا الحضارية. . يدعو رفاعة الطهطاوي الأزهريين إلى ذلك ، بل ويرى هذا الأمل معقوداً على انخراطهم في هذا الميدان ، فهم ، بعلومهم الاسلامية ـ لغوية ، ودينية ، وأدبية ـ الذين سيحققون

---

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج ١ ص ٩١ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

التـوازن ، فلا تميـل الكفـة بـالتـدريـج إلى صـالـح « التغـريب الحضاري »! . . .

يقول الطهطاوي : « إن مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط ، بعد ولي الأمر ، بهذه العصـابة ـ[أهـل الأزهر] ـ التي ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة : معرفة سائر المعارف البشرية المدنيـة ، التي لهـا مدخـل في تقدم الـوطنية . . وإن هـذه العلوم الحِكْمِيَّـة العملية ، التي يظهر الآن أنها أجنبية ، هي علوم إسلامية ، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة! . . »[1] .

لقد سمع الـطهطاوي ، في بـاريس ، ووعى قول المسيـو جومار « E.F. Jomard [١٧٧٧ ـ ١٨٦٢م] ـ الـذي أشرف على بعثات مصر العلمية في فرنسا ـ عندما خطب في البعثة التي ضمت رفاعة ، فقال لطلابها : « انكم منتدبون لتجديـد وطنكم ، الذي سيكون سبباً في تمدين الشرق بأسره . . . فيا له من نصيب ترقص له طرباً القلوب التي تحب الفخر وتدين بالإخـلاص للوطن . . . أمامكم مناهل العرفان ، فاغترفوا منها بكلتا يـديكم . . . وبذلـك تـردون إلى وطنكم منافـع الشرائـع والفنون التي ازدان بهـا عدة قرون في الأزمان الماضية. فمصر ، التي تنوبون عنها ، ستسترد

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ٥٣٣ ، ٥٣٤.

بكم خواصها الأصيلة . وفرنسا ، التي تعلمكم وتهذبكم ، تفي ما عليها من الدين الذي للشرق على الغرب كله؟! . .[1] ».

سمع الطهطاوي هذا القول ووعاه . . فكان، مع جيله من بناة النهضة ، المجددين لدنيا الوطن ، والباعثين لمجده ، « والمستردين لخواصه الأصيلة » . . . على حد تعبير « جومار »! . .

ولهذاوجدناالطهطاوي ـ في ذات الوقت الذي يدعو فيه إلى هذا « التمدن المدني » ـ يتحفظ كل التحفظ على ما يناقض مميزاتنا الحضارية في حضارة أوربا . . . فحضارتنا ، مثلاً ، قد وازنت بين « العقل » وبين « النقل » . . بين « التوحيد » ـ الألوهية ـ وبين « الطبائع » ـ العِلّيّة والسببية ـ . . لكن عقلانية الحضارة الأوربية ، و« الحق الطبيعي » فيها لا يعرف هذا التوازن، الذي هو روح حضارتنا ومزاجها . . ومن هنا كان رفض الطهطاوي لتلك « القسمات الحضارية » الأوربية . . . وهو يحكي كيف أن للأوربيين في العلوم الفلسفية « حشوات ضلالية ، مخالفة لسائر الكتب السماوية . ويقيمون عليها أدلة يعسر على الانسان ردها! . . إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع . . . وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا

---

(١) عمر طوسون [البعثات العلمية في عهد محمد علي ، ثم في عهدي عباس الأول وسعيد] ص ٣٣ ، ٣٤ طبعة الاسكندرية سنة ١٩٣٤م.

إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه. . . فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع! . .(١) ».

فـ« العقل » الذي يتحفظ الطهطاوي ، هنا ، على تحسينه أو تقبيحه للأشياء - ما لم يؤيد الشرع حسنها أو قبحها - هو « العقل » في الحضارة الأوربية ، المنكر « للنقل »، والذي لا يقيم من « الوحي » إطاراً يتحرك فيه. . أما « العقل » في حضارتنا العربية الاسلامية ، ذلك الذي زامل « النقل » وتآخا معه في الهداية للإنسان ، بالتوازن الذي أثمره إخاؤهما ، فهو ما تتميز به حضارتنا وتمتاز. . ولسنا مدعويين، من قبل الطهطاوي والنهضة التي كان علماً عليها ، إلى التخلي عن هذا الذي يميزنا ، حضارياً ، عن الأوربيين. .

***

لكن. . . . .

لا بد من الاعتراف بأن الأمور لم يكتمل سيرها في هذا الاتجاه. . .

« فالمؤسسة الدينية » - رغم شذوذها بالتعبير عن مقاييسنا الاسلامية! - قد تحصنت بفكرية العصور المظلمة ، ورفضت النهضة وتمدنها. . . والدولة الحديثة قد خشيت فرض الإصلاح

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج ١ ص ١١٤ ، ١١٥ .

والتطوير داخل صحن الأزهر وحصنه . . . فتركت أهله وشأنهم ، وأقامت « التعليم المدني »، الذي ابتعد شيئاً فشيئاً عن الصلاة القوية والخيوط المتينة التي تشده إلى الإسلام وتراثه . . .

والغرب قد رمى بكل ثقله في بث إشعاعاته الفكرية ، فازداد تأثير « قيمه » و« ثقافته » وحضارته على مؤسسات الفكر والعلم والتعليم في بلادنا . . . بل لقد تحالف العثمانيون مع الغرب ضد طموح نهضتنا إلى استكمال مقومات استقلالها الحضاري، عندما استعانوا بالاستعمار على ضرب استقلال « المشروع المصري ـ العربي » منذ سنة ١٨٤٠م؟! . .

ثم كانت منعطفات حاسمة ، ومراحل تحولات أساسية احتاجت فيها « الدولة » ـ كي تستجيب لضرورات الواقع الجديد ـ إلى تجديد الفكر الاسلامي ، بالاجتهاد ، وإلى تطوير « الفقه » ـ فقه المعاملات ـ لتتمكن « المؤسسة القانونية » من الفصل في المعاملات التي استجدت ، كما حدث في عصر الخديوي اسماعيل [١٢٨٠ ـ ١٢٩٦هـ ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩م] . . . ويومها جمد أركان « المؤسسة الدينية » ، فلم يستجيبوا لرغبة « الدولة »، بل لقد اعتبروا ذلك مما لا يحل ولا يجوز؟! . . فكان أن لجأت « الدولة » إلى القوانين الوضعية الغربية فاستوردتها ، الأمر الذي أفقد مؤسساتنا القانونية استقلالها ، وأفقد حضارتنا شرطاً من شروط الاستقلال . . . وكان ذلك نموذجاً لميل الكفة ، في هذه النهضة ، نحو « التغريب » ، وبعدها عن الوفاء الحق

بمتطلبات الاستقلال الحضاري الحق!.. لقد فتح « كسود نابليون » و« المحاكم المختلطة » ثغرة في استقلالنا التشريعي ، منذ الاحتلال الانجليزي « كرومر » في سنة ١٨٨٣م.

إن المفكر السلفي ابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] يحكي لنا عن عصره المملوكي موقفاً مماثلاً؟!.. فيصور في كتابه [أعلام الموقعين] كيف ألجأ جمود القائمين على الشريعة الاسلامية الملوك والولاة إلى التشريع للناس وفق الهوى والشهوات؟!(١)..

ولقد تكرر هذا المشهد في عصر الخديوي اسماعيل... وظل يتكرر كلما تحصن « أهل الذكر » - من علماء الشرع - بالجمود ، فعاشوا خارج العصر.. على حين أخذ الغرب الاستعماري يسارع في تقديم بضاعته الجاهزة والمنسقة للحكام الشرقيين ، ويبذل قصارى جهده لتكون هذه البضاعة هي البديل الذي يوضع في التطبيق!...

* * *

هكذا سارت الأمور... حتى دخلت أمتنا إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر...

● الحركات الإصلاحية الدينية السلفية : منعتها البداوة.. بداوة البيئة من أن تولي « التمدن » ما يجعله النموذج الصالح

---

(١) [أعلام الموقعين] ج ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٣. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

للتعميم والوافي باحتياجات النهضة الكفيلة بمواجهة الغزوة الأوربية المسلحة بحضارتها الحديثة ، وأيضاً الوافي باحتياجات أمة تريد تعويض التخلف ، وتحصين وطنها لمجابهة ما يأتي به المستقبل من تحديات . . .

● ونهضة محمد علي ـ وخاصة بعد حصارها ، وفرض القيود على استقلاليتها ـ قد حرمتها المحافظة الدينية والجمود الأزهري من فرصة تأسيس « تمدنها » على أسس إسلامية خالصة . . فنفذ الغرب من هذه الثغرة ، فمال « تمدن » هذه النهضة ناحية « التغريب » ، فلم يكن الاستقلال الحضاري الذي نريد ! . .

فكان أن ظلت الأمة تبحث عن التيار الفكري الذي يجمع، في أطروحته، كل فضائل النهضة الحضارية ، وجميع شروط استقلالها . . وعندما تبلور هذا التيار في دعوة [الجامعة الاسلامية] وحركتها ، التي قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، حاربه دعاة « التغريب » ، وأنصار « الجمود » معاً؟! . . وحالوا بين فكره في النهضة وبين أن ينتشر أو يوضع في التطبيق! . . .

لكن ذلك لم يمنع من أن يكون هذا التيار ـ « السلفي ـ العقلاني ـ المستنير » ـ هو أكثر تيارات التجديد، التى عرفتها أمتنا حديثاً ، استجابة لمتطلبات الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الاسلامية . .

تيار الجامعة الإسلامية
والاستقلال الحضاري

أعلام هذا التيار :

أعلام تيار [الجامعة الإسلامية] كثيرون ، وانتشارهم ، بالذات أو بالفكر ، قد غطى أنحاء الوطن العربي والعالم الإسلامي ، وقد يتميز واحد منهم بقسمة فكرية عن آخر ، وقد تدعو البيئة أو الأولويات أو طبيعة التحديات إلى أن يكون تركيز بعضهم على قضايا بعينها دون القضايا الأخرى . لكنهم ، في مجموعهم ، قد جمعتهم القسمات العامة التي ميزت هذا التيار التجديدي عن غيره من التيارات . . .

● وأول أعلام هذا التيار هو جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٣ م] . . عربي النسب ـ وإن ولد ونشأ في بلاد الأفغان ـ فنسبه يرجع إلى الامام الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما . . وعربي العقل والفكر منذ نشأته الأولى ، فقبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره كان قد درس :

علوم العربية ، والتاريخ ، وعلوم الشريعة ، من تفسير وحديث وفقه وأصول ، وكلام وتصوف ، والعلوم العقلية ، من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية تهذيبية ، وحكمة نظرية ، طبيعية وإلهية ، والعلوم الرياضية ، من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ، ونظريات الطب والتشريح ! . .

وهو سني المذهب ، في نشأته ، توثقت علاقاته الشخصية والفكرية بعلماء الشيعة وفكرها ومراكزها ، بالعراق ، منذ صدر شبابه . فلما تبلورت دعوته للتجديد واليقظة ، كان عقله قد وصل به إلى حيث أصبح فوق المذاهب التي فرقت المسلمين ، لأن سلفيته في الدين تسبق المذاهب ، وعقلانيته ترفض البقاء في أسر خلافاتها التي تجاوزها العصر ، واستنارته تراها عقبة أمام ما يريد تحقيقه لأمته من نهضة وانطلاق . . .

وكان عداؤه للاستعمار مبكراً . . ولم يكن بالعداء الفكري والنظري فقط ، فلقد انخرط منذ شبابه في التيار الوطني الأفغاني الذي قاده الأمير محمد أعظم خان لمناوأة النفوذ الانجليزي الطامع في أفغانستان . . ووصل جمال الدين في هذا النشاط الوطني الى منصب « الوزير الأول » في البلاد ، وقاد معارك حربية ضد المتعاونين مع الانجليز ، الذين تزعمهم الأمير شير علي . . فلما انتصر خصومه ، اضطر للسفر للهند [سنة ١٢٨٥هـ ١٨٦٨م] . . فلما ضيق عليه الانجليز فيها الخناق ، بدأ رحلته إلى الوطن العربي ، فوصل إلى مصر سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م . . ثم

الآستانة . . ثم رجع إلى مصر فأقام بها قرابة التسع سنوات [١٢٨٨ ـ ١٢٩٦هـ ١٨٧١ ـ ١٨٧٩م] كانت أخصب فترات حياته الفكرية والنضالية ، وفيها تبلور تياره ومذهبه في اليقظة والثورة والتجديد . . .

ففيها أملى على تلاميذه الأمالي والتعليقات التي شرح بها كتباً قديمة في الفلسفة الإسلامية . . وكان عهد مصر قد انقطع بهذا اللون من ألوان الفكر منذ أن زالت الدولة الفاطمية ، وأحلت « دول العسكر » تكايا الصوفية وخوانقها والمدارس الأشعرية محل [دار الحكمة] و[مجالس الدعاة] ومنهاج [الأزهر] العقلاني ! .

وفيها أنشأ ورعى تيار الصحافة غير الحكومية ، وكانت من قبله حكومية في الأساس ، فكانت صحف : [مصر] التي رأسها أديب اسحاق [١٢٧٢ ـ ١٣٠٢هـ ١٨٥٦ ـ ١٨٨٥م] و[التجارة] التي رأسها سليم نقاش [١٣٠١هـ ١٨٨٤م] و[مرآة الشرق] التي أسسها ابراهيم اللقاني ، طليعة الصحافة الشعبية في البلاد . . وكان الأفغاني يكتب فيها بتوقيع : « مزهر بن وضاح »! . . كما كان يملي على تلاميذه مقالات ينشرونها بأسمائهم ، حتى نشأت من حوله كوكبة من الكتاب الشباب ، جددت أساليب العربية في الإنشاء ، وأدخلت فيها فن « المقال » الحديث ! . .

وفيها تبلور من حوله التيار الشعبي في التنوير . . ومن قبله

كان جهاز الدولة المصرية هو المصدر الوحيد للتنوير . وفيها كانت التربة الخصبة التي استقبلت بذور أفكاره أطيب استقبال ، حيث نبتت ونمت وأينعت ، وآتت من الثمار ما لم تؤت في بلد آخر أقام فيه هذا الفيلسوف العظيم . .

وفيها أنشأ [الحزب الوطني الحر] الذي جمع تلاميذه وأنصار دعوته ، وهو الحزب الذي قاد الثورة العرابية . وبعد هزيمتها هيأ نفرٍ من بنيه لنشأة [الحزب الوطني] الذي قاده مصطفى كامل [١٢٩١ ـ ١٣٢٦هـ ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م] ونفر آخر منهم انضم إلى جمعية [العروة الوثقى] السرية ، التي قادها الأفغاني ، وأصدر مجلتها من باريس . .

ولما نفي جمال الدين من مصر ، بإيعاز من القناصل الأوربيين للخديوي توفيق [١٢٩٦هـ ١٨٧٩م] ذهب إلى الهند . . وهناك منع من الحركة حتى تمت هزيمة العرابيين . . فسافر إلى باريس [١٣٠٠هـ ـ ١٨٨٣م] ، ثم إلى لندن . . ثم عاد إلى باريس ، فأصدر مجلة [العروة الوثقى] ومعه الشيخ محمد عبده . . فلما توقفت ذهب إلى شبه الجزيرة العربية [١٣٠٣هـ ـ ١٨٨٦م] ، فإيران [١٣٠٤هـ ـ ١٨٨٧م] . . فموسكو . . فميونيخ . . فإيران، ثانية [١٣٠٧هـ ـ ١٨٩٠م] . . فالعراق [١٣٠٨هـ ١٨٩١م] . . فلندن . . .

وفي كل هذه المواطن لم يعرف الرجل لنفسه حرفة سوى حرفة الثورة على البالي ، والدعوة إلى اليقظة والتجديد ، ولم

يتخذ لنفسه أسرة سوى الأنصار والتلاميذ الذين أعدهم ودفع بهم في الصراع ضد الزحف الاستعماري الغربي ، الذي كان يحث الخطا لالتهام بلاد العرب وأقطار الإسلام . . وظل ذلك شأنه حتى نجح السلطان عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ - ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] في استقدامه إلى الآستانة [١٣١٠هـ - ١٨٩٢م] ، وهناك أحاطه بالعيون والجواسيس ، فعاش في « قفص السلطان الذهبي »! حتى فاضت روحه إلى بارئها [١٣١٤هـ ١٨٩٧م] . .[1] .

● وثاني أعلام هذا التيار : الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]، الذي تتلمذ على الأفغاني ، ثم فاقه في التركيز على الاصلاح الديني ، وإن لم يبلغ شأو أستاذه في الفكر السياسي . . وهو فلاح مصري ، فقير في المال ، بلغ بعقله وفكره إلى مكان هابته فيه الملوك ، فقال عنه خصمه الخديوي عباس حلمي الثاني [١٢٩١ - ١٣٦٣هـ ١٨٧٤ - ١٩٤٤ م] : « إنه يدخل عليّ كفرعون؟! » . . وداعبه استاذه الأفغاني متسائلاً : « قل لي : ابن أي ملك من الملوك أنت؟! » . .

دخل الأزهر صغيرا ، فصده عن علومه جمود شيوخه وعقم وسائل التعليم فيه . . ثم أعانه نهج الصوفية المتنسكين على

(١) انظر دراستنا عن حياته في تقديمنا لأعماله الكاملة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

مواصلة الدراسة .. حتى كان لقاؤه بالأفغاني [١٢٨٨هـ ١٨٧١م] فحدث له التحول الكبير .. فمن التصوف النسكي تحول إلى التصوف الفلسفي .. ومن أفق طلاب الأزهر المحدود انطلق إلى حيث استشرف الآفاق التي كان يستشرفها أستاذه.. وفي صحبة الأفغاني ، بمصر ، كان أبرز مريديه.. ثم أصبح بعد نفيه « روح الدعوة » إلى التجديد .. وأسهم ، من موقع الاعتدال ، في الثورة العرابية .. ثم نفي فيمن نفي من قادتها ، فعاش زمناً بباريس ، يحرر [العروة الوثقى]، وينوب عن الأفغاني في رحلات سريه لشؤون الجمعية التنظيمية.. ثم أقام ببيروت .. فلما سمح له بالعودة إلى مصر ، هجر العمل السياسي ، وركز على محاولة إصلاح المؤسسات الاسلامية : الأزهر ، والأوقاف ، والقضاء الشرعي ، مع التركيز على التجديد الديني بتحرير العقل المسلم من أسر التقليد ، وتجديد اللغة العربية وتطويرها.. ولقد أصاب الكثير من النجاح في العديد من الميادين.. ولكن صدامه مع الخديوي عباس حلمي أعاق الكثير من مشروعاته الاصلاحية ، كما أن جمود أغلب شيوخ الأزهر قد منع جهوده الإصلاحية من بلوغ ما أراد لها في إصلاح الأزهر ، حتى لقد مات كمداً بسبب هذا الاخفاق [١٣٢٣هـ ١٩٠٥ م]!![١]..

---

(١) انظر دراستنا عن حياته في تقديمنا لأعماله الكاملة. ج ١ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

● وفي المشرق العربي كان عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢م] من أبرز من مثلت أفكاره القسمات الفكرية لهذا التيار. . وهي الأفكار التي خلفها لنا في كتابيه [أم القرى] و[طبائع الاستبداد] . .

ولقد ولد الكواكبي في حلب ، لأسرة كانت فيها نقابة الأشراف قبل أن يغتصبها منها الشيخ أبو الهدى الصيادي [١٢٦٦ - ١٣٢٧هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٩م] . .

وفي [١٢٩٥هـ ١٨٧٨م] أصدر الكواكبي صحيفة [الشهباء] ، أول صحيفة عربية تصدر في ولاية حلب. . فلم يمهلها العثمانيون أكثر من خمسة عشر عدداً . . فأصدر في العام التالي ، جريدة [الاعتدال]. . ولقد أوصله نضاله إلى هجران الوظائف ، وإفلاس التجارة ، وتعريض حياته للخطر . . ثم قاده إلى السجن [١٣٠٣هـ ١٨٨٦م]، فلما اضطر العثمانيون إلى الإفراج عنه تحت ضغط جماهير الولاية ، أطلقوا سراحه ، ثم عادوا لإلقاء القبض عليه ، ولفقوا له الاتهام بالاتصال بدولة أجنبية ، وحكموا بإعدامه !. . ولكن الجماهير عاودت ضغطها ، فأجبرت العثمانيين على إعادة محاكمته خارج الولاية ، فعرضت القضية على محكمة بيروت ، التي حكمت ببراءته ! . .

وفي تلك الأثناء كان الكواكبي قد أنشأ [جمعية أم القرى] ، وهي الجمعية التي عقدت مؤتمرها السري بمكة ، والتي أصبحت مداولات مؤتمرها هذا أساس كتابه [أم القرى] ،

وفي هذا المؤتمر حضر ممثلون للبلاد العربية والاسلامية وللجاليات الاسلامية التي تعيش خارج العالم الاسلامي . .

ولما أضحت حياة الكواكبي مهددة في حلب ، قرر الهجرة منها إلى مصر ، فوصل إليها سراً [١٣١٦هـ ١٨٩٩م] . . وفي مصر أفاد من تناقضات كانت بين حكومتها والدولة العثمانية يومئذ ، فنشر كتابيه ، فصولاً في الصحف ، ثم جمع الفصول فصدرت في الكتابين . . ومنها قام برحلة إلى بلاد المشرق العربي ، والمناطق العربية والمسلمة في إفريقيا . .

وبعد نحو أربع سنوات فاضت روحه إلى بارئها ، بمؤامرة دس فيها السم له جاسوس من جواسيس السلطان عبد الحميد ، فكان استشهاده [١٣٢٠هـ ١٩٠٢ م][١] . .

● أما في المغرب العربي ، فإن الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠م] يعد أبرز ممثلي هذا التيار . . وهو من مواليد قسطنطينة ، بالجزائر ، وفيها تعلم علوم العربية والإسلام ، ومن شيوخه في تلك المرحلة : الشيخ حمدان الونيسي ، الذي أخذ عليه عهداً أن يقاطع الحكومة الاستعمارية ، فالتزم العهد ، وصار يأخذه على تلاميذه فيما بعد ! . .

---

(١) انظر دراستنا عن حياته في تقديمنا لأعماله الكاملة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م .

وفي التاسعة عشرة من عمره [١٣٢٦هـ ١٩٠٨ م] ذهب إلى جامعة الزيتونة ، بتونس ، فدرس فيها ما لم يكن يستطيع أن يدرسه بالجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي ، الذي كان يحرم العربية ويطارد السمات القومية للجزائريين كي يسحقها ، وليجعل منهم فرنسيين « مسلمين » ، ومن وطنهم الامتداد الفرنسي ، عبر البحر المتوسط ، في القارة الافريقية! . . .

وفي [١٣٣٠هـ ١٩١٢م] سافر ، حاجاً ، إلى الحجاز. . وهناك التقى بعدد من الشيوخ الجزائريين الذين هاجروا وجاوروا بمكة والمدينة ، فعرض عليه بعضهم أن يجاور ، مثلهم ، الحرمين الشريفين ، ولكنه كان قد شرع التفكير في مقاومة الاستعمار الفرنسي بالجزائر ، فرفض الهجرة ، وقال : « **نحن لا نهاجر ، نحن حراس الاسلام والعربية والقومية في هذا الوطن »! . . وقبل عودته إلى الجزائر اتفق مع الشيخ البشير الابراهيمي على خطة لتنفيذ البرنامج الذي لخصته كلماته هذه . . وكانت الخطة هي إعداد جيل من الرجال الذين يواجهون محاولة السحق القومي في الجزائر ، ويعيدون الجزائر إلى « العروبة والاسلام والقومية ». . رجال « يملكون وضوحاً في الهدف ، وفكرة صحيحة توصل إليه ، حتى وإن كانوا ذوي علم قليل ! ويعرفون حدود غاياتهم ، التي تنتهي عند تسليم الأمانة لجيل ثان يعلن الثورة ، ويستخلص الاستقلال من المستعمرين! »**

ولقد مكث ابن باديس ثمانية عشر عاماً يعد هذا الجيل ،

قائلاً : أنا لا أؤلف الكتب ، وإنما أريد صنع الرجال! . . فكان يعظ في المساجد ، ويفسر القرآن ، ويعلم العربية للأطفال ، ويجوب القرى والمدن ويصعد الجبال ، فاجتمع له معه [١٣٣١ هـ ١٩١٣م] حتى [١٣٣٦هـ ١٩١٨م] ألف من هؤلاء الرجال! . .

وعندما أقامت فرنسا احتفالاتها الصاخبة والاستفزازية ، بمناسبة مرور قرن على احتلالها للجزائر [١٣٤٩هـ ١٩٣٠م] كان رد ابن باديس هو إعلان المشروع الذي خطط له منذ [١٣٣٠هـ ١٩١٢م] ، فقامت [جمعية العلماء المسلمين الجزائريين] في ذي الحجة ١٣٤٩هـ مايو سنة ١٩٣١م حاملة رسالة العودة بالجزائر إلى هويتها العربية الاسلامية ، وممهدة الطريق لجيل الثورة المسلحة على الاستعمار . .

وكانت « الطرق الصوفية » سنداً أساسياً للسلطة الاستعمارية بالجزائر ، فحاربها ابن باديس منذ سنة ١٣٤٣هـ ١٩٢٤م ، وتعرض بسبب ذلك لمحاولة اغتياله [١٣٤٥هـ ١٩٢٧م].

وفي [١٣٤٣هـ ١٩٢٥م] بدأ نشاطه الصحفي . . فشارك في تحرير صحيفة [النجاح] . . ثم أصدر مجلة [المنتقد] سنة ١٣٤٤هـ ١٩٢٦م ، وكان شعارها : « **الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء!** »، فعطلها الاستعمار بعد ثمانية عشر عدداً . . لكنه عاد فأصدر صحيفة [الشهاب] ، أسبوعية ، ثم شهرية . . كما أصدر صحفاً أخرى تعرضت للمصادرة والإلغاء،

منها [الشريعة] ، و[السنة المحمدية] و[الصراط]. . .

وقبل أن ينتقل ابن باديس إلى جوار ربه في ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ ابريل سنة ١٩٤٠م كان قد وضع وطنه بيد الجيل الذي أعاده إلى أحضـان العروبة والاسلام ، والذي صنع جيل الثورة المسلحة التي تفجرت ضد فرنسا [١٣٧٤هـ ١٩٥٤م] وحقق بدماء المليون شهيد استقلال الوطن الجزائري العربي المسلم سنة ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م . . فتحقق الهدف الذي رسمه ابن باديس ، بمكة ، قبل نصف قرن ، يوم قال : « **نحن لا نهاجر . نحن حراس الاسلام والعربية والقومية في هذا الوطن!** » . . فأثبت أن الاسلام والعربية والقومية لن تضيع ، ولن يضيع من أحضانها الوطن إذا كان لها حراس من أمثال عبد الحميد بن باديس . . وأثبت أيضاً أنه أبرز ممثلي تيار [الجامعة الاسلامية] وأعظم أعلامه في بلاد المغرب العربي على الإطلاق![1] . . .

هذا عن أبرز أعلام هذا التيار . . .

والمناخ الذي تبلور فيه :

في مصر ـ أكثر المجتمعات العربية الاسلامية تحضراً وتطوراً ـ تبلور تيار [الجامعة الإسلامية] حول رائده جمال الدين الأفغاني . . . ولذلك ، فلقد كان مستحيلاً أن يصطبغ فكر هذا

---

(١) انظر الفصل الذي كتبناه عنه بكتابنا [مسلمون ثوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م .

التيـار بصبغة « البداوة »، التي اصطبغت بهـا دعوات لتجـديديـة إسلامية تبلورت في محيط بدوي ، « كالوهابيـة ، مثلاً . . وكـان مستحيلاً أن يقف هذا التيار من « العقلانية » ومن « التمدن » موقفاً غير ودي . . كمـا كـان مستحيـلاً ، كـذلـك ، بحكم الانتمـاء الاسـلامي والمنطلقـات الاسلاميـة ، لهـذا التيـار، أن يسلك إلى التجديد طريق « التغريب »! . .

لقـد كان تبلور هـذا التيار « بمصـر ، طليعة قيـام « التيـار الشعبي » المتميـز عن « جهاز الـدولة » ـ الـذي انفرد بـالتـطويـر والتنوير للمجتمع حتى ظهور هذا التيار في سبعينات القرن التاسع عشر ـ وهو لم « يتميز »، فقط ، عن « جهاز الدولة» ، بل واتخـذ منه موقف « المعارضة » في الكثيـر من الأحيان! . . ولـذلك فـإن هـذاالتيار قـد بريء من « التغـريب »، الذي مـالت إليه تجـربـة النهضـة المصـريـة ، خـاصـة على عهـد الخـديـوي اسمـاعيـل [١٢٧٩ ـ ١٢٩٦هـ ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩م] بحـكـم إسـلاميـتـه وشعبيتـه . . ثم هو ، بحكم مـوقفـه « التجـديـدي »، قـد رفض « جمـود » المؤسسات الـدينية التقليـدية ، تلك التي وقفت عنـد فكرية العصر « المملوكي ـ العثماني » ، فأسهمت بسلبيتها تجاه النهضة الحديثة ، في إسلام التجـربة « للتغـريب »! . . فكان أن اتسم فكر هذا التيار بسمة « التوازن »، المميزة لحضارتنا العربية الاسلامية ، عنـدما طـرح تصوره لقسمـات المشروع الحضـاري المستقل لأمتنا العربية الاسلامية .

لقد تجسد في تيار [الجامعة الاسلامية] بحث هذه الأمة عن ذاتها ، وسعيها للنجاة من خطر المد الاستعماري ، المسلح « بالتقدم » الحضاري الغربي ، والمستعين على غزونا « بالتخلف » « المملوكي - العثماني » !.. وللنجاة ، كذلك ، من « التخلف » « المملوكي - العثماني » ، الذي تحول إلى قيد يعوق الأمة عن التصدي لعاصفة الاستعمار و« التغريب »!..

ولقد تحول بحث أمتنا عن ذاتها ، في فكر هذا التيار ، إلى دعوة للتجدد الذاتي في الدين والدنيا ، ينهض فيها « العقل » بدور المصباح الذي ينير الطريق - طريق الدنيا ، وأيضاً طريق الدين ! وصولاً إلى بلورة حضارة مستقلة تصنع تمدناً إسلامياً متميزاً ، وتكون الطور العصري لحضارتنا التي ازدهرت في حقبة سابقة من التاريخ..

ولقد أذَّن هذا التيار ، بصوت الأفغاني ، في ربوع الشرق بالنهضة ، وبشربها عندما قال : « لقد أوشك فجر الشرق أن ينبثق ، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج!... إن هذا الشرق ، وهذا الشرقي لا يلبث طويلاً حتى يهب من رقاده، ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل ، فيأخذ في إعداد عدة الأمة الطالبة لاستقلالها ، المستنكرة لاستعبادها..!(1) ..

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٣ ، ٢٤٣

وبحكم الانتماء الاسلامي لأعلام هذا التيار ، وولائهم الأول للإسلام « الدين » و« الحضارة »، كان وضوح فكره عن أن الإسلام هو أساس هذه النهضة ، وهو أداتها ، وهو الحافز إليها . . فالاسلام هو « فكرية » - [أيديولوجية] - الأمة ، الفعالة ، إذا تجددت ، في بعث طاقاتها ودفعها لبناء حاضرها ومستقبلها ، على نحو مستقل ومتميز حضارياً - وأمام هذا « الكنز » ، الذي يمثل « الفرصة » الطبيعية والمواتية ، لا منطق عند الذين يتركونه ثم يبحثون عن « البديل »؟! . . « فهذه سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها ، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله كل الثقة فيه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره؟! . .[1]». . كما يقول، ويتساءل الإمام محمد عبده! . . .

إن أهل المدينة لا يلبون آذان من يؤذن لهم من خارج السور؟! . . وفي أحسن الفروض سيتبع هذا المؤذن « صفوة »، من السهل حصارهم ، وتوجيه الاتهام إلى فكرهم الوافد ، ثم اقتلاع هذا الفكر من الجذور!. . وليس كذلك الحال مع فكر هو

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٢٣١ .

« أيديولوجية » الأمة كلها ، إذ لا قبل لأعداء هذه الأمة بالتصدي له ، إن هو تحول ، بالتجديد ، إلى طاقة خلاقة تحرك الأمة نحو تحقيق أهدافها! . .

لكن كون الاسلام هو أساس النهضة ، وأداتها ، وحافزها ، لا يعني أن في مأثورات هذا الدين ، وفكر السلف ، وتطبيقات الماضين كل ما تحتاجه « دنيا » حاضرنا ومستقبلنا . . فهو ، في هذا الميدان « حافز » يحمل النفوس على « **طلب السعادة من أبوابها** »، بصرف النظر عن لون هذه الأبواب ، ومصادرها ، وعقائد مبدعيها ، وأجناسهم القومية ، ومواقعهم على خريطة الكوكب الذي نعيش فيه . . شريطة أن لا تتعارض مع « الأُطر » و« المثل » و« الغايات والمقاصد » و« الفلسفات » التي حددها « الاسلام الدين » . . فـ« السلفية في الدين » تزاملها وتواكبها ، في فكر تيار [الجامعة الاسلامية] : « **المستقبلية والاستنارة والتفتح في التمدن والحضارة** » . . ومن هنا يأتي المعنى العميق والموحي لكلمات الإمام محمد عبده التي تقول : « . . . **لو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه ، ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم في إحدى اليدين ، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم!** . .[1] » .

---

(١) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

ذلك ان لحضارتنا العربية الاسلامية موقفاً أصيلاً وقديماً يميز بين ما هو داخل في السمات والقسمات التي تتميز بها هذه الحضارة ،وبين ما هو داخل في «الأدوات» التي تتخذ سبلاً لتطوير الدنيا وتقدمها وللاستدلال والنظر في الموجودات . . فالخصوصية والتميز لا تعني الانغلاق وسد المنافذ والأبواب دون التفاعل مع حضارات الآخرين . . وقديماً عرض أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] لهذه القضية فقال : « إنه يجب علينا أن نستعين ، على ما نحن بسبيله ، بما قاله من تقدمنا في ذلك . وسواء أكان ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة ، فإن الآلة التي تصح بها التذكية لا يعتبر في صحة التذكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك ، إذا كانت فيها شروط الصحة . وأعني بغير المشارك : من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام! . .[1] » .

لكن الشرط الذي لا بد من تحقيقه حتى ينهض الاسلام بهذا الدور النضالي والبناء في تجديد « دنيا » الأمة ، هو أن يتجدد هذا « الدين »، فينفض مجددوه عنه البدع والخرافات والإضافات ، التي جعلته غريباً إذا نحن عقدنا المقارنة بينه وبين حقيقته وجوهره ، كما تلقاه نبيه ، عليه الصلاة والسلام ، عن

---

(١) ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م . [والتذكية هي الذبح] . .

الله ، سبحانه وتعالى . . . فلا بد ، أولاً ، من « حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء المرائين الأغبياء ، والرؤساء القساة الجهلاء ، يجددون النظر في الدين ، نظر من لا يحفل بغير الحق الصريح . . . وبذلك يعيدون النواقص المعطلة في الدين ، ويهذبونه من الزوائد الباطلة ، مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده ، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين. . . » كما يقول عبد الرحمن الكواكبي[1] . .

فبالسلفية العقلانية يتجدد الدين. . ومن ثم يلعب دوره الخلاق في تجديد الدنيا ، التي لا بد لتجديدها من الاستنارة والنظرة المستقبلية ، المنفتحة على مختلف التيارات الحضارية ، من موقع الراشد الناضج ، المدرك لما بين « الثوابت » و« المتغيرات » من فروق! . . .

الموقف الوسطي (المتوازن) :

ولقد كان واضحاً أن تيار [الجامعة الاسلامية] يمثل الموقف الثالث ، والوسط بين التيارين اللذين استقطبا جمهو الأمة وقادتها في ذلك التاريخ . . فعن يمينه أهل « الجمود المتحصنون بالمؤسسات العريقة العتيقة التفليدية ، أولئك الذين توقف بهم « الفكر » عند نمط العصر « المملوكي ـ العثماني » في

---

(١) [الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ١٨٦، ١٨٧ .

التفكيـر . . . وعن يسـارهم دعـاة « التغـريب » ، الـذين بهـرتهم حضارة أوربا ، وزادهم بها إيماناً وانبهاراً نفورهم من الصورة التي يقدمها للإسلام وتراثه أهل « الجمود » ! . . والإمام محمد عبـده يحكي كيف بشر تيار [الجامعة الاسلامية] بهذا الموقف الوسطي الجديد ، فيقول ، وهو « يترجم » لنشأتـه وتربيتـه ومذهبـه : لقد « نشـأت كما نشـأ كل واحـد من الجمهـور الأعـظم من الـطبقـة الـوسطى من سكـان مصر، ودخلت فيمـا فيـه يـدخلون ، ثم لم ألبث ، بعـد قـطعـة من الـزمن ، ان سئمت الاستمـرار على مـا يألفون ، واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون ، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه ، وناديت بأحسن مما وجدت ، ودعوت إليه ، وارتفع صوتي بالدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليـد ، وفهم الـدين على طريقـة سلف الأمة ، قبـل ظهـور الخـلاف ، والـرجوع في كسب معـارفه إلى ينـابيعهـا الأولى ، واعتبـاره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لتـرد من شططه ، وتقـل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمـة الله في حفظ نـظام العـالم الانساني ، وأنه على هذا الوجه يعد صـديقاً للعلم ، بـاعثاً على البحث في أسـرار الكون ، داعيـاً إلى احترام الحقـائق الثابتـة ، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل . كـل هذا أعده أمراً واحداً . . .

وقد خالفـت في الـدعوة إليـه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة :

● طلاب علوم الدين ، ومن على شاكلتهم . .

● وطلاب فنون هذا العصر ، ومن هو في ناحيتهم . .

ثم يتحدث الامام محمد عبده عن موقعه في هذا التيار ، الذي كان الأفغاني رائده ، فيقول : لا . . . نعم ، إنني لم أكن الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أني كنت روح الدعوة ، وهي لا تزال بي ، في كثير مما ذكرت ، قائمة! . .[1]» .

فنحن هنا بإزاء : موقف ثالث . . . وموقع ثالث . . . وتيار ثالث . . . يتوسط بين أهل « الجمود » ، وبين دعاة « التغريب » . .

وإذا كان هذا التيار يدعو إلى « السلفية الدينية »، وإلى « فهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى . . » . . . فإنه لا يتطابق ، في هذا الموقف ، مع نمط السلفية « البدوية »، التي وقفت عند « النص »، واتخذت من « العقل » موقفاً غير ودي . . والتي ، لهذه « البداوة »، لم تتعاطف مع « التمدن » والموقف المستقبلي في الحضارة وشئون الدنيا . . فهذا التيار ينتقد ، صراحة ، هذا اللون من « السلفية النصوصية » ، بل ويرى أن **أصحابها كانوا « أضيق عطناً - [أفقا] - وأحرج صدراً من المقلدين! . فهم ، وإن أنكروا كثيراً من البدع ، ونحوا عن الدين**

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣١٨ ، ٣٢٠ .

كثيراً مما أضيف إليه ، وليس منه ، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به ، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين ، وإليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء . . »[1]؟! . .

وعلى حين اتخذت « سلفية البداوة النصوصية » هذه موقفاً غير ودي من « العقل » في « الفكر الديني »، انعكس على موقفها من « العلم والمدنية »، رأينا تيار [الجامعة الاسلامية] يعلي من سلطان العقل في حقلي « الدين » و« الدنيا » جميعاً . . بل لقد اعتبر « الدين » « من ضمن موازين العقل البشري ، التي وضعها الله لترد من شطط هذا العقل ، وتقل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني . . ». . فالصلة بينهما ـ بين « الدين » و« العقل » ـ متينة ، والعروة بينهما وثقى ! . . فالدين : صديق للعلم ، يحرك الانسان للبحث في أسرار الكون ، ويحترم الحقائق العلمية الثابتة ، ويعول عليها في الاصلاح . .

وإذا كان الدين ميزاناً من موازين العقل البشري ، فإن هذا « العقل هو جوهر إنسانية الإنسان . . . وأفضل القوى الانسانية على الحقيقة[2] . . . وهو نقطة الافتراق التي ميزت الانسان عن

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣١٤ .

(٢) المصدر السابق . ج ٥ ص ٤٢٨ ، ج ٣ ص ٢٩٨ .

غيـره من الـحيـوانـات. . . جـعلهـا الله مـحـور صـلاحـه وفلاحه!. . [1] » .

وبينمـا رفضت « سلفية البـداوة النصوصيـة » : الحكمـة ـ [الفلسفـة] ـ بل « وعلم الكـلام »؟!. . تحدث تيـار [الجامعـة الاسلامية] عن « الحكمة » باعتبارها « مقننة القوانين ، وموضحة السبـل ، وواضعة جميع النظامـات ، ومعينـة جميـع الحـدود ، وشـارحة حـدود الفضائـل والـرذائـل. وبـالجملة ، فهي : قـوام الكـمـالات الـعـقـليـة والـخـلقيـة. . . فـهـي أشـرف الصناعات!. . [2] » .

وهـذا المقام الـرفيع الـذي احتله « العقل » في نهـج تيـار [الجـامعة الاسـلامية]، لـم يقف عنـد حـدود فكـر « الـدنيـا. . والحضـارة. . . والمجتمع »، بـل تعدى هـذا الإطار إلى ميـدان « الفكر الديني ». . . فـالنظر العقلي هـو السبيل الـذي يصل بـه المسلم الى اليقين في العقـائـد ، إذ « لا يقين مـع التحـرج من النـظر ، وإنما يكـون اليقين بإطـلاق النظر في الأكـوان ، طولهـا وعرضها. . . وحتى يصل إلى الغاية التي يطلبهـا بدون تقييـد. . فالله يخاطب ، في كتابه ، الفكر والعقل والعلم ، بـدون قيد ولا حد. . . . والوقـوف عند حـد فهم العبارة مضـر بنا ، ومنـاف لما

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٦٠ .

كتبه ، أسلافنا من جواهر المعقولات ، التي تركنا كتبها فراشاً للأتربة وأكلة للسوس ، بينما انتفعت به أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم :. النورا . .

والقرآن - وهو وحده المعجز الخارق - قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم . . **فهو معجزة عرضت على العقل ، وعرفته القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر في أنحائها ، ونشر ما انطوى في أثنائها . . فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري ، فلا يدهشك** بخارق للعادة ، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية . . . والمرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . . فمن ربي على التسليم بغير عقل ، والعمل ، ولو صالحاً ، بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الايمان أن يذلل الإنسان للخير ، كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه ! . .[1] » .

ولقد كانت هذه « العقلانية الاسلامية » عاملاً من عوامل

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ١٥١ ، ٢٧٩ - ٢٨١ ، ج ٤ ص ٤١٤ .

تميز تيار [الجامعة الاسلامية] ، لا عن « سلفية البداوة النصوصية » وحدها ، بل وعن أهل « الجمود »، الذين تصوروا توحيد الله وتفرده بالخلق مستلزماً لإنكار قيام المسببات على أسبابها الطبيعية ، ولإنكار وجود القوانين الكونية والطبيعية الثابتة والحاكمة في الكون والمجتمعات . .

كذلك كانت عقلانية هذا التيار مميزة له عن تيار « التغريب »، الذي تبنى نفر من أهله مادية الغرب الفلسفية ، تلك التي ظن أهلها أن التسليم بوجود السنن والقوانين الثابتة في الكون والمجتمع يستلزم نفي الألوهية والوحي والرسالات. . .

فبهذه « العقلانية الاسلامية » جدد تيار [الجامعة الاسلامية] نظرة الإنسان المسلم للكون ، عندما أقام الموازنة والتوازن بين « التوحيد » ـ الألوهية ـ وبين « الطبائع » ـ السنن والقوانين والعلِّيَّة والارتباط الضروري بين الأسباب والمسببات ـ . . . وعندما ميز بين مهام الرسل والوحي وبين « عالم العقل ونطاقه ».. ورأى أن « حاجة العالم الإنساني إلى الرسل هي حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح ، أما تفصيل طرق المعيشة ، والحذق في وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من جهة العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه كي لا يحدث ريباً في الاعتقاد ولا يصيب أحداً من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير

حق. . . فمثلاً: حقيقة البرق والرعد والصاعقة،وأسباب حدوثها، ليست من مباحث القرآن، لأنها من علم الطبيعة [أي الخليقة]، وحوادث الجو التي في استطاعة الناس معرفتها باجتهادهم ، ولا تتوقف على الوحي . وإنما تذكر الظواهر الطبيعية في القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال ، وصرف العقل إلى البحث الذي يقوي به الفهم والدين. . . لا تقرير القواعد الطبيعية، ولا إلزاماً باعتقاد خاص في الخليقة! . . [1] ».

فبهذه « العقلانية الإسلامية » تميز هذا التيار « السلفي ـ العقلاني ـ المستنير » عن « سلفية البداوة النصوصية ». . . وعن « أهل الجمود ». . . وعن « دعاة التغريب »! . .

● فأنصار « سلفية البداوة النصوصية ». . . قد نفضوا عن العقائد والتصورات والعبادات الدينية غبار البدع والخرافات. . لكنهم وقعوا أسرى لظواهر النصوص . . ثم هم « لم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء. . »!. . .

● و« أهل الجمود »: « لا يتعلمون،في الأزهر ، من الدين إلا بعض المسائل الفقهية وطرفاً من العقائد على نهج يبعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها!. وجل معلوماتهم : تلك الزوائد التي عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ، ولا يرجى نفعها. . وأبناء الأزهر ، المعروفون « بالعلماء ». . أقرب للتأثر بالأوهام

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٢٠ ، ٤٢٢، ج ٤ ص ٩٤.

والانقياد إلى الوساوس من العامة ، وأسرع إلى مشايعتها منهم! . . . فبقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية! . .[1] » . . كما يقول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . .

● أما « دعاة التغريب »، سواء منهم من درس في عواصم الغرب ، فاندهش بحضارته ، وأصبح داعية لتقليدها ، أو من تعلم منهم في المؤسسات التعليمية التي أقامها محمد علي بمصر ، أو العثمانيون بتركيا ، فإن نهجهم ليس كافلاً لاستقلال الأمة حضارياً . . بل لقد أصبح هؤلاء بمثابة السبل والقنوات التي يتسلل منها العدو إلى عقل الأمة ووجدانها كي يثبت في وطنها الأقدام ويحكم حول عنقها الأغلال؟! . .

والأفغاني يتحدث عن هذا الفريق فيقول : « لقد شيد العثمانيون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدناً » ، **وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني!** . . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟! . . نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية ـ [القومية] ـ وما شاكلها . . وسموا أنفسهم

---

(١) المصدر السابق . ج ٣ ص ١١٢ ـ ١١٤ .

زعماء الحرية . . ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئآت المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم . . فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم! . . وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم . . وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ! . . لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها . . وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم؟ ![1] . . » .

فكما أن النهضة يعوقها « الجمود » عند فكرية عصر التراجع الحضاري وتخلف التمدن الاسلامي . . فإن « التغريب » يفقدها استقلالها ، ويلبس الأمة غير ثيابها ، ويجردها من إمكاناتها وعوامل قوتها ، ويبدد طاقاتها فيما يفيد عدوها ، فيزيد ضعفها في مواجهة التحديات! . . كل ذلك على وهم أن تصبح جزءاً من حضارة الغزاة . . والطريقان ـ « الجمود » و« التغريب » ـ كلاهما مرفوضان من تيار [الجامعة الاسلامية] ، الذي يستعين على النهضة بـ« الأصالة » وبـ« التجديد والتطور » . . فلا نقف حيث وقف « سلف » العصر « المملوكي ـ العثماني » . . ولا نبدأ من

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٥ ـ ١٩٧ .

حيث انتهى الأوربيون . . . ذلك « أن الظهور في مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم . . ولا ضرورة ، في إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجىء للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك . وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه ، وأمته وقراً[1] أعجزها وأعوزها ! . .[2] » . .

ففي « الجمود » . . وفي « التغريب » ، كليهما : « جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها » . . ويفقدها الاستقلال الحضاري ! . .

* * *

وإذا كانت « السلطة السياسية » ، الممثلة في رأس الدولة ـ [الخليفة ـ الإمام] ـ وفي مؤسسات « الدولة »، قد اكتسبت ، في العصر العثماني ، « قداسة دينية »، غريبة عن روح الاسلام ، وهي قداسة ادعاها السلاطين العثمانيون ، وباركها فقهاء هؤلاء السلاطين من أهل « الجمود » . . . ثم جاء دعاة « التغريب » ليرفضوها بـ« العلمانية » الغربية التي « تفصل » الدين عن

(١) أي اعجزها ، وأذلها ، وصدعها ! . .

(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٥٣٣ .

الدولة ، على النحو الذي صنعته أوربا في عصر نهضتها وإحيائها وتنويرها . . فإن تيار [الجامعة الاسلامية] قد سعى إلى تجديد نظرة المسلم إلى المجتمع والدولة ، برفض « وحدة » السلطتين ـ الدينية والزمنية ـ وأيضاً برفض « فصلهما »، وذلك عندما « ميز » بينهما ، وأبصر علاقاتهما، التي لا ترقى إلى درجة « الوحدة » ، ولا تتدنى إلى حد « الانفصال »! . . وقال بتأسيس النهضة على الدين ، مع تجريد مؤسسات « الدولة » من « الصبغة الدينية » . . **فالدولة اسلامية . . وكذلك المجتمع ، والحضارة . . لكن السلطة في هذه « الدولة » « مدنية »، لأن مصدر السلطات في المجتمع هي الأمة ، والحاكم نائب عنها ، ومسؤول أمامها ، وخادم لها ، ومنفذ لشريعتها ـ المدنية ، والمحكومة بأُطر الشريعة الإلهية في ذات الوقت ـ . . وليس هذا الحاكم ظلاً لله ولا سيفاً مصلطاً على رقاب عباد الله؟! . .**

فهذه الشؤون « الدنيوية » : « بشرية » ، وليست « إلهية » ، ومصدرها العقل الانساني والتجربة الإنسانية ـ المحكومان بأُطر مقاصد الشريعة ـ وليس مصدرها الرسالة والرسل والأنبياء . . . وكما يقول الإمام محمد عبده : فإن كل « ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه ، لا يطالب الأنبياء ببيانه ، ومطالبتهم به جهل بوظيفتهم ، وإهمال للمواهب والقوى التي وهبه الله إياها ليصل بها إلى ذلك . . ولقد أرشدنا نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، إلى وجوب استقلالنا دونه في مسائل دنيانا في واقعة تأبير النخل ، إذ

قال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »[1] . . . والاسلام لا يرضى ، فضلاً عن أن يسعى لمثل ما كانت عليه أوربا الكاثوليكية في عصورها الوسطى والمظلمة عندما « كانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد ، لا فصل فيه بين السلطتين . . فهذا الضرب من النظام هو الذي يعمل البابوات وعمالهم من رجال « الكثلكة » على إرجاعه ، لأنه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم ، وإن كان ينكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم . . فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه . . وضالون من يرمون الاسلام بأنه يحتم قرن السلطتين في شخص واحد . . ليس في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم . . . وللذين يقولون : إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني ، أفلا يكون للقاضي ؟ أو للمفتي ؟ أو شيخ الاسلام؟؟ . . أقول : إن الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية ! . . ذلك أن أصلاً من أصول الاسلام ـ وما أجله من أصل ـ : قلب السلطة الدينية ، والإتيان عليها من أساسها . لقد هدم الاسلام بناء تلك السلطة ، ومحا أثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٤ ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

رسم؟! . .[1] » . . كما يقول الإمام محمد عبده . . .

فلا « كهانة » أهل « الجمود » و« سلطتهم الدينية » . . . . ولا « علمانية » دعاة « التغريب » وفصلهم الدين عن الدولة والمجتمع . . . وإنما « التمييز » بين الدين والدولة ، بتأسيس النهضة على الاسلام ، وتقرير « مدنية » السلطة السياسية في المجتمع ، بجعل الأمة مصدر السلطات والسلطان! . .

* * *

ولقد كانت « القداسة الدينية » لرأس السلطة السياسية في المجتمع تثمر ، ضمن ما تثمر : تكريس الاستبداد السياسي ، بل وإضفاء بعض من هذه « القداسة » عليه؟! . . فجاء فكر تيار [الجامعة الاسلامية] عن « مدنية » السلطة في الدولة الاسلامية ليفسح المجال في فكر هذا التيار للحديث عن « الشورى » ، كفلسفة للنظام السياسي الاسلامي ، ولتسليط الضوء ، بل والسهام على « الاستبداد السياسي » كعدو أول لنهضة العرب والمسلمين . . . فالكواكبي ، الذي ينفي أن يكون في الاسلام سلطة دينية أو نفوذ ديني في غير مسائل إقامة شعائر الدين[2] . . . يقرر أن حكومة دولة الخلافة الراشدة كانت « مؤسسة على أصول الإدارة الديمقراطية ، أي العمومية » . . . وأن سبب انحطاط

---

(١) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

(٢) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ١٤٨ .

المسلمين « هو تحول نوع السياسة من نيابية اشتراكية ، أي ديمقراطية تماماً ، إلى سلطة شبه مطلقة . .[1] » . . وهو يرفض رأي أهل « الجمود » الزاعمين بأن سبب الفتور والانحطاط الذي طرأ على المسلمين هو « التهاون في أمور الدين »، ويقول : « . . . والأمر الغريب أن كل الأمم المنحطة ، من جميع الأديان ، تحصر بلية انحطاطها السياسي في تهاونها بأمور دينها ، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسك بعروة دينها تمسكاً مكيناً ، ويريدون بالدين العبادة ! . ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئاً ، ولكنه لا يفيد أبداً . . ذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه ، فإذا صادف مغرساً طيباً ثبت ونما ، وإن صادف أرضاً قاحلة مات وفات ، أو أرضاً مغراقاً هاف ولم يثمر. وما هي أرض الدين ؟! . . أرض الدين هي تلك الأمة التي أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها ، وأفسد أخلاقها ودينها ، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك ، اللذين زيادتهما عن حدهما المشروع أضر على الأمة من نقصهما ، كما هو مشاهد في المتنسكين؟! . . » . . ثم يتحدث الكواكبي عن القوى التي تمكن للاستبداد السياسي في المجتمع ، فيعدد : « قوة الإرهاب ، وقوة الجند ـ لا سيما إذا كان الجند غريب الجنس ـ وقوة المال ، وقوة الألفة على القسوة ، وقوة رجال الدين ، وقوة أهل الثروات ، وقوة الأنصار من الأجانب؟! . . [2] » .

---

(١) المصدر السابق . ص ٣٥٧ ، ١٤٧ ، ٢٥٠ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٨٧ ، ٢٢٥ .

أما الأفغاني فإن حديثه عن « الشورى » «و الحكم النيابي » وحكم البلاد بأهلها « حكماً دستورياً صحيحاً » هو حديث واضح وحاسم ومستفيض[١] . .

● ففي « الدين » : سلفية مجددة ، تتخذ من « العقل » أداة وحكماً وسلطاناً . .

● وفي « الدنيا » : مشروع حضاري مستقل ، يبرأ من « كهانة » أهل « الجمود » « وسلطتهم الدينية » . .

ومن « علمانية » دعاة « التغريب » وفصلهم الدولة عن الدين . . ويتبنى : تأسيس النهضة على الاسلام ، وجعله حافزاً للإنسان كي يطلب سعادته من « كل الأبواب » ، شريطة أن يبقى للحضارة العربية الاسلامية طابعها الوسطي المتوازن ، الذي مثل روح هذه الحضارة في عصرها الذهبي . . .

● وفي « الدولة » : يتبنى هذا التيار « مدنية » السلطة ، بما تعنيه وبما يترتب عليها من تأسيس الحكم على « الشورى » ، وتنقية الفكر السياسي الاسلامي من الشبهات التي تبرر الاستبداد! . .

والعروبة المتميزة في المحيط الإسلامي :

بعض الناس لا يستسيغون القول بأن لتيار [الجامعة

---

(١) انظر [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٤٧٣ .

الاسلامية] موقف « قومي عربي »، أبصر تميز العرب ، قومياً ، في المحيط الإسلامي ، بل وعقد لهم لواء القيادة في هذا المحيط !.. لا يستسيغون هذا القول ، ويتساءلون ، منكرين ومستنكرين : أنّى يوجد للفكر القومي مكان عند دعاة الجامعة الإسلامية؟!.. وألا يدخل ذلك في باب الجمع بين المتناقضات؟!..

لكننا نقول : إن هذا الرأي لا يعدو أن يكون ثمرة من ثمرات النظرة السطحية للأمور ، النابعة من الكسل العقلي ، الذي يمنع هؤلاء من فقه الفكر والمواقف التي بلورها تيار [الجامعة الاسلامية] حول هذا الموضوع ..

فالأفغاني الذي قال : « لقد علمنا ، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية - [أي قومية] - إلا في دينهم واعتقادهم».. والذي دعا المسلمين قاطبة إلى الاعتصام « بحبال الرابطة الدينية ، التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية..[1]».. هو ذاته الذي يقول : « إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها.. والأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب.. ومذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان..»[2].

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٧، ٣١٠ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٣٧ .

وفي الوقت الذي مارس فيه الأفغاني الدعوة لقيام رابطة [للجامعة الاسلامية] بقيادة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨م] لتجمع عالم الاسلام ضد التدخل الاستعماري الأوربي ، كان صوته يعلو بنقد الدولة العثمانية لرفضها الاستعراب ، وتحويل الترك ، بواسطة اللغة والحضارة ، إلى « جزء من الأمة العربية »! . . فكتب عن هذا « الخطأ العثماني القاتل » يقول : « لقد أهمل الأتراك أمراً عظيماً . . وهو اتخاذ اللسان العربي لساناً للدولة . . والسعي لتعريب الأتراك . . وإنما فعلت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب ، وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأي؟! . . فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربي بغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر؟! . . إنها لو تعربت لانتفت من بين الامتين النعرة القومية ، وزال داعي النفور والانقسام ، وصاروا أمة عربية . . [1]» واحدة! . .

ومحمد عبده ، وهو المهندس الأعظم لمدرسة التجديد الاسلامي ، وروح تيار [الجامعة الاسلامية] هو القائل عن الاسلام ، عندما كانت السلطة والدولة في أهله عربية : « كان الاسلام عربياً ، ثم لحقه العلم فصار عربياً ، بعد أن كان

(١) المصدر السابق . ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

يونانياً»[1]! . .

لكن. . . هل هي « المتناقضات » التي يستحيل اتساقها؟! . . . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف يستقيم الحديث عن أن المسلمين « لا جنسية لهم إلا في دينهم واعتقادهم » الديني ، مع الحديث عن أن « الأمة العربية هي عرب ، قبل كل دين ومذهب » ، والدعوة إلى تعرب الترك ، ليصبحوا جزءاً من « الأمة العربية ». . بل والحديث عن « الاسلام ديناً عربياً »؟! . .

انها ليست « متناقضات ». . . بل هي الفكر المتسق ، الذي وازن به تيار [الجامعة الاسلامية] بين « الخصوصية القومية للعرب »، كأمة ، بالمعنى القومي ، في محيط إسلامي ضم أمماً تدينت بالإسلام الدين ، وبين « عموم » الرابطة والجامعة الاعتقادية والملية التي جمعت كل من تدين بهذا الدين. . وفي هذه الموازنة تكمن عبقرية هذا التيار في هذا الميدان! . .

فبين « الأقوام المسلمين » رابطة مؤسسة على عقائد الاسلام ، ومتمثلة في آدابه. . وهي بالنسبة لهم جميعاً بمثابة « الجنسية الإسلامية». . . لكن هذه الشعوب الإسلامية تسكن أقاليم متعددة ، وتنتمي إلى قوميات تميزها لغات مختلفة ، الأمر الذي أثمر تمايزاً في العوائد والأخلاق . . « وتحت هذه المؤثرات ـ الإقليم ، واللغة ، والأخلاق ، والعوائد ـ كما يقول

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣١٧ .

الأفغاني ـ تحصل للأقوام ميزة ، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم ، والذود عنه ، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم ، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة! . .[1]» . . .

وهذه « الغيرية » القومية ، التي تمثل واقعاً قائماً في المحيط الاسلامي ، الذي تجمعه رابطة الاسلام ، هي التي جعلت الأفغاني ينبه على أن مطلب تيار [الجامعة الانسلامية] لا يرقى « للوحدة السياسية » للأمم الاسلامية ، « فإن هذا ربما كان عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه! . .[2] » . . .

فهي رابطة « التضامن الاسلامي والنصرة الاسلامية » ، تشد الأمم الاسلامية ، التي تقوم وحدة كل منها ، سياسياً ، وتتأسس على رابطتها القومية التي تميزها في المحيط الاسلامي الأكبر والأوسع . . . فهنا « أمة » اسلامية ، و« جنسية » ـ [قومية] ـ إسلامية ، قوامها رابطة الملة والاعتقاد . . وفي محيطها تتميز وتتمايز « أمم » و« قوميات » ، بالمعنى القومي الأخص ، تتأسس على السمات القومية المتميزة في إطار المحيط الاسلامي الكبير . . .

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٥ .

وعند ابن باديس ـ وهو إمام الجناح المغربي لتيار [الجامعة الاسلامية] ـ نجد وضوحاً كاملاً في تصوير العلاقة بين « الأمة العربية » ، المتميزة قومياً ، وبين « الأمم الاسلامية » غير العربية . . . فالعرب : أمة في القومية . . وفي السياسة . . والوحدة السياسية ، بمعنى وحدة الدولة ، أمر وارد ، بل واجب بين من يتمتعون منهم بالاستقلال عن مناطق نفوذ الاستعمار وسيطرته . . أما الأمم التي تجمعها رابطة الملة والاعتقاد الديني ، دون رابطة العروبة القومية ، فإن رابطة الدين تثمر لها وحدة في النواحي الأدبية والاجتماعية ـ دون السياسية ـ ومن ثم دون الدولة الواحدة . . وبعبارة ابن باديس : فنحن إذا قلنا : العرب ، فإننا نعني : هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقاً إلى المحيط الإطلانطيقي غرباً ، والتي تنطق بالعربية ، وتفكر بها ، وتتغذى من تاريخها ، وتحمل مقداراً عظيماً من دمها ، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة. هذه الأمة تربط بينها ـ زيادة على رابطة اللغة ـ : رابطة الجنس ، ورابطة التاريخ ، ورابطة الألم ، ورابطة الأمل. فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة . . وبين الشعوب العربية المستقلة تمكن الوحدة السياسية ، بل وتجب . . . . أما المسلمون الذين تتوزعهم عدة قوميات ، فان علاقتهم شاملة لناحيتين :

- ناحية سياسية دولية . .
- وناحية أدبية اجتماعية . .

فأما الناحية السياسية الدولية ، فهذه من شأن أممهم المستقلة ، وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهي التي يجب أن تهتم بها كل الأمم الاسلامية . . إنها مهمة جماعة المسلمين، وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين الدينية والأدبية . .[(1)]» . .

هكذا وضحت الرؤية ، وتحددت العلاقات ، والتصورات . .

ولقد بريء تيار [الجامعة الاسلامية] من شبهة تأسيس التمايز القومي للأمة العربية في المحيط الاسلامي على أسس عرقية أو عنصرية . . فالعروبة ، عند أعلام هذا التيار ، مؤسسة على ثمرات التميز في اللغة، والإقليم ، والعادات والتقاليد. . . وعندهم أن اللغة « لها آداب ، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق ، وعلى حفظها تتكون العصبية!». . . وللغة « تأثير ـ معنوي ـ علاوة على التأثير المادي ـ يجعلها من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر »، حتى لتصبح طوق النجاة للأمة ، تجمع شملها القومي إذا غالتها وحاولت اغتيال وحدتها التجزئة المفروضة على وطنها القومي من قبل الغزاة! « فكم رأينا دولاً اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على

(1) [كتاب آثار ابن باديس] ج ٣ ص ٣٩٨ ، ٣٣٩ ، ٤١١ . جمعها ونشرها الدكتور عمار طالبي . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م .

لسانها ـ [لغتها] ـ محكومة ، وترقبت الفرص ، ونهضت بعد دهر ، فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل في ذلك إنما هو اللسان قبل سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا في الاستعباد إلى ما شاء الله! . .[1]» .

وأعلام هذا التيار يؤصلون « المعيار اللغوي للعروبة » بحديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الذي يقول فيه : « أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب. **وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي**[2] » .

وهم لا يقفون ، فقط ، عند تقرير حقيقة تميز العرب قوماً في المحيط الاسلامي ، بل ويتبنون الدعوة إلى دور قائد للأمة العربية في هذا المحيط! . .

● فالأفغاني قد دعا إلى تعرب الترك ، ليصبحوا جزءاً من « الأمة العربية » الواحدة! . .

● والإمام محمد عبده رأى أن عظمة هذه الأمة قد تحققت عندما « كان الاسلام عربياً » . . فلما تغلب الجند غير العربي « من

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٢٤ ، ٢٢١ .

(٢) رواه ابن عساكر ، بسنده ، عن مالك الزهري ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ـ [تاريخ بغداد] ـ.

الترك والديلم وغيرهم » على الخلافة العربية، « هناك استعجم الاسلام وانقلب أعجمياً » فكان الانحطاط![1].

● والكواكبي ـ وهو إمام الجناح المشرقي لتيار [الجامعة الاسلامية] ـ يعقد للعرب لواء القيادة في تجديد عالم الاسلام والشرق فيقول : إن « العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية. . وهم أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء ، فلا يأنفوا عن اتباعهم أخيراً. . »[2]! . .

● وابن باديس يرى أن « العرب قد رشحوا لهداية الأمة ، وأن الأمم التي تدين بالاسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الاسلام ، وهو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلم لغتها ، ويهتدون مثلها بهدي الاسلام. . ». . فالعروة وثقى بين الاسلام والعروبة. . ونمو الاسلام يعني نمو الأمة العربية. . ولذلك فإن رسول الإسلام ، صلى الله عليه وسلم ، كان « رسول الانسانية. . ورجل القومية العربية ، والأمة العربية ، في آن واحد. . نهتدي بهديه ، ونخدم القومية العربية خدمته ، ونوجهها توجيهه ، ونحيا لها ، ونموت عليها. . » كما يقول ابن باديس![3]. .

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٢) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ٣٥٨ .

(٣) [كتاب آثار ابن باديس] ج ٤ ص ١٧ ـ ١٩ ـ ٢١ .

هكـذا تميز مـوقف تيار [الجـامعة الاسـلامية] من قضيـة لعـروبة وتميـز العرب قـومياً ، ومن عـلاقة هـذا الكيان القـومي العربي بالمحيط الاسلامي . . . فأعـلام هذا التيـار لم يقفوا عنـد العـروبة ، رافضين لـروابط الملة والاعتقاد الـديني ـ كمـا صنـع « القـوميـون العلمـانيـون » ـ. . . ولـم ينحـازوا إلى الـرابـطة الاسلامية ، زاعمين تناقضها مع التمايز القومي ، الذي هو أخص منها ـ كما صنع فريق من العاملين في الحقل الاسلامي ـ . . وإنما وازنـوا بين الرابـطتين ، ودعوا إلى دور قـائد لـلأمة العـربيـة في المحيط الاسلامي ، سواء في تجـديد الـدين أو في النهضة التي تجـدد للعـرب والمسلمين دنيـاهم ، وتعيـد لهم استقـلالهم الحضاري الذي ميزهم تاريخياً عن أمم وحضارات أخرى . . .

وحضارة جديدة . . ومتميزة :

لقـد أبصر تيـار الجامعـة الإسـلاميـة الهدف الاستعماري الأوربي القديم . . ذلك الهدف الذي تجلى في كل موجات الغزو التي تعرض لها وطن العروبة خـلال هـذا الصـراع التاريخي الطويل . . فالغرب يريـد أن يحرز النصـر على الجبهة الحضارية ، باحتواء العـرب حضاريـاً ، حتى يختم دورات هذا الصراع بانتصار حاسم ونهائي ، ومن ثم فهو ، وقد عاد مسلحـاً هذه المرة بـالثورة الصنـاعية وثمـارها العـديدة من أدوات القـوة المتنوعة ، وبالحضارة الأوربية المتألقـة والمتفردة على خـريطة الكوكب الذي يسكنه الإنسان ، يـريد أن لا تـظل حضارتـه هذه

حضارة جاليته الأوربية ومستوطنيه فقط في مستغمراته العربية والاسلامية ، وذلك كي لا تتكرر قصته القديمة يوم زالت حضارته بزوال الدولة الاستعمارية القديمة ، إغريقية . . وبطلمية . . وبيزنطية . . وسواءاً كانت السبل هي القهر بالمسخ القومي والسحق للهوية الحضارية ، كما حاول الفرنسيون بالجزائر ، أو بالإغراء كما صنعوا هم من خلال مدارس التبشير بغيرها ، وكما صنع الانجليز في مستعمراتهم ، فإن الهدف واحد ومحدد ، وهو أن ينسلخ العرب والمسلمون عن هويتهم الحضارية المتميزة ، فيصبحون غرباً ، وتتم عملية الاحتواء التي تكرس النصر للغرب في هذا الصراع الحضاري الطويل . . وفي حديث الكاتب والسياسي الاستعماري الفرنسي « جابرييل هانوتو » عن هذا الصراع الحضاري بين الحضارة الأوربية ، التي يسميها « المدنية الآرية المسيحية » ، وبين الحضارة العربية الاسلامية ، التي تشد العرب - كما يقول - إلى « الماضي الآسيوي »، يتجلى فرح المستعمرين بما لاح لهم من نجاح هذا المخطط « التغريبي » في بعض أقطار الشمال الافريقي - تونس - وهو النجاح التغريبي الذي تحدث عنه هانوتو بقوله : « يوجد الآن بلد وأرض تنفلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضي الآسيوي »؟![1] . .

وحتى لا يتحقق للاستعمار هذا الهدف الكبير ، القديم

---

(١) [الاسلام والرد على منتقديه] - مجموعة أبحاث - ص ٢٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .

والجديد ، كانت دعوة تيار الجامعة الاسلامية إلى تجديد الحضارة العربية الاسلامية ، تجديدها وليس التخلي عنها ، ولا استبدالها . . ففي الوقت الذي تصدى فيه هذا التيار للتحديات التي مثلت قيود العصور الوسطى على حركة الأمة ويقظتها ونهضتها . . وتصدى للغزوة الاستعمارية الأوربية ، كاحتلال عسكري ونهب إقتصادي ، تصدى كذلك لدعاة إحلال حضارة الغرب محل حضارتنا العربية الاسلامية ، التي لم تكن صورتها التي تقدمها المؤسسات التقليدية يومئذ تغري بالاستلهام أو تبعث على الاحترام !..

ولقد انطلق هذا التيار في دعوته لتجديد حضارتنا المتميزة من عدة منطلقات يجمعها ويربطها خيط واحد . .

١ ـ فنحن أمة عريقة ، ولحضارتنا مزاج متميز وطابع خاص . . وتميّز هذه الحضارة بالموقف المتوازن والموازن بين المتناقضات ، وتمثيلها « للضمير » في مواجهة حضارات تميل عادة إلى طرف واحد من طرفي الظاهرة . . يعطي حضارتنا هذه ميزة ، ويعصمها من مخاطر وأخطار يشكو منها الآخرون . .

٢ ـ إن للمزاج الحضاري المتميز علاقة عضوية بتكوين الأمة ، ومقومات هذا التكوين ، وإذا كانت الأمة ، كما هو حال أمتنا ، ذات عراقة حضارية وتراث غني ودور بارز في تاريخ الإنسانية وصراعاتها الحضارية ، فليس من السهل تجريدها من ثوبها الحضاري الخاص ، والقذف بها تحت عباءة الآخرين! . .

بل قد يستحيل ذلك حتى لو أراد نفر من بنيها ، مخلصين كانوا أم مخادعين! . . . وبعبارات ابن باديس عن « الغيرية الحضارية » - أي التميّز - للجزائر عن فرنسا : « إن هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت . . »؟! . .

٣ - إن الدعوة إلى « حضارة عربية اسلامية متميزة » لا يعني تقديس الماضي ، ولا العودة إليه كي نعيش في قوالبه ، بل ولا الأخذ بجميع أصوله . . وإنما الذي تعنيه هذه الدعوة هي الأخذ « بالثوابت » من « الأصول »، التي تمثل القسمات المميزة للشخصية الحضارية العربية الاسلامية . . وهذه الأصول التي تحمل صلاحيات العطاء المعاصر ، وتمثل قوة دفع وطاقة تحريك للأمة نحو التقدم ، إنما تمثل ، بما لها من قداسة في نفوس الأمة ، مناخاً ملائماً يسرع بحركة الأمة كي تنخرط في عملية التجديد واليقظة والتطور ، على عكس حالها إذا ما دعيت إلى نمط جديد وغريب ليس لأصوله في ضميرها قداسة واحترام . . ففارق بين أن تقتنع صفوة مستنيرة بنمط حضاري معين ، فتنخرط في العمل لسيادته وتسويده ، وبين أن تدخل الأمة عصر تجديد حضارتها الخاصة ، الممثلة لذاتيتها ، والمجسدة لخصوصيتها القومية ، مسوقة إلى ذلك بقيم وأفكار ومواريث لها في نفوسها وضمائرها هالات المقدسات . . فنطاق « التحديث » ، في الحالة الأولى ، محدود ، ومن السهل حصاره واقتلاعه - علاوة على انتفاء ملاءمته وجدواه - أما في الحالة الثانية ، فإن السعي في « التجديد » سيكون سريعاً وحثيثاً ، ونطاق انتشاره سيكون عاماً

وشاملاً ، واقتلاع الأعداء لآثاره سيكون مستحيلاً . . وذلك فضلاً عن جدواه النابعة من ملاءمته للأمة التي تنهض بهذا « التجديد » . .

إذن ، فالمطلوب هو البدء من بعض أصول الماضي ـ أي « الثوابت » ـ الصالحة ، والتي تمثل « الروح الحضارية » للأمة ، والضامنة لها استمرارية مسيرتها الحضارية . . وبعبارة الأفغاني ـ في المنهاج الذي تحدد لـ[العروة الوثقى] . . « **فإن الظهور في مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم**[1] »

وهذه « الأصول ـ الثوابت » ـ كما يقول محمد عبده ـ هي التي ستجعل الأرض ، إنسانياً وفكرياً ، ممهدة للإصلاح والتجديد والنهضة . . فالناس سيصغون « للمؤذن » ، ويلبون نداءه ، لأنه يؤذن فيهم من داخل سور مدينتهم ، وبلغتهم ، وبما هو مألوف لهم . . وليس من خارج السور ، برطانة الأعاجم والخواجات ! . . وعندما يكون الأمر « تجديداً » للأصول الثوابت فستكون لدعوته في قلوب الأمة وعقولها قواعد ومقدمات تعين على انخراط الأمة في مشروعها القومي النهضوي ، تشدها إليه « العوامل الطبيعية للانتماء » . . . وبعبارة محمد عبده : « فهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها ، فإن إتيانهم

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٥٣٣ .

من طرق الادب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة فيه ما يبناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره؟! . .[1]» .

والتمسك بالأصول الثوابت ، والروح الحضاري للأمة العربية الاسلامية ، لا يعني - في رأي أعلام هذا التيار - الرجوع للعيش في الماضي ، فلقد عابوا على « السلفية - النصوصية » - كما سبقت إشارتنا - موقفها غير الودي من العقل والتمدن والتحضر - وهو لا يعني الاكتفاء بالتراث الديني وعلوم الشرع في النهضة والاصلاح ، ولا العزلة الرافضة للتفاعل الحضاري . . ذلك أن الاصلاح التديني شيء ، والاصلاح المدني والتجدد الحضاري شيء آخر، يتمايزان ، مع الارتباط والاتصال. والاستعانة بالدين في تحريك الأمة إلى التجدد الحضاري ، مستعينة بمنابعه النقية ، لا يعني أن التجدد الحضاري هو ذات الاصلاح الديني . . وبعبارة محمد عبده : « . . لو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم في إحدى اليدين ، وما قرر الأولون وما

---

(١) [الأعمال الكملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٢٣١ .

اكتشف الآخرون في اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم . .[1]»؟! . .

فالعلاقات لا تعني طمس التمايز والفروق ، أو تحويل الوسائل إلى غايات! . .

٤ ـ وكما رفض تيار الجامعة الاسلامية « سلفية الجمود . عند فكرية العصور المملوكية العثمانية . . كذلك رفض طريق « التغريب » ، الذي مثل أصحابه « السلفية الغربية »؟! . . التي انبهر تيارها بالغرب ، فدعا إلى أن نبدأ من حيث انتهى الغرب ، وأن نسلك نفس الوسائل والوسائط التي سلكها الغرب إلى ذات الغايات والأهداف التي استهدفها . . رفض هذا التيار سبيل التغريب ، لمنافاته لحقيقة « التمايز الحضاري » لأمتنا عن الحضارة الغربية . . وكتب الأفغاني في منهاج [العروة الوثقى] يقول : « **إنه لا ضرورة ، في إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجىء للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقراً أعجزها وأعوزها! . .[2] »**.

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٥٣٣ .

والأفغاني يرى في هؤلاء « المتغربين »، الذين افتقدوا الثقة بالذات والأصالة والأمل في بناء الحضارة المتميزة ، حتى لقد استحكمت منهم « عقدة الأوربي »!.. يرى فيهم خطراً يفتح للاستعمار في حياتنا الثغرات ، فيقول : « إن أشد وطأة على الشرق ، وأدعى إلى تهجم أولي المطامع من الغربيين ، وتذليل الصعاب لهم ، وتثبيت أقدامهم ، هم أولئك الناشئة ، الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم ، يعتقدون أن كل الكمالات إنما هو فيما تعلموه من اللسان ، على بسائطه ، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات ، وقراءة سَيْروسِيَر من قطع مراحل من الغربيين في سبيل الأخذ في ترقية أمته ، بدون أن يسبروا من ذلك غوراً ، أو يفهموا لتدرجهم معنى . ويعتقد الناشيء الشرقي أن كل الرذائل ودواعي الحطة ومقاومات التقدم إنما هي في قومه ، فيجري مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، ومن كل مشروع وطني تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده ، ويأنف من أي عمل ما لم يشارك فيه الأجنبي؟!..[1] ».

فالاعتراض هنا ليس على « سبر غور » أسرار التقدم الغربي ، للتمييز بين « الضروري - النافع » ، و« الضار - غير الملائم » ، للاستفادة بالأول ، بالتمثل الطبيعي والصحي ، مع تجنب الثاني ورفضه.. فمن قبل صنع العرب ذلك يوم أخذوا ، من موقف المستقل وموقع القادر على التمييز ، عن الفرس

---

(١) المصدر السابق . ص ١٩٠ .

والهنود واليونان ، كي يصنعوا الذاتي والجديد والمتميز . . وإنما الاعتراض على « تقليد المنبهر » ، الذي أفقده « الانبهار » الثقة بالذات ، والقدرة على التمييز؟! . .

فالتمايز الحضاري ، الذي هو « حقيقة واقعة » ، يدعونا إلى أن نبصر ما لكل حضارة من خصوصية . . وهذه الخصوصية لا تنفي وجود ما هو عام وميراث إنساني تشترك فيه كل الحضارات . . وفتح النوافذ على مختلف الحضارات يجب أن يكون واعياً بما هو « خاص » وما هو « عام » . . . ومن غير الطبيعي ، وغير المفيد زرع الأجسام الحضارية الغريبة في بيئات لا تحتاجها ولا تفيد منها . . . وبهذا الفهم علينا أن ننظر لخصوصية التمدن الأوربي ، باعتباره ـ كما يقول الافغاني ـ : « في الحقيقة تمدناً للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني! . . » . . أما الذين يقلدون هذه الخصوصية ، المقدمات منها والنتائج ، فإنهم ـ وفق عبارة الافغاني ـ : « ينفون ثروتهم إلى غير بلادهم! . . ويميتون أرباب الصنائع من قومهم! . . وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها! . . فلقد علمتنا التجارب أن المقلدين ، من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها . . وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم؟!»[1] .

---

(١) المصدر السابق . ص ١٩٥ ـ ١٩٧ .

فالتمدن : نبت طبيعي ، ونمو طبيعي ، بينه وبين مقدماته
ورونه وملابساته علائق تجعل له تمايزاً عن نظيره الذي تختلف
نده المقدمات والمواريث والملابسات . . الأمر الذي يمايز بين
حضارات والشخصيات القومية لأمم هذه الحضارات . .

وهذا التمايز الحضاري إذا كان يعني الرفض « للتبعية »
حضارية ، والانسحاق أمام عدوانية الحضارة الغربية وغزوها
كري واستعلائها . . فإنه لا يعني الانغلاق الرافض لاستلهام
سادر القوة التي تدعم وتنمي النهضة المستقلة والمتميزة
ضارتنا العربية الاسلامية . . فرفض « التبعية » لا بد وأن يقترن
ض التقوقع والعزلة والانغلاق . . فالتعددية الحضارية حقيقة من
ائق الواقع . . واكتفاء حضارة ما بذاتها عن غيرها من
ضارات هو خرافة من الخرافات ! . .

* * *

على هذا النحو فكر تيار الجامعة الاسلامية . . وبهذا النهج
غ معالم مشروع للنهضة الحضارية المستقلة ، لا زال بانتظار
يطوره . . ويضعه في الممارسة والتطبيق ! .

- ٢ -
الموروث . . والوافد



تاريخ القضية

القضية المثارة هي : قضية « الموروث » و« الوافد » . . أو « الوافد » و« الموروث ». وفي اعتقادي أن إثارة هذه القضية ، والجدل الذي يدور حولها هو أمر طبيعي ، ليس فيه أي افتعال . .

فمن الأمور الطبيعية ، بل والضرورية ، بالنسبة لأية أمة أو حضارة أن تثار هذه القضية ، ويدور الجدل حول العلاقة ما بين « الوافد » و« الموروث »، وحول الموقف من « الموروث » أو الموقف من « الوافد » ، عندما يكون هناك احتكاك بين حضارتين ، بين ثقافتين ، بين منظومتين فكريتين تنتسب كل منهما لأمة من الأمم . ويقوم بينهما تمايز أو خلاف في الروح أو السمات والقسمات . .

وهذه القضية ـ قضية العلاقة بين « الموروث » و« الوافد » ـ بالنسبة لنا ، ليست حديثة الظهور ، وليس صحيحاً أنها بنت اليوم . كما أنها ليست مفتعلة ـ كما أشرت ـ بأي حال من

الأحوال . . قد يكون الصوت ـ الذي يثيرها ـ يعلو الآن بالجدل حولها أكثر من ذي قبل . . لكننا إذا رجعنا لنراجع صفحات مضت في تاريخنا الحديث ، ونظرنا إلى « خريطة » حياتنا الفكرية في بداية الغزوة الاستعمارية الحديثة للشرق ، ولوطن العروبة وعالم الاسلام على وجه التحديد ، فسنجد أن هذه القضية قد أثيرت بصدد الموقف من الفكرية التي جاءت إلينا في ركاب هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة . . فمنذ غزوة بونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] وحملته على مصر سنة ١٧٩٨م كانت البعثة العلمية ، وكانت المطبعة ، وكان الفكر مجسداً « للوافد » الذي جاء مع هذه الحملة وأيضاً كان ذلك « الوافد » الفكري مميزاً لهذه الغزوة الحديثة عن سابقتها الصليبية التي داهمتنا في العصور الوسطى [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] فالصليبيون كانوا فرسان إقطاع ، همج ، لا يملكون سوى القوة الغاشمة ، وكما يقول أحد المؤرخين العرب الذين عاصروا تلك الغزوة الصليبية ، هو أسامة بن منقذ [٤٨٨ ـ ٥٨٤هـ ١٠٩٥ ـ ١١٨٨م] فإن الفرسان الصليبيين هؤلاء كانوا « كالبهائم ، ليست لهم « فضيلة » إلا القتال! » . . فبتعبير ذلك المؤرخ كانوا فرسان إقطاع ، جاءوا من مجتمعات مظلمة ومتخلفة ، بالمقاييس الحضارية . . وبالتالي فلقد تعلموا من الشرق الإسلامي ، ولم يكن لديهم فكر يغزون به هذا الشرق ، لقد أقاموا كيانات استيطانية صليبية لاتينية في قلب وطن الأمة العربية الاسلامية ، لكنهم لم تكن لديهم إضافة فكرية لأن أوربا ، في ذلك التاريخ ، كانت متخلفة ، تعيش عصورها

الوسطى والمظلمة ، على حين كان الشرق العربي الاسلامي هو المتقدم حضارياً . .

ونحن نعلم أن هذا الاحتكاك العنيف بين الغزاة الصليبيين وبين الشرق المتحضر نسبياً ، في ذلك التاريخ ، كان من مثيرات ومؤثرات وأسباب النهضة الأوربية فيما بعد ، لأنهم قد تعلموا من الشرق أثناء هذا الاحتكاك العنيف . . كما تعلموا من احتكاكهم السلمي والعنيف بحضارتنا على أرض الأندلس .

أما الغزوة الاستعمارية الحديثة ، التي تعرض لها وطن العروبة وعالم الاسلام ، فلقد تميزت عن الغزوة الصليبية ، لأنها جاءت ، ليس فقط بالمدفع والبارود والجيش المنظم ، تنظيماً حديثاً ، وليس فقط بالشركات الرأسمالية والنهب الاقتصادي الاستعماري المنظم ، وإنما جاءت ، أيضاً ، بفكرية الحضارة الغربية ، فكرية عصر النهضة الأوربية ، هذه الفكرية التي تألقت وأبدعت في مختلف مجالات العلوم والفنون كانت هذه ميزة تميزت بها هذه الغزوة الحديثة ، ومن هنا كانت حملة بونابرت شاملة للقوة وللفكر معاً ، وكذلك كان حال كل الحملات الاستعمارية التي جاءت بعد ذلك التاريخ لتخضع الشرق لهيمنة الاستعمار الحديث .

لقد نشأ منذ ذلك التاريخ ما يسمى بفكرية « التغريب » وبتيار « التغريب » و« المتغربين » . . ذلك أن الحضارة الغربية ، على عكس الحضارة العربية الاسلامية ، قد نهجت نهجاً سيئاً ،

استعلائياً وعدوانياً في كل المجتمعات التي غزتها . . فنحن نعلم أن العرب المسلمين ، عندما فتحوا البلاد التي فتحوها ، قد احتضنوا المواريث الحضارية القديمة. . . فالمواريث التي كانت قد هجرت وماتت أحيوها ، ودخلت هذه المواريث ـ وبالتحديد : الصالح للعطاء من هذه المواريث ـ في نسيج الحضارة العربية الاسلامية الجديدة ، أما الحضارة الأوربية الغازية ، فلقد مارست سياسة النسخ والمسخ والتشويه مع المواريث الحضارية للشعوب والبلاد التي فتحتها هذه الغزوات الاستعمارية الحديثة . . . فكما صنعوا مع الهنود الحمر ، أرادوا وحاولوا أن يصنعوا مع المواريث الحضارية للشعوب الافريقية ، وفي آسيا ، وفي كل البلاد التي غزوها فهذه « الفكرية التغريبية » أرادت لهذه الشعوب المستعمرة أن تتحول لا إلى الحضارة الغربية ، كما زعموا ويزعمون ، فهم لا يمكنون هذه الشعوب من أن تصبح مثلهم في الحضارة ، بامتلاك مصادر القوة في الحضارة الغربية ـ وهي كثيرة وغنية ـ **وإنما أرادوا أن تتحول هذه الأمم وهذه الشعوب إلى « هامش حضاري». . مجرد « هامش حضاري ». . إلى موقع « التبعية الحضارية » للمركز الأوربي**، وكان الهدف، ليس تحضر هذه البلاد ونهضتها ، لأن الاستعمار ، بداهة ، ليس حريصاً على هذا الهدف وهذه الغاية ، وإنما كان الهدف هو أن يصبح العقل عندنا تابعاً « للمركز الأوربي » والغربي ، لأن هذا هو السبيل الأمثل والأضمن لتأييد ، بل وتأبيد الغزوة الاستعمارية والنهب الاستعماري ، وهذا هو الضمان الرئيسي كي تتحول إلى « هامش

أمني » يحمي أمن « المركز الأوربي » والغربي! . . فكان سعي هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة ليس فقط إلى أن نصبح قواعد لأمن الغرب ، وليس فقط إلى أن نصبح سوقاً ويداً عاملة رخيصة لاحتكارات الغرب الرأسمالية ، وإنما ، أيضاً ، وحتى يدوم ويتأبد هذا ، لا بد من تكبيل هذا العقل في الوطن العربي والاسلامي بقيود التبعية الفكرية . . لقد وقفوا موقف العداء من « خلافنا الحضاري » لهم ، و« اختلافنا الحضاري » عنهم . . وكل ما منّوا علينا به من حرية في «الخلاف» و«الاختلاف » هو أن نختلف خلافهم وننقسم انقسامهم . . فتكون « محافظتنا » هي « محافظتهم » ، و« ليبراليتنا . . هي« ليبراليتهم » و« تقدميتنا » هي « تقدميتهم » و« شموليتنا» هي «شموليتهم» . . فلا نخرج عن إطار «التبعية . والاحتواء »! . . لقد كان هذا هو « الخيار » - إن جاز أن يسمى خيار - الذي سمحوا به لعقلنا . . حتى لقد أصبحت التبعية للغرب هدفاً يسعى إليه المستضعفون ، وصارت « قيداً - لذيذا ! » تجري وراءه النخبة والصفوة ، لتجعل وطننا قطعة من أوربا ، ولتجعل هذه الأمة أوربية العقل والحياة، نأكل كما يأكل الأوربيون ، ونلبس كما يلبسون ، ونفكر كما يفكرون ، ونصيب كما يصيبون ، ونخطيء كما يخطئون ، ونعيش كما يعيشون! . .

ولقد بلغ الحال ، في إطار هذه التبعية الفكرية التي فرضت علينا ، إلى الحد الذي أصبح فيه كل رجال الفكر في بلادنا لا يستطيعون أن يؤثروا في الأمة - وفي تحديد أذواقها وأزيائها مثلاً تأثير صاحب دار أزياء في مركز من مراكز الغرب؟! . . وقس على

ذلك : مدارس الفكر ، ومذاهب وأدوات الابداع . . فإذا كانت عندهم « وجودية » . . نجتهد ، فنجهد الحقيقة لنفتعل عندنا « وجودية »؟! وإذا كان عندهم « اغتراب » . . نفتعل عندنا « اغتراباً »؟! وإذا كانت عندهم « بنيوية » . . فلا بد أن تكون لنا « بنيوية»؟! . . **وهكذا نصبح ، بالفعل ، راقصين على الأنغام الفكرية الأوربية ، دونما اعتبار للبديهيات التي تقول إن لكل أمة نمطاً في التطور ، ولكل حضارة عريقة وغنية وحية مزاجاً في التطور ، وأن الفكرية ـ [الأيديولوجية] ـ لا بد أن تطبع بطابع الواقع الذي تعيشه الأمة وتتفاعل فيه .**

كان مطلوباً إلغاء هذا المنطق البديهي ، لتصبح التبعية هدفاً يسعى إليه المستضعفون في الأرض ، من شعوب الأمم التي ابتليت بهيمنة الاستعمار الحديث ، وذلك كي تتأبد تبعية هذه الشعوب وتترسخ في مختلف الميادين وشتى المجالات ! . .

* * *

تيارات ثلاث

أمام هذه الهجمة « التغريبية » الاستعمارية ، ماذا حدث لحياتنا الفكرية ؟ وكيف استقبل مفكرونا ومثقفونا هذا « الوافد » التغريبي »؟ . . لقد تشكلت الصورة على النحو التالي :

كانت لدينا مؤسسات « فكرية ـ تعليمية ـ تهذيبية » تقليدية ـ من مثل : الأزهر . . والزيتونة . . والقرويين . . والطرق الصوفية . . الخ ـ . . وأمام هذه الهجمة التغريبية ، جفلت هذه المؤسسات وانزعجت ، فانكفأت على ذاتها ، وانغلقت على موروثها ، مخافة الزوال والذوبان ، الذي هو خطر من مخاطر « التغريب » . .

وللأسف الشديد ، فإن « الذات » التي انكفأت ، عليها هذه المؤسسات التقليدية ، لم تكن هي الذاتية الحقيقية والنقية والحية للحضارة العربية الإسلامية العقلانية المستنيرة ، التي تألقت في عصر ازدهار هذه الحضارة ، وإنما كانت ذاتية فكرية

عصـورنا الـوسطى . . عصـور التراجـع والجمود التي تـوقف فيها الابداع الذاتي والتفاعل الحضاري تحت تسلط المماليك وسلطان آل عثمان ففي ظل هذا التسلط ذبلت عقلانية الفكر الاسلامي ، وذبلت استنارة هذا الفكر، وتوقف الاجتهاد والخلق والابداع في ظل هذه القرون التي قاربت السبعة [٦٤٨ ـ ١٣٤٢هـ ١٢٥٠ ـ ١٩٢٤م]. . . وأخـذنا نجتـر « الحـواشي » و« المتـون » ، التي نظمت نظماً ركيكاً . وغرقنا في «الحكاكات» اللفظية والمحسنات الشكلية التي كـونت المساحـة الأعـظم من الـذاتيـة الفكـريـة لهـذه المؤسسات ! .

لقد انكفأت هذه المؤسسات التقليدية على الذات خوفاً من خـطر التغريب ، ورفضت أن تستعين بتـراثها الأصيـل ، تـراثهـا العقلاني لمواجهة هذا الخطر الوافد . . ونحن نقرأ في أدبيات تلك الفترة كيف أن الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] قـد نـاضـل طـويـلاً من أجـل أن تـدخـل علوم مثـل « الحســاب » و« التـاريـخ » « والجغـرافيـا » في منـاهـج الأزهـر التعليميـة . . ولقد سمى « الجغـرافيا » بـاسمها القـديم [تقـويم البلدان] كي يألفوها فيقبلوها ؟! . . ومع ذلك وقفوا ضده واعتبروا محـاولاته هـذه ثورة جـامحة ، بـل وحسبـوهـا « تغـريبـاً » يجب رفضـه . . ودارت بين الـرجـل وبين شيـوخ الأزهـر في عصـره مناقشات ، بل ومعارك ، مات الرجل بسببها حسرة وكمداً ؟! .

ونحن نقرأ ، في أدبيات تلك الفترة ، كيف أن شيخاً جليلاً

هو الشيخ عليش [١٢١٧ ـ ١٢٩٩هـ ١٨٠٢ ـ ١٨٨٢م] عندما سمع أن الشيخ السنوسي [١٢٠٢ ـ ١٢٧٦هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م] يدعو إلى فتح باب الاجتهاد ، حمل عصاه « الشهيرة ـ الغليظة » وأخذ يبحث عن الشيخ السنوسي ليؤدبه؟!..

ونعرف أن نفس الشيخ عليش هذا عندما علم أن كلمة « المعتزلة » قد ذكرت في صحن الأزهر ، على لسان محمد عبده ، الذي كان لا يزال طالباً بالأزهر ، يتتلمذ على جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] بمنزله في « خان الخليلي » ويذهب إلى صحن الأزهر فيعيد على نجباء « المجاورين » ما سمع من شروح الأفغاني على أمهات كتب « علم الكلام » الاسلامي.. عندما علم الشيخ عليش أن كلمة « المعتزلة » قد ذكرت بصحن الأزهر ، هم أن يهشم عظام محمد عبده بعكازه الغليظ!..

كان هذا هو مستوى المؤسسات الفكرية التقليدية ، سواء أكانت تعليمية.. أو صوفية تحول لديها التصوف من تصوف « عقلاني ـ فلسفي » أو « تهذيبي ـ شرعي » إلى شعوذة وحيل واحتيال وبدع وخرافات!..

لقد انكفأت هذه المؤسسات على أسوأ ما في ذاتيتنا الفكرية.. انكفأت على السلبي والجامد والمتخلف ، ورفضت ، في جمود شديد ، ليس « ما جاء من الغرب كوافد » فقط ، وإنما رفضت كذلك ، جوهر الموروث العربي

الاسلامي ، كما تألق قبل عصر الركاكة والجمود؟! . .

ولقد كان تراث هذه المؤسسات الفكرية، الذي كون فكريتها في ذلك التاريخ ، لا يبعث على السرور أو الاحترام . . وكان مستحيلاً على هذا التراث أن ينافس « الوافد » الغربي ، الذي يمثل إبداع عصر النهضة والثورة الصناعية . . فلم تكن تلك المؤسسات، في ذلك التاريخ ، تعرف حقيقة « موروث » هذه الأمة . . بل إن الذين بدأوا تحقيق النصوص القديمة ، والذين بدأوا يكتبون الدراسات حول موروثنا الحضاري كانوا هم المستشرقين . . وكان موقف مؤسساتنا التقليدية من جوهر تراثنا كمثل موقف السفهاء الذين ورثوا كنوزاً غنية لكنهم لا يعرفون قيمتها ولا قدرها! . . والذين يقرأون للمستشرق الروسي كراتشكوفسكي [١٨٨٣ - ١٩٥١م] ما كتبه عن [المخطوطات العربية] يصيبهم الأسى والألم . . إنه يحكي كيف كان الشيخ المؤتمن على مخطوطات مكتبة الأزهر ، جاهلاً بقيمة هذه المخطوطات ، بل وعدواً - بسبب هذا الجهل - لتراث أمته . . فلقد احتال عليه كراتشكوفسكي ، فحدثه عن ما في مخطوط إحدى رسائل أبي العلاء المعري [٣٦٣ - ٤٤٩هـ ٩٧٣ - ١٠٥٧م] من زندقة وإلحاد ، فما كان من هذا الأمين - أمين المكتبة - إلا أن جمع « سلة » من مخطوطات المعري وألح على كراتشكوفسكي أن يأخذها ، لتطهّر مكتبة الأزهر الشريف مما بهذه المخطوطات من زندقة وإلحاد؟! . .

كـان هـذا هـو موقف هـذه المؤسسـات التقليـديـة من « الموروث » الحقيقي للأمة . . لم تكن تعرف حقيقة التراث في منابعه الجـوهريـة والأصيلة ، لأنها كـانت تعيش على زاد ضحل ومـظلم ومتخلف ، عندمـا يوضـع في كفـة ، ويـوضـع « وافـد » الحضارة الغربية في الكفة الأخرى ، تصبح المعركة والمنـافسة ـ وهكـذا أصبحت ـ غير متكـافئـة بين هـذا « الـوافـد » وذلـك « الموروث »! والذي حدث ، عند هذه المنافسة وهذه المقارنة أن الصفوة والنخبة الحديثة ، والراغبة في « الحداثة والتحديث »، قد أدارت ظهرها لهذا « الموروث » **لانها ـ وبكل الاخلاص للوطن ـ قد رأت أن السبيل إلى القوة والتحضر والتطور كامن في أن نصبح غرباً كالغربيين في كل شيء!** . . وتلك كانت بداية ، نشـأة التيار الذي نسـميه « تيار التغريب » في واقعنا الحضاري .

لقد نشأ هذا « التيار التغـريبي »، نشاة طبيعيـة ، بعد هـذه الهجمة الاستعمارية الحديثة ، فتكونت الصفوة والنخبة الحديثة ، التي رأت أن ما يسمى بـ« الموروث » ، أو « الصورة المملوكية ـ العثمانية لـلإسلام » لا تبعث على السـرور ، وليست جديـرة ولا مؤهلة لأن تقيـل هذه الأمـة من عثرتهـا ، وتنهض بها كي تـواجه الأوربيين . . فقـالت هذه النخبـة : إن السبيل لمـواجهة أوربـا ، والطريق للقوة اللازمة لنا كي نتحرر من الاستعمار هو أن نستعيـر الحضارة الغربية . . فكان أن دعت هـذه النخبة إلى مـا دعا إليـه الـدكتـور طـه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] في كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] . . دعت إلى أن نفكر كما يفكر

الأوربيون ، ونحيا كما يحيون . . نصيب كما يصيبون ، بل ونخطيء كما يخطئون ؟! ، . إلى آخر مقولات تيار التغريب .

وبالطبع ، فإذا كان هناك عذر للذين تغربوا في ذلك التاريخ ، فلقد كانت هناك فضيلة لتلك المؤسسات التقليدية لا يصبح لنا أن ننكرها أو نغفل عن إبرازها ، وهي أن الحفاظ على الذاتية ، حتى في صورتها المتخلفة ، كان أفضل من كارثة الذوبان النهائي في الحضارة الغازية ، ومن تسليم القلاع جميعها وفتح كل المعاقل . أمام غزوة « التغريب » ! . .

وهنا لا بد وأن نتذكر ونذكر ما حدث في الجزائر ، خلال معركتها ضد الفرنسة والمسخ القومي الذي أراد به المستعمرون الفرنسيون أن تتحول الجزائر العربية المسلمة إلى الامتداد الفرنسي اللاتيني لفرنسا الأم عبر البحر الأبيض المتوسط ، وعلى الشاطيء الإفريقي . . ففي معركة الجزائر هذه ، دفاعاً عن هويتها وموروثها الحضاري ضد الفرنسة ، وجدنا هذا الشعب البطل ، عندما أحدقت به المخاطر ، وأصبح ظهره للحائط ، ونزعت أسلحته ! . . وجدناه يقاوم ويحارب أحياناً حتى بالأسلحة الغريبة . . فالجزائر قد تسلحت وحاربت حتى « بالجهل والأمية »؟! . . من يتصور أن يصبح « الجهل » وتصبح « الأمية » أسلحة يدافع بها الشعب عن « ذاته » ضد الغزاة؟! . . لقد حدث هذا ذلك أن الذين تعلموا وتثقفوا قد أصبحوا فرنسيين ، يندمجون وينتمون إلى الوطن الأم (فرنسا) أو يسجنون في سجن

الفـرنسية وثقـافتها!. . أمـا الذين ظلوا على جهلهم وأميتهم فهم الـذين احتفظوا بهـويتهـم ، وبموروثهم الحضـاري ، وبـذاتيتهم المتميزة عن المسخ المشوه الذي أراده الاستعمار. . ولقد استمر ذلك إلى أن جاءت [جماعة العلماء المسلمين في الجزائر] بقيادة شيخها عبـد الحميـد بن بـاديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] فأبرزت الوجه المشرق للتراث ، وصنعت جيل الرجال الذين ولدت من أحضانهم ومن أحشائهم [جبهة التحرير الوطني الجزائرية]، التي رفعت السلاح وحـررت الجزائر، وأعـادتها إلى أحضان العروبة والاسلام ، بعد احتلال قرن وثلث القرن! .

إذاً ، في ظل هذه الهجمة التغريبيـة ، كان الانكفـاء على الـذات ، رغم سلبيـاتـه ، من حيث عجـزه عن تقـديم البـديـل الحضاري القادر ، بجدارة ، على منافسة الحضارة الغربية وفكرية التغـريب ـ وهـذه هي السلبيـة الكبـرى للجمـود وأهله. . فهم بجمودهم قد عجزوا عن أن يقدموا البديل الصالـح لنهضة الأمـة أمام تحدي التغريب ـ ولكن هذا الجمـود ، وهذا الانكفـاء على الـذات ، رغم تخلفـه ، ورغم أنـه لا يمثـل جـوهـر العقـلانيـة الاسلامية الحقيقية ، إلا أنه احتفظ بالموروث حتى يأتي بعد ذلك جيـل يـطور هـذا المـوروث ، ويتجـاوز تخلفـه ، وينفض عنـه الغبار ، ويأتي ـ بالاجتهاد والتجـديد ـ فيبعث ويبلور المشـروع الحضاري الذي تواصل به الأمة مسيرتها الحضارية المتميزة . .

إذاً ، نستطيع أن نقول : إن هذا الاحتكاك ، الذي بدأ مع

الغـزوة الأوربية الحـديثة ، قـد ولّد في واقعنـا الفكـري تيـارات ثلاثة :

● تيار الجمود . . الذي أشرنا إليه . .

● وتيار التغريب . . الذي ظن واعتقد ـ مخلصاً ـ أن سبيل القوة هو أن نتغرب ، ونصبح ، في الحضارة غربيين . .

● ثم التيار الوسطي . . التيار التجديدي ، الذي نسميه تيار « الجامعة الاسلامية » ، أو تيار « التجديد الديني »، الذي ارتاده جمـال الـدين الأفغـاني ، والـذي تكـونت من حـولـه صفـوة من المفكرين في مصر وفي المشرق وفي المغرب ، قادت الكثير من الحركات الوطنية ، وقادت الكثير من حـركات التجـديد الفكـرية والدينية في وطن العروبة وعالم الاسلام . .

لقـد رفض هـذا التيـار التجـديـدي الـوقـوف عند جمـود الجـامدين ، وبشـر بضرورة تجـاوز فكريـة العصـور الـوسـطى والمظلمة ، والعودة إلى المنابع الجوهرية والنقية . .

وهذه العودة إلى المنابع هي التي تسمى بـ[السلفية] . . وهـذا المصـطلح قـد أصبـح ـ لـلأسف الشـديـد ـ واحـداً من المصطلحات « سيئة السمعة ! » لدى كثير من المثقفين المستنيرين والتقدميين ، في التيار العلماني . . فهم يعتقدون أن « السلفيـة » مرادف للبدائية والتخلف والمحافظة والجمود . . الـخ . . الخ . . ونحن نعتقد أن هذا الفهم الخـاطيء والمغلوط يغفل عن حقيقة

أن « السلفيـة » ليست تياراً واحـداً في الفكر الاسـلامي . . وعن حقيقة أن كل حركات التجديد والاصلاح في إطار وطن العروبة وعالـم الاسلام قد بدأت جميعاً كحركات ودعوات « سلفيـة » . . ذلـك أنه في الـدين ، في الثوابت ، في الأصـول ، في العقائـد والشعـائر ، في الشؤون المتعلقـة بالغيب والآخـرة ، لا بـد من العودة إلى المنابع . . وهذه العودة إلى المنابع إذا اكتفت بالوقوف عند « النصوص » ، ولم تنـظر فيها بـالعقل المستنيـر وبراهينـه ، كانت « سلفية نصوصية » ، تورث أصحابها المحافظة والجمود ، فـإذا ما نـظر هؤلاء « السلفيون النصـوصيـون » في « المتغيـرات الـدنيويـة » بمنهجهم هذا ، السلفي النصـوصي ، كانـوا ولا بـد نموذجاً للجمود الباعث على النفور ، بل والرثاء! . .

أمـا إذا عنت « السلفية » : العـودة للمنابـع ، والنظر فيهـا بـالعقـل المستنيـر ، والاقتصـار فيهـا على الثـوابت والأصـول والعقـائد ، ثم المـزاوجة بينهـا وبين « المستقبليـة » فيمـا يتعلق « بالمتغيرات الدنيوية » ، كانت النهج الامثل « للتجديد » . . لأنها بالعودة إلى المنابع تمثل الثورة التجديدية ضد البدع والخرافات والزوائد التي رانت على الثوابت والأصول ، وهي بـذلك تسهم في تحـرير العقـل من الأثقال عنـدما تخفف عنـه أحمال عصـور الانحـطاط . . ثم إنهـا ، فيمـا يتعلق بعمـران الأرض وتـطور المجتمع والمشروع الحضـاري المنشود لإنهـاض الأمة ، وكـل شؤون الـدنيا ، تبـدع في إطار الكليـات الدينيـة ، وفق مصلحة

مجموع الأمة ، التي هي في فلسفة الاسلام التشريعية : « نص من النصوص »! . . ولذلك ، فلقد غلب الرأي القائل بأنه إذا تعارضت « المصلحة » مع « النص » وجب تقديم « المصلحة » على « النص » ، لأن « المصلحة » بنص الحديث النبوي الشريف . . حديث : « لا ضرر ولا ضرار » تعتبر من « النصوص » . . فعندما نقدم « المصلحة » على « النص » فنحن نقدم « نصاً » على « نص » آخر . . ولسنا نخرج بذلك عن التزام ثوابت الدين وأحكامه! . .

هذا هو نهج مدرسة « التجديد الديني » الحديث ، فيما يتعلق بالثوابت ، فيما يتعلق بالطابع الحضاري الذي يميز هذه الأمة . . لقد قالوا : إننا نتميز عن الحضارة الغربية ، ولا بد أن نحرص على هذا التميز ، وهذا التميز ليس انغلاقاً ولا عداء حضارياً . . أما فيما يتعلق بشؤون الدنيا ، بالعلوم الطبيعية ، وبتطبيقات هذه العلوم الطبيعية ، وبكل العلوم التي تؤسس حقائقها على قوانين . . وأيضاً بكل ما يدخل في « عوامل القوة » اللازمة لتقوية الذاتية الحضارية المتميزة ، فلا بد أن ننفتح فيها على مختلف الحضارات ، نستلهم منها ونتمثل ، ونتبادل الأخذ والعطاء . . .

ولقد كانت مدرسة « التجديد الديني »، بهذا المنهج وهذه الدعوة ، الممثل الحقيقي لموقف حضارتنا العربية الاسلامية التاريخي في هذا الموضوع . . فالعرب والمسلمون ، قديماً ، قد

انفتحوا على الحضارة اليونانية والفارسية والهندية ، لكنهم لم يتحولوا إلى فرس أو يونان أو هنود ، وإنما هم تمثلوا ما زاد سماتهم وخصوصياتهم تميزاً ، وهم قد صنعوا ذلك من موقع صاحب الشخصية المستقلة ، من موقع صاحب الجسد الصحيح والصحي ، فكانت لهم قدرة التمثل والاستلهام ، دونما تبعية أو مسخ أو تشويه . .

لقد ترجموا فلسفة اليونان ، لكنهم لم يستوردوها ولم يتبنوا مقولاتها لتكون التعبير عن روحهم الحضاري وتصوراتهم للكون والوجود ، وإنما قرأوا هذه المقولات الفلسفية اليونانية قراءة اسلامية حتى لقد أصبحت « فلسفة إسلامية » ؟! . . أما الذين قلدوا ـ من فلاسفتنا ـ مقولات الفلسفة اليونانية فلقد ظلوا مجرد هامش في التراث الفكري الاسلامي . . بل لقد كانت فلسفة هذه الأمة الحقيقية ، ومظهر عبقريتها وإبداعها في ميدان الفلسفة ، هو « علم الكلام الاسلامي » ، الذي جسد وسطية الحضارة الاسلامية عندما وازن ما بين « العقل » و« النقل » ، فتأسست فلسفته على قواعد « الدين »! . . .

إذاً ، هذه الأمة لها طابع حضاري متميز ، وإلى هذا دعا تيار « التجديد الديني » . . دعا إلى أن نحتفظ لهذه الأمة بهذه الهوية الحضارية المتميزة ، ودعا إلى أن ننفتح على علوم الحضارة الغربية ورائد هذا التيار : جمال الدين الأفغاني ، هو القائل : « إن العلم أمه وأبوه : الدليل » . . فأينما يكون العلم

مؤسساً على الدليل فليس له وطن ولا جنس ولا حدود ولا قوميات. . أما في الأنسانيات ، أما في الفلسفة والثقافة ، أما فيما تتمايز فيه الحضارات العريقة المتمايزة ، فلا بد من الاحتفاظ بالهوية . .

هنا كانت عبقرية هذا التيار الوسطي ، الذي رفض « جمود الجامدين » ، والذي رفض ، أيضاً « تغريب المتغربين ». . ومن يقرأ ما كتبه الامام محمد عبده في الصفحات التي تحدث فيها عن « سيرته الذاتية » يجده يقول : « لقد نشأت كواحد من أبناء الطبقة المتوسطة في مصر ، وتعلمت ما كان الناس يتعلمون ، ورأيت جمهور الأمة وقد استقطب إلى تيارين : طلاب فنون الدنيا. . وطلاب علوم الدين ». . ثم ينتقد الفريقين فلم يكن الأولون سالكين طريق التحضر الصحيح. . ولم يكن الأخيرون سالكين طريق الدين القويم!. . ثم يقول : ولقد اتخذت بينهما موقفاً وسطاً ، وثالثاً ، يجمع ما في الموقفين من حق صحيح ! .

ومن يقرأ كلمات الأفغاني ويفقه سيرته ، في كل المواقع التي ناضل فيها ، يجد أنه كان واعياً بموقعه الوسطي بين تياري « الجمود » و« التغريب ». . وما كتبه عن المدارس « الحديثة » التي أنشأها محمد علي باشا [١١٨٤ - ١٢٩٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م]. . وتلك التي انشأتها الدولة العثمانية ، وما قام في الشرق الاسلامي من « تحديث » على النمط الغربي ، يجد مصداق هذا الذي نقول. . لقد كتب الأفغاني مسفهاً أحلام الذين

ظنوا أن « الحداثة الغربية » صالحة، بتعميم وإطلاق ، لتكون « الحداثة العربية الاسلامية » فقال : « . . لقد شيد العثمانيون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدناً »، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني! . . . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟! . . . نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية ـ [القومية] ـ وما شاكلها ، وسموا أنفسهم ، زعماء الحرية؟! . . ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن ، وبدلوا هيئآت المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون : وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم ، فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم! . . وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ، وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ! . . لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها . . وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم؟! . . » .

تلك كلمات جمال الدين الأفغاني ، شاهدة على أن مشكلة الموقف من « الموروث» ومن « الوافد » قديمة قدم الهجمة

التغريبية الاستعمارية التي دهمت بلادنا مع مطلع العصر الحديث . . وشاهدة كذلك ، على أن حركتنا الفكرية قد انقسمت إزاء هذه القضية إلى تيارات ثلاث :

● **أهل الجمود** . . الذين انكفأوا على الذات ، التي لم تكن تمثل الوجه الحقيقي والمشرق للموروث . ورفضوا أي تفاعل أو انفتاح على الوافد الأوربي الجديد . .

● **والمتغربون** . . الذين دعاهم نفورهم من صورة الموروث ، كما تجسدت في فكرية المؤسسات التقليدية ، إلى نبذ هذا الموروث ، والسعي إلى تبني « النموذج الغربي في التحديث » . .

● **وتيار التجديد الديني** . . الذي رام تجديد الدنيا عن طريق تجديد الدين ، ولم يقف بحياد بين « الموروث » و« الوافد » . . وإنما انطلق من الالتزام بالأصول الجوهرية والنقية لموروث الأمة ، وسعى إلى دعم استقلالها الحضاري بما في الحضارة الغربية من عوامل القوة والتقدم التي أبدعها الأوربيون ! . .

الجديد في حقبة السبعينات

لكننا نسأل ـ ذات السؤال الذي سأله ويسأله الكثيرون ـ :

● لماذا اشتد وعلا الصوت بالحديث عن « الوافد » و« الموروث » بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م ؟!..

● ولماذا انتشرت ظاهرة العودة إلى « الموروث »، والتحصن به في حقبة السبعينات؟!..

● ولماذا اندفع الشعب ، في مصر ، بتلقائية وعفوية ينشد نشيد : « بلادي ، بلادي ، لك حبي وفؤادي »، في جنازة البطل الشهيد الفريق عبد المنعم رياض؟!..

● ولماذا اندفعت الشبيبة ، وليس الكهول ، إلى حيث الموسيقى العربية بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م ، وخلال حقبة السبعينات؟!..

● ومتى انخرطت أفواج الشبيبة في تنظيمات « الموروث » ـ [الاسلام] ـ ، تتحصن به كما لم تتحصن بشيء من قبل ، حتى بأشكاله ورموزه ـ [اللحية .. والجلباب .. والسواك!]؟!..

● بل ومتى أحس الناس بـالحاجـة إلى قيام « لجـان الدفـاع عن الثقافة القومية »؟! . .

متى حدث ذلك؟ . . ولماذا هذا الانتشار لظاهرة التحصن « بـالموروث » . . ؟ . . والجـدل الذي يعلو صـوتـه حـول قضيـة « الوافد » و« الموروث »؟! . .

لقد حدث ذلـك في مواجهـة هزيمـة سنة ١٩٦٧م . . التي أفـرزت ، ضمن ما أفـرزت ، تجريـد المشاريـع « التحـديثيـة ـ العلمانية » ـ [الوافدة] ـ من مصداقيتها وجدارتها بأنها من الأمـة من كبوتها الحضارية . . ومن ثم فلقد انعطفت جماهير الأمة إلى « المـوروث »، تتحصن به ، وتـدعو إلى سلوك سبيله لمـواجهة التحديات المفروضة على الأمة ، واثقة من فعـالياتـه اليوم ، لأن أسلافها قد انتصروا على تحديات الأمس بهذه الفعاليات ! . .

وحدث ذلك في مواجهة الهجمة « التغريبيـة » التي جاءت بهـا حقبة السبعينـات . . تلك الهجمـة التي تجسـدت في شيـوع التحلل الاقتصادي ، الذي أسموه « انفتاحاً» . . وشيوع « ثقافة » الشـرائـح الانفتـاحيـة . . وسيـادة قيم شـارعي « الشـواربي » و« الهرم » في أجهزة الإعلام؟! . . وشيوع الأنمـاط الاستهلاكيـة التي تستنفر غرائز النهم والشره والشهوة في الانسان؟! . .

لقد زحفت هذه القيم والظواهر التغريبية على واقعنا ، في حقبة السبعينات ، حتى كادت أن تطمس ضياء ذلك الشهاب الذي لمع في أفقنا في السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣م . . ولـذلك لم

يكن غـريباً أن يختلج ضمير الأمة وينتفض جسـدها بـاحثـاً عن الحماية في ترسانته الحضارية التاريخية ، ومتحصناً بمـوروثه ، ومترساً بالقلعة التي تترس بها أسلافه وهم يواجهون أمثـال هذه التحديات التي مرت بها هذه الأمة عبر تاريخها الطويل! . .

ذلـك هـو تفسيـر « الشيـوع » لهـذه الـظاهـرة ، في السبعينات. . لقد كان شيوعاً لظاهرة لم تولد في السبعينات؟! . .

قانون الاحتكاك الحضاري

إن سير أحداث القصة التي حدثت لأمتنا، عندما احتكت هذا الاحتكاك العنيف بالحضارة الغربية ، هو أشبه ما يكون ـ في اعتقادي ـ بـ« القانون » الذي يحكم ظاهرة « التماس الحضاري » و« اللقاء بين الحضارات »! . . سواء أكان هذا « التماس » سلمياً أو عنيفاً . .

فنحن إذا راجعنا تاريخ الحضارة الغربية ، عندما كانت في سبيلها إلى النهضة ، نراها قد احتكت بالحضارة العربية الاسلامية . . ونحن نعرف دور الأندلس ، والترجمة ، وإشعاع الجامعات في الأندلس . . إلى آخر القضة المعروفة التي يحفظها الجميع . .

ماذا كان موقف أوربا من هذه الحضارة المغايرة؟ . . ومن « الوافد » الذي تمثله؟! ما هو موقفها من حضارتنا ، عندما احتكت بها ، سلمياً وعنيفاً في الأندلس ، وعنيفاً في الحروب الصليبية ، وهي بسبيلها إلى النهوض ؟ . .

لقد انقسمت الحياة الفكرية الأوربية ، يومئذ ، إزاء « الوافد » العربي الاسلامي إلى تيارات ثلاث :

● وأول هذه التيارات ، يومئذ ، كان تيار « الكنيسة الكاثوليكية » . . الذي مثل « أهل المحافظة والرجعية والتخلف والجمود » . . لقد رفضوا أي انفتاح على الحضارة العربية الاسلامية ، رفضوا الدين الاسلامي وعقلانيته ، والقيم والأخلاق ، والفكر والثقافة جميعاً . . لقد أبصروا ما يحمله لهم الدين الاسلامي من « توحيد » بلغ أرقى صوره وأنقاها ، حتى ليرفض أي « حلول » أو « تجسيد » أو تعددية في ذات المعبود سبحانه ! ! . . الخ . . الخ . . ولذلك رفضوه ، ورفضوا الفلسفة الإسلامية ، بما فيها من عقلانية . . رفضوا فكرية الحضارة الاسلامية بكاملها ، ديناً وعلوماً وحضارة ، فلقد كانت علوم هذه الحضارة حاملة في ثناياها الروح الايمانية للإسلام ! . .

● وكان هناك تيار يسميه البعض بـ« الرشديين اللاتين » ، الذين ساروا مع ابن رشد ، وحاولوا التبشير بفكره . . وكان في هذا التيار قطاع متحمس لتبني الحضارة العربية الاسلامية ، يتسلح بـ« وافدها » هذا في حربه ضد الكنيسة وتيار الجمود ! . . ولقد ذهب هذا القطاع في حماسه للوافد العربي الاسلامي إلى الحد الذي جعله يتمنى أن تنطبع به أوربا انطباعاً كاملاً وتاماً . . فتمنوا أن يسود الاسلام وحضارته أوربا ، وكتب « أناتول فرانس » [١٨٤٤ - ١٩٢٤ م] معبراً عن نزوع هذا التيار يقول : « يا ليت

كان الاسلام قد بسط فكره على أوربا من الأندلس حتى تـركيا ، ويا ليت مآذن المساجد قد ارتفعت بدلاً من الكنـائس ، ويا ليتنـا سمعنـا ترتيـل القرآن بـدلاً من الأناجيـل . . إذا لأفلتت أوربا من عصورها المظلمة والقرون المتخلفة التي عاشتها »؟! . .

على هذا النحو فكـر وقدّر فـريق من مفكري أوربـا ، كان يرى أن الموقف الأمثل هو تبني هذا « الوافد » العربي الاسلامي ، ليكـون البـديـل الـذي ينهض بـأوربـا ويخـرجهـا من عصـورهـا المظلمة! . .

● أما التيار الأساسي ، الذي صنع عصر النهضة الأوربية ، وبنى دعائمه ، فلقد وقف إزاء الحضارة العربية الاسـلامية مـوقفاً متميزاً عن موقف « الرفض الكامل » الذي وقفته الكنيسة وأنصارها وعن مـوقف « التبني الكامـل » الذي وقفـه فريق من « الـرشديين اللا تين » . .

لقـد سعى هذا التيـار إلى حضارتنـا فوعـاها ، ثم استلهم وتمثل منها : « المنهج التجريبي » ، و« العلوم الطبيعية » . . أمـا قسمـة العقلانيـة الاسلاميـة ، فلقد ميـز هذا التيـار « عقلنا » عن « نقلنا »، فرفض ما في عقلانيتنا من « نقل » و« وحي إسـلامي » وأخذ ، فقط الانـحياز إلى « براهين العقل » . . فكأنه قد أخذ عنا عقلانيته اليونانية ، وترك ما تميزت به عقلانية الاسلام ! . .

لقـد كان المنهـج ، عند اليـونـان ، هـو : « القيـاس » ، فأصبح في حضارتنا هو : « الاستقراء . . والتجريب » . . وهذا هو

الـذي تمثله الأوربيون من حضـارتنا . . وتمثلوا معـه علوم هـذه الحضارة ، من طب وحساب وجبر وبصريات . . الخ . . الخ . . لكنهم تحفـظوا إزاء القيم والأخـلاقيـات والـروح الحضـاريـة للحضارة العربية الإسلامية . . أخذوا علوم العرب والمسلمين ، التي نسميهـا « العلوم الطبيعيـة »، وتطبيقات . . هذه العلوم ، ثم طوروها في عصر النهضة . . ولكنهم ، فيما يتعلق بالانسانيات تحفـظوا . . لقـد رفضـوا « التـوحيـد » ، وهـو جـوهـر فكـريـة - [ايديولـوجية] - هـذه الأمة ، ومعيـار نظرتهـا وتصورهـا لهذا الكـون . . ورفضـوا قيم حضـارتنـا . . ورفضـوا « الـوسـطيـة الاسلامية » ، التي هي الموقف المعتدل والمتوازن الذي ألفت به حضارتنا بين ما هو « دين » وبين ما هو « دنيا » . . وبين « الدنيا » و« الآخرة » . . وبين « الجسد » و« الروح » . . وبين « الحكمة » و« الشريعة » الخ . . وهذه « الـوسطيـة » هي المزاج الحضـاري والروح الحضارية التي تميزت بها حضارتنا العربية الاسلامية . .

لقـد أخـذوا الجـانب العلمي ، المؤسس على الحقـائق العلمية ، وطوروه . . أما فيما يتعلق بالعلوم الانسانية ، وبالقيم ، وبالاخلاقيات ، والطابـع الحضاري ، والـذي يشبه « البصمـة » و« المزاج الحضاري » و« الروح الحضاريـة » فلقد رفضـوها . . رفضها هذا التيار ، الذي أسس وبنى وصنـع وقامت على أكتـافه فكرية عصر النهضة في أوربا . .

هذه هي التيارات الأوربية الثلاث ، التي واجهت « الوافد »

العربي الاسلامي إبـان سعي أوربا إلى النهضـة . . والتي تقابـل تياراتنا الثلاث في موقفهـا من فكريـة « التغريب » . . تبلورت في الواقع الفكري الأوربي . . كما تبلورت في واقعنا الفكري ، إزاء ظاهرة الاحتكاك الحضاري بين الحضارتين ، لتشهد على عمـوم هذا القانون! . .

« فأهل الجمود » . . يرفضـون أي انفتاح على أي حضـارة من الحضـارات ، وينكفئـون على الـذات ، بصـرف النـظر عن صلاح وصلاحية هذه الذات! . .

وقوم ـ هـم « المتغربون » ـ يرون أن الصـلاح والأصلح هو أن نتحول إلى الجانب « المتحضر » في كل شيء ، ونصبح مثله في كل المجالات والميادين . .

والتيار الذي نسميه ـ في حالتنا ـ تيار « التجديد الديني » ، قد أبصر رواده أن لأمتهم مشروعاً حضارياً متميزاً ، يرتفـع على قـاعدتين ، ويـطير بجنـاحين : بالمميـزات الحضاريـة الخـاصـة وبـالعلوم والنـظم ، التي تمثـل « مصـادر القـوة » في الحضـارة الغربية . .

لقد قال جمال الدين الأفغاني ـ وهو رائد هذا التيار ـ : « إن العلم ابن الدليل »! . . وقال أيضاً : « ليس على الشرقي أن يبدأ من حيث انتهى الأوربيون ، وإنما لا بد من الاحتفاظ ببعض من الأصول التي كان عليها أسلافنا الشرقيون » . . فهنا موقف التمييز بين العلوم التي لا وطن لها ، ولا جنس ، ولا حدود تحد صلاحها

وصلاحيتها . . وبين الانسانيات والاجتماعيات والفلسفات والفكر الذي يحدد للانسان تصوراته للكون ، وكل ما يتميز بتميز الواقع الحضاري . .

وهذا التمايز الحضاري ـ كما أشرت ـ هو غير الانغلاق أو العداء الحضاري . .

وعلى سبيل المثال ، فنحن لو نظرنا إلى « خريطة » هذا الكوكب الذي نعيش عليه ، من الزاوية الحضارية . . هل يستطيع إنسان أن ينكر أن الصين حضارة متميزة ؟ . . وأن الهند حضارة متميزة؟ . . وأن الغرب حضارة متميزة؟ . . وأيضاً ، أن العرب والمسلمين حضارة متميزة؟ . . وأن التواصل الحضاري يجب أن يبرأ من « التبعية » و« الذوبان » . . وأن يبرأ كذلك من « العداء الحضاري » و« الخصومة » الحضارية . .

انظروا إلى ماوتسي تونج [١٨٩٣ ـ ١٩٧٦م] . . ألا يقولون إنه قد طوّع الماركسية ـ وهي « وافد » ـ للواقع الصيني ـ « الموروث »؟! . . فأصبحت شيئاً جديداً ، عندما يقارنه خصومه بالأصل الأوربي ، نراهم يتهمون « ماو » بالهرطقة والمراجعة والردة والانحراف ! . . لكننا نقول : هنا ، **كانت الصين ، بموروثها الفكري ، بوتقة حضارية متميزة ، وفي هذه البوتقة كان على « الوافد » أن يُطوَّع « للموروث » فيتشكل بشكل جديد . .** وهذا المثل الصيني يذكرنا بما أشرت إليه من **أن أسلافنا العرب المسلمين ، عندما ترجموا الفلسفة اليونانية ، فإنهم « قرأوها**

قراءة إسلامية ». . لقد تمثلوها من موقف المستقل وموقع الراشد الصحيح فانطبعت بروحهم الحضاري المتميز ومزاجهم الحضاري الخاص. . والذين يفقهون - ولا أقول : يقرأون ! - شروح ابن رشد على أعمال أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ق . م] - وهو الشارح الأكبر لأرسطو - يرون في إضافات ابن رشد وإبداعه ما يمثل ابن رشد المسلم ، والمتكلم ، والقاضي ، والفقيه . . هنا كانت الإضافة الممثلة لروحنا الحضاري حتى في الشروح الرشدية على أعمال أرسطو . . أما إذا أردنا ابن رشد في صورته الحقيقية المتكاملة ، فلا بد وأن نبحث عن ذلك في الأعمال التي أبدعها ، كمتكلم ومشرع وفقيه . .

هذا هو القانون الذي حكم احتكاكنا العنيف بفكرية «التغريب» ، عندما بدأت الغزوة الأوربية الحديثة . . وهو ذات القانون الذي حكم احتكاك الغرب بحضارتنا إبان نهضته . . ومن قبل ذلك حكم احتكاك العرب المسلمين ، أواخر العصر الأموي وفي العصر العباسي ، بالحضارات التي أخذوا منها وترجموا عنها . . حضارات اليونان والفرس والهنود .

ونحن عندما نتأمل في تجربة مصر تحت قيادة محمد علي باشا ، نجد ما يفيدنا في هذا الموضوع . . إن البعض منا عندما يفتح كتاب [البعثات العلمية في عهد محمد علي وعباس وسعيد] . وهو الكتاب الذي وضعه الأمير عمر طوسون [١٢٨٩ - ١٣٦٣هـ ١٨٧٢ - ١٩٤٤م] . . إن هذا البعض يردد كلاماً

شائعاً ـ ولكنه خاطيء ـ يقول : إن من سلبيات محمد علي أنه قد بعث المبعوثين الذين درسوا العلوم والفنون العملية من طب وزراعة وهندسة وعسكرية وقناطر وجسور واستحكامات وطباعة ونسج وغزل.. الخ.. الخ.. ولم يرسل مبعوثاً واحداً ليدرس إنسانيات الحضارة الأوربية وفلسفاتها... وحتى الذين برعوا في إبداع الفكر الانساني ، من هؤلاء المبعوثين ، فإن براعتهم هذه لم تكن وليدة ما درسوه في أوربا بهذا الميدان.. فعلي مبارك [١٢٣٩ ـ ١٣١١هـ ١٨٢٣ ـ ١٨٩٣م] الذي برع في التأريخ للمجتمع من خلال [الخطط] كانت دراسته في أوربا عن الاستحكامات العسكرية!.. والطهطاوي [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] قد تخصص هناك في ترجمة علوم الصنعة والفنون العملية !.. فكانت ريادته لهذا الميدان عودة وإعادة لريادة طلائع المترجمين العرب في العصر الأموي ، عندما بدأوا بترجمة علوم الصنعة منذ ثمانينات القرن الهجري الأول تحت قيادة خالد بن يزيد [٩٠هـ ٧٠٨م] ..

ونحن لا نرى في صنيع محمد علي باشا هذا سلبية ، كما يرى الآخرون.. فهو لم يقتصر ـ في البعثات إلى أوربا ـ على علوم الصناعة وأصولها العلمية ـ العلوم الطبيعية ـ لأنه كان متخلفاً ومصاباً بالثنائية والازدواجية ، كما يفهم البعض خطأً ، ويحكم ظلماً ، وإنما صنع ذلك لأنه كان واعياً « بالضروري » الذي هو في حاجة إليه ، وعارفاً بماهية « الوافد » الذي نحتاجه ، وماهية « الموروث » الذي لا بد من الاحتفاظ به.. لقد تعلم الطباعة من

أوربا ، وأقام المطبعة التي طبعت علوم أوربا العملية ، كما طبعت ذخائر « الموروث » ، في أول مشروع قومي لإحياء التراث في عصرنا الحديث !..

والطهطاوي .. الذي يجمع الجميع على أنه صاحب « المذهب الانساني »، وعلى أنه هو الذي أوقد سراج التنوير.. الخ.. الخ.. نقرأ في أعماله حديثاً طيباً عن الأوربيين ، باعتبار أهل التمدن والتقدم والصناعات ، الذين يجب علينا أن نأخذ عنهم هذه العلوم وتطبيقاتها. بلا عقد ولا حدود.. ولكننا نتعلم منه ، أيضاً ، أن مراده وهدفه من هذا الانفتاح الذي دعا إليه هو علوم « التمدن المدني » و« العلوم الحِكْمِيَّة العملية ».. وهو يكرر هذا ويلح عليه.. فإذا جاء إلى « الفلسفة الغربية » وتصور الأوربيين للكون ، وفلسفتهم في التشريع ، تحفظ على ذلك ، وحدثنا عن « أن لهم في الفلسفة حشوات ضلالية تخالف كل الكتب السماوية »!.. وهنا ، أيضاً ، نجد البعض يعيب ذلك على الطهطاوي ، لأنه يتمنى أن لو تبنى الرجل كل ما في أوربا ، حتى الفلسفة واللاهوت!.. ويرى هذا البعض في موقف الطهطاوي هذا « ثنائية.. وازدواجية.. وعجزاً عن تبني الحضارة الغربية ككل »!.. وأنا أقول : إن هذه هي العبقرية عند الطهطاوي ، وهذا هو الموقف الأصيل ، الذي تجسدت فيه « الأصالة والمعاصرة على النحو النافع والمطلوب.. لقد عرف الطهطاوي ما الذي نحتاجه من أوربا ، كي تقوى شخصيتنا الحضارية المتميزة ، فبحث عن « الوافد » الذي يقوي به

« موروثنا » المتميز ، وليس عن « الوافد » الذي يطمس هذه الذاتية الحضارية المتميزة! . .

ونموذج محمد علي باشا. ونموذج رفاعة الطهطاوي من النماذج الحية التي ترينا فعل هذا القانون الذي أبصره هؤلاء العباقرة المصلحون والمجددون. . وأبصروا حكمه لظاهرة الاحتكاك بين الحضارات ذات العراقة والغنى والاستمرار. . ماذا نحتاج؟ . . وما هي العلوم التي لا وطن لها؟ . . والتي لا خطر على ذاتيتنا المتميزة من وفودها ؟ . . والتي لا بد لنا وأن نسعى إليها سعياً جاداً وحثيثاً؟؟ . . وما هي الذاتية الحضارية التي لا بد من تجديدها ، والنهوض بها ، وتطويرها ، مع المحافظة على الأصول والسمات والقسمات التي تضمن بقاء تمايزها المتسق مع الشخصية القومية للأمة؟؟ . . لأنها ، بالنسبة للأمة ، كالبصمة بالنسبة للفرد. . فكما أن لكل إنسان « بصمة »، وهو يصافح الكل دون أن يفقد تميزه ببصمته هذه عن الآخرين، كذلك، هناك الذاتية الحضارية المتميزة ، والتي يجب أن نبحث عنها في « الموروث ». . ونحن عندما نسعى لامتلاك العلوم وحقائقها ، وللاستفادة من تطبيقات هذه العلوم ، والاستفادة من تجارب الأمم والحضارات الأخرى ، فإنما نسعى لامتلاك « مصادر القوة » ، التي تقوى بها ذاتيتنا الحضارية المتميزة ، دون أن نخلطها بتلك المصادر التي تمسخ شخصيتنا أو تشوه ذاتيتنا ، أو تنسخها من الأساس! . .

إن الانسان الصحيح - [المستقل] - يزداد صحة بتمثل المناسب من الغذاء.. بينما هذا الغذاء قد يودي بحياة المريض ؟!.. والانسان ينمو ويتطور ، فتتغير فيه أشياء ، ولكن هناك ثوابت تجعله هو هو رغم النمو والتطور الذي يعتريه.. وكذلك مثل الحضارات ، فيها الثوابت والأصول والقسمات التي تمثل هويتها ، وفيها المتغيرات التي تفسح الهوامش للتفاعل والأخذ والعطاء مع الحضارات الأخرى.. وعلينا أن نبصر ذلك جيداً .. وأن نميز بينه جيداً ، حتى نتجنب مخاطر « التبعية والذوبان » .. ومخاطر « الجمود والانغلاق »!..

أي موروث ؟.. وأي وافد ؟..

إذا ، فالقضية ليست قضية : « موروث » و« وافد »، على الإطلاق والتعميم.. وإنما هي قضية : ما هو الصالح والصحي من « الموروث »، ومن « الوافد »؟..

بل إننا سنجد في كل « موروث » حضاري « وافداً »!.. ذلك أن بعض « الوافد »، لصلاحه وملائمته للروح الحضارية ، يتحول ، بعد تمثله ، إلى « موروث »!.. فالوافد الجديد يمكن أن يكون نافعاً وصالحاً ، ويمكن أن يكون ضاراً .. إذاً ، فالموقف ليس : هل أنا مع « الموروث » بشكل مطلق ؟ أو مع « الوافد » ، بشكل مطلق ؟.. وإنما لا بد لنا أن نبحث عن « الهوية » الحضارية ؟ فيم تتمثل ؟ وأين الثوابت ؟ وأين المتغيرات ، التي في هامشها مساحة ومكان للوافد ، الممثل لمدد القوة والصحة للهوية وللثوابت الحضارية الموروثة؟..

وعلى سبيل المثال.. فأنا عندما أجد في الموروث العربي الاسلامي « قيم التواكل والزهد » ، الذي قد يصل إلى درجة إدارة

الظهر للدنيا وللعمران . . فإنني أعرف أن هذا التواكل وزهد الدراويش ، هو ، في الأصل ، « وافد » فارسي ، دخل إلى الحضارة العربية الاسلامية ووفد عليها من الموروث الفارسي القديم ، وكان وسيظل ضاراً . . لقد أصبح « موروثاً » ، ومع ذلك فأنا ضده ، عندما كان وافداً ، وضده بعدما أصبح جزءاً من بنية هذه الحضارة ، فهو « موروث » ، لكنه موروث ضار ، كما كان وافداً ضاراً ! . .

و« قيم عصر الحريم » ، فيما يتعلق بوضع المرأة ، والنظرة إليها . . لقد بدأت « وافداً » تركياً مملوكياً دخيلاً على حضارتنا العربية الاسلامية . . ومن يقرأ فتاوى الامام محمد عبده عن رأي الاسلام في تعدد الزوجات ، يجد حديثه عن هذه الحقيقة . . ولقد تحولت هذه القيم إلى « موروث » ، إلى الحد الذي جعل الكثيرين يتصورون أن قيم عصر الحريم هذه هي المعايير الاسلامية التي نظر بها الاسلام إلى المرأة المسلمة ! . . ونسي هؤلاء أن صورة المرأة المسلمة ، في صدر الاسلام ، كانت : المرأة المقاتلة ، والمناضلة ، والعاملة ، والعالمة ، والتي تدافع عن حقوقها حتى بالمظاهرات ؟! والتي تذهب إلى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وتقول له : إن الرجال قد استأثروا بك دوننا ، وأنت مبعوث للجميع ، فاجعل لنا يوماً تحدثنا فيه وتعلمنا أمور الدين! . . ينسى هؤلاء الناس الصورة الاسلامية للنساء المسلمات اللاتي حملن السلاح ودافعن عن الرسول في غزوة أحد ، عندما فر كثير من الرجال . . الخ . . الخ . . فصورة المرأة

المسلمة المناضلة قد انزوت وكادت أن تتلاشى في صفحات موروثنا ، وأصبحت قيم عصر الحريم ، وصورة المرأة التي خلقت لتكون لعبة الرجال وموطن شهواتهم ودمية تتزين بها البيوت ، هي موروثنا الذي أضفى عليه البعض قداسة الدين ، محاولين تخليده ليصبح جزءاً من الهوية الحضارية لأمتنا . .

و« الطبقية المستغلة » . . إنها ، هي الأخرى ، « وافد » فارسي وبيزنطي ، غريب عن الموروث العربي الأصيل ، الذي تميز بالعدل والمساواة وقيم الاشتراك العمومي بين أفراد القبيلة ثم الأمة في أمور المعاش! . .

والذين يتأملون مغزى موقف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب من أبهة الملك وامتيازات الوالي التي كان عليها معاوية بن أبي سفيان عندما كان والياً لعمر على الشام . . الذين يتأملون موقف عمر هذا يدركون كيف كان معاوية ـ بالأبهة . . والحجابة . . والطبقية ـ يمثل شيئاً وافداً وغريباً عن الفكرية الاسلامية البسيطة في شبه الجزيرة العربية . . ولقد علل معاوية إدخال هذا « الوافد » في حياته وأسلوب حكمه لولايته ، بضرورة ذلك لنفاذ هيبة الوالي إلى قلوب الناس . . فهذه الأبهة والطبقية من مواريث البيزنطيين ، التي غدت موروث ولاية الشام! . . ولقد كان جواب عمر على تبرير معاوية هذا :

ـ لا آمرك ، ولا أنهاك؟! . .

فلقد كان بإزاء واقع مختلف عن واقع شبه الجزيرة العربية

البسيط . . وأمام وافد غريب عن البساطة والجماعية التي سادت شبه الجزيرة في ذلك التاريخ . .

وهذا « الوافد » الفارسي والبيزنطي قد أصبح « موروثاً » . . والآن ، نجد أصحاب « الخيار الطبقي » ، الذين يحبذون الطبقية المستغلة ، يضفون عليه قداسة الموروث ، بل وقداسة الدين ! . فيتحدثون عن مشروعية « الطبقية المستغلة » وضرورتها ليتخذ بعض الناس البعض الآخر سخرياً !! الخ . . الخ . . وهم بذلك ، إنما يضفون قداسة الاسلام الحنيف ، دين العدل والمساواة والجماعية والتكافل الاجتماعي ، يضفون قداسة هذا الدين الحنيف على هذا « الوافد » الطبقي الاستغلالي ، الذي جاء من حضارات وثنية مشركة ومجتمعات طبقية لم تعرف بساطة البقعة التي ظهر فيها الاسلام! . .

إذاً ، فواجبنا أن لا نتعصب للموروث لمجرد أنه موروث . . . وأن لا نرفض الوافد لمجرد أنه وافد . . وإنما لا بد أن نبحث عن مكان الموروث من هوية الأمة الحضارية ، ومن الثوابت والأصول التي تمثل السمات التي تتميز بها وتمتاز عن الأمم الأخرى . . ودور هذا الموروث في المحافظة على التواصل الحضاري في مسيرة الأمة التاريخية ومكانه من ترسانة الأسلحة اللازمة للأمة في صراعها ضد تحديات العصر الذي نعيش فيه . .

وأن نبحث ، كذلك ، عن ماهية « الوافد » . . وهل هو عامل قوة ضروري لأمتنا ؟ . . وعن مدى اتساقه مع روحنا الحضارية

التي تميز أمتنا ؟ . . فإن كانت نهضتنا تقتضيه ، ومشروعنا الحضاري يستدعيه ، فلا بد وأن نسعى إليه سعياً جاداً وحثيثاً . . فهو أولى بنا ، ونحن أولى به من « موروث » قد أصبح قيداً يحول بيننا وبين الانطلاق! . .

ما هي الهُوية ؟ . .

وإذا كـان المعيـار في المـوقف من « المـوروث » ومن « الوافد » هو « هوية » هذه الأمة ، والثوابت الحضارية التي تتميز بها ، والروح الحضارية المكونة لمزاج حضارتها . . فلا بـد وأن نحدد ما هي هذه « الهوية »؟ . .

هل الهوية هي كل التراث؟؟ . .

نحن نجيب بـالنفي . . ذلك لأن تـراث الأمة هـو كـل المـوروث ، هو كـل ما ورثنـاه ، سـواء منـه مـا كـان من « علوم الشـرع » ، أو منَ « العلوم العقليـة » ، أو فـي « العلوم التجـريبية » . . كـل هذا هـو تراث الأمـة . . وهذا التـراث مليء بالمواقف والاتجاهات المختلفة ، بل والمتناقضة والمتعـارضة ، لأنه ثمرة لابداع تيارات فكرية ومدارس فكرية متمايزة بل ومتناقضة عاشت وأبدعت في ذلك الواقع القديم . . وهـذا الواقـع ، الذي تبلور فيه هذا التراث ، متطور أبـداً ومتغير حتمـاً ، بحكم قانـون التطور ، الذي هـو سنة من سنن الله ، سبحـانه ، في الكـون . .

وهذا التطور لا بد وأن يستدعي تجاوز قطاعات من هذا التراث ، وهي التي نسميها « المتغيرات » . . ولذلك ، فليست عتاقة الكتب واصفرار أوراقها وغرابة حروف مخطوطاتها ولا قدم مقولاتها ، ليست هذه بالمؤهل ولا بالحجة التي تضفي على الموروث القداسة أو المصداقية . . ومن ثم فنحن اليوم لسنا ملزمين بالتزام معارك القدماء ، ولا بمناهجهم ، تاهيك عن مقولاتهم وما أبدعوا من نظريات . . والقول بذلك الالزام عبث . . والذين يفكرون على هذا النحو إنما يعبثون ! . .

ذلك لأن القضية ليست الحفاظ على كل الموروث ، حتى ولو تجاوزه التطور . . فليس كل الموروث هو « **الهوية الحضارية التي تميز الأمة حضارياً** » . . .

ونحن عندما نبحث عن تعريف « الهوية » ، فسنجد أن مصطلحها ليس غريباً عن موروثنا القديم . . فهو واحد من المصطلحات التي ضمتها معاجمنا القديمة . . سنجد الجرجاني [٧٤٠ - ٨١٦هـ ١٣٤٠ - ١٤١٣م] يعرف الهوية في كتابه [التعريفات] - وهو قاموس للمصطلحات - يعرفها بأنها « هي الحقيقة المطلقة ، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق » ! . . أي أنها تعني : الذاتية ، الخاصية ، البصمة التي تميز الظاهرة عن الظواهر التي تشبهها . .

أما « مجمع اللغة العربية » ، فهو يعرف « الهوية » ، حديثاً ، فيقول : إنها « حقيقة الشيء ، الشخص ، المطلقة :

المشتملة على صفاته الجوهرية ، وليست أي صفات ، والتي تميزه عن غيره » . .

هذا هو تعريف « الهوية »، قديماً وحديثاً ، ولذلك ، فإننا إذا قلنا ـ بصدد الحديث عن الشخصية القومية والشخصية الحضارية ـ :

ـ ماذا تعني الهوية بالنسبة للحضارة ؟ . .

كانت الإجابة :

ـ إنها الصفات الجوهرية التي تميزها عن غيرها من الشخصيات القومية والحضارية ، إنها « البصمة » الممثلة للقدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات العامة ألتي تميز شخصاً ما عن غيره أو قومية عن غيرها أو حضارة عن غيرها من الحضارات ، إنها هي النواة ، وهي الجوهر . .

وإذا كنا نقول : إن موروثنا فيه الثوابت وفيه المتغيرات ، فهذا يعني أن فيه ما هو « هوية »، وفيه ما هو « متغيرات » التغير فيها والتطور وارد على نحو أكيد . .

وهنا لا بد وأن نضرب على ذلك بعض الأمثلة :

فالعروبة . . بالنسبة لهذه الأمة ، هوية ، لأنه على مر العصور ، ومنذ أن اندمجت هذه الجماعة البشرية ، بالتعريب ، في هذه الأمة الجديدة ، تعرب البشر ، وأصبح ولاؤهم للعروبة ، بالمعنى الحضاري . وليس بالمعنى العرقي والعنصري . . ومن

يقرأ ما كتبه العلماء العرب ، الذين انحدروا من أصلاب وأصـول عرقية غير عربية ، يعرف كيف كان ولاؤهم للعروبة وانتماءهم لها كاملاً وخالصاً . . ومن هؤلاء العلماء ، على سبيل المثـال : ابن جنى ۳۹۲هـ ۱۰۰۲م] الفـارسي الأصـل ، والـذي كتب كتـابـه [الخصائص] فجاء أعظم ما كتب في فلسفـة العربيـة . . يكتب ابن جنى فيحـدثنا كيف أنـه لقي الكثير من علمـاء العربيـة ذوي الأصول النسبية غير العربية ، والمنحدرين منهم من أصل فارسي على وجه الخصوص ، فسألهم عن مقام العربية بالنسبة للفارسية ؟ فوجد إجمـاعهم على رقي العربيـة وارتقائهـا ، حتى لقد أنكـروا مجرد المقارنة والقياس؟! . .

فهؤلاء العلماء ، قد تعربنوا ، وأصبحـوا يفكرون ويقـرأون ويكتبـون بـالعـربيـة وخلص ولاؤهم وانتمـاؤهـم للعـروبـة ، رغم انحدارهم من أصلاب عرقية غير عربية .

والمـواريث التي سبقت الفتـح العـربي والاسـلامي ، هي الأخـرى قد تعـربت ـ كما تعـرب البشر ـ ودخلت ـ أثنـاء « عصر التدوين » ـ في نسيج الحضارة الجديدة ، تلك التي تبلورت كثمرة لإسهام الجميع ، جميـع أمم الشرق ، وكـل مواريث هـذه الأمم على امتداد عمق حضاراتها الضارب في أعماق التاريـخ . . حتى أنني لو قلت : إن نصيب غير العرب الأقحاح في هـذه الحضارة العربية الإسلامية أكبر من نصيب عرب شبه الجزيرة العربية ، لما كنت مبـالغاً ! . . ذلـك أن الفتـح العـربي لم يمـارس مـع هـذه

المواريث الفكرية والحضارية سياسة المسخ أو النسخ أو التشويه. . وإنما أحياها ، وعرّبها ، وصبغها بصبغة الإسلام ، وأدخلها في نسيج الحضارة الجديدة.

وعندما حضر عمرو بن العاص إلى مصر، فاتحاً لها ، ومحرراً إياها من القهر البيزنطي ، وجد أن الذين يمثلون فكرية مصر القومية وأصالتها ـ وهم الأقباط « اليعاقبة » ـ وجدهم مضطهدين ، قد فروا إلى المغارات والأديرة في أعماق الصحارى. . ووجد « الملكانيين » ـ الممثلين لمذهب البيزنطيين الغزاة ـ والممثلين « للوافد » الفكري الروماني ـ وجدهم قد انفردوا واستبدوا بمؤسسات الفكر في مصر ، وسيطروا على الكنائس. . فماذا صنع عمرو بن العاص « للموروث » المقهور والمضطهد؟ وماذا صنع بـ« الوافد » المستبد والمسيطر؟!. . لقد اقتلع الملكانيين ـ [الوافد] ـ من كنائس مصر ومؤسساتها اللاهوتية والفكرية ، وأعاد كل ذلك إلى قوم مصر : اليعاقبة الأقباط !. . فعادت فكرية مصر القبطية اليعقوبية إلى السيادة من جديد. . ثم تعربت هذه الفكرية وموروثها ودخل الناس في دين الله أفواجاً . . لقد أسلمت الأغلبية الساحقة من السكان ، ومن لم يسلم تعرب ، وأسهم وأبدع مع من أسلم في هذا البناء الحضاري الجديد. . ووجدنا « الاسلام الدين » « الإسلام العقيدة » قد وقف عند حدود الذين آمنوا به ، وأسلموا وجههم لله وفق عقائده ، التي بشر بها محمد ، صلى الله عليه وسلم منذ فجر البعثة. . أما الحضارة العربية الاسلامية ، التي تبلورت في عصر التدوين ، فلقد جاءت ثمرة لإبداع كل الذين تعربوا ، وكل

الذين طبعوا بهذه الهوية الحضارية الجديدة ، على اختلاف شرائع الأديان والمعتقدات. .

وهذه العروبة ، التي اتسعت دائرتها ، وزاد عمقها ، قد عاشت وصمدت لكل التحديات، فالمماليك والعثمانيون ، قد حكمونا قروناً زادت عن القرون التي حكم فيها العرب الذين سبقوهم! . . وفي ظل حكمهم ظهرت دعوى التفرقة بين « العروبة » وبين « الاسلام » . . ، عندما زعمت السلطة أن « العروبة » تتناقض مع « الاسلام ». . بدأ هذا الزعم في ظل الدولة المملوكية ، ورأيناه يتصاعد في ظل الدولة العثمانية إلى حد اضطهاد العروبة والعربية ، حتى لقد سعى الأتراك إلى تتريك الأمة العربية؟! . .

ثم رأينا ، في الجزائر الجهود الاستعمارية المحمومة لفرنسة الشعب الجزائري ، عندما حاولت فرنسا تحويل الجزائر إلى امتداد لاتيني فرنسي لها عبر البحر المتوسط ! . .

ورأينا الجهود التغريبية التي بذلت ـ في قوة واستمرارية وانتظام وشمول ـ حرباً على العربية وتراثها ودينها ، لقطع الروابط التي تجمع هذا الثالوث ـ العربية . . والتراث . . والدين ـ فمرة يريدون كتابتها بالحروف اللاتينية ، ومرة يريدون استبدال العامية بها . . وفي كل الأحوال هم يشككون في أصالة تراثها ، ويعزلون الاسلام عن عرش الحياة المدنية . . ولما لم يبلغوا ، على هذه الجبهات ، كل الذي أرادوا ، حاربوا العربية بالتجاهل لها وبالجهل بها . . حتى وجدنا خطباء ومتحدثين في أجهزة الإعلام المسموعة

والمرئية ، ومعهم « كتبة » في وسائل الإعلام المقروءة تشع منهم وتتقاطر علينا الأخطاء الفاحشة باللغة القومية !.. بل لقد وصلت الأخطاء الفاحشة إلى منبر خطبة الجمعة وخطبائها؟!.. وعمت الشعر العربي ، وغزت القرآن الكريم والحديث الشريف ، على ألسنة كثير من الخطباء؟!...

ومع كل ذلك ، فلقد وجدنا هوية « العروبة » تكمن ، صامدة أمام كل تلك التحديات ، لقد كمنت في الجزائر ، كمُون النواة ، والجوهر ، والحقيقة المطلقة ، حتى حان الحين فأعادت الجزائر مرة أخرى إلى أحضان العروبة والإسلام ..

وكل تيارات التغريب التي رأيناها ، قد اعتراها ويعتريها الوهن ، ولم تكن الهوية « العروبة » قناة !.. حتى الذين بدأوا حياتهم الفكرية يبشرون بالتغريب.. ماذا صنعوا ؟ وماذا صنعت بهم الحياة؟..

إن بعض الناس يتحدث ، بسطحية وتبسيط للأمور ، مثلاً ، عن « حقبة كتابة الإسلاميات ،» في حياة أعلام ومفكرين من مثل عباس محمود العقاد [١٣٠٦ ـ ١٣٨٤هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م] والدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] والدكتور محمد حسين هيكل [١٣٠٥ ـ ١٣٧٥هـ ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م].. يتحدث هذا البعض غن هذا التحول فيرجعه إلى : أنهم قد طعنوا في السن ، وقاربوا الموت ، فأصابتهم نكسة التراجع عن « الفتوة والتألق والثورية !»، وبدأت

مرحلة « الدروشة »، التي اقترنت بتصفية بقايا ثورية ثورة سنة ١٩١٩م ، التي أوقدت زند هؤلاء الأعلام!.. وأنهم - بنظر هذا البعض - قد انخرطوا ، في مرحلة الهزيمة ، يكتبون ما كتبوا في الاسلاميات؟!..

وهذا الكلام - السطحي والخبيث - يذكرنا بما قاله هذا البعض في تفسير ، رفض رفاعة الطهطاوي لفلسفة أوربا ، بأنه نقص وعيب وسلبية وازدواج في الموقف والشخصية.. ونحن نقول : إن أصحاب هذه التفسيرات لم يبصروا موطن الهزيمة في مسيرة هؤلاء الأعلام الذين بدأوا متغربين ، ثم عادوا إلى إطار العروبة والإسلام.. كانت هناك هزيمة حقاً ، ولكنها كانت هزيمة النموذج الحضاري الغربي ، الذي انكشف أثره ، ووضحت سلبياته ، وظهر طابعه الاستعلائي والعدواني ، فأيقن القوم أن هيمنة هذا النموذج الحضاري الغربي على عقل الأمة وواقعها لن يثمر « التحضر » و« القوة » و« التقدم »، التي كانوا يؤملون من ورائه ، وإنما سيثمر تشويه الموروث والخصوصية ، والقضاء على فعالية هذا الموروث ، لتصبح الأمة راسفة في أغلال التبعية للمركز الأوربي والغربي المسيطر في كل المجالات ومختلف الميادين.. لقد انهزم النموذج الغربي في عقول هؤلاء المتغربين وفي وجدانهم ، وخاب أملهم فيه ، فعادوا أدراجهم إلى أصولهم وموروثهم وقواعدهم الأصلية والأولى.. ولذلك فإننا ننظر إلى هذا التحول الذي تمثل في حقبة كتابة العقاد وطه

حسين وهيكل للاسلاميات . ـ ننظر إليه كظاهرة صحية ، وكانتصار « للموروث » في صراعه ضد « وافد التغريب » !. .
وفي هذا الضوء نحن نفهم مغزى أحداث فكرية حفلت بها حياة هؤلاء المفكرين والكتاب. .

● فطه حسين ، كان يعيد طبع كتبه . . لكن ، لماذا لم يعد طبع كتابه [مستقبل الثقافة في مصر]؟!. . إن السبب في ذلك ، هو تجسيد هذا الكتاب لطه حسين « المتغرب »، الذي يقلل من قيمة وفعالية انتمائنا العربي ، ويضعنا في إطار « العقل اللاتيني »، عبر ما سماه حضارة البحر المتوسط. .

● ولطفي السيد [١٢٨٩ ـ ١٣٨٣هـ ١٨٧٢ ـ ١٩٦٣م] الذي بدأ متغرباً ، ينكر العروبة القومية والسياسية ، ويستنكر « الجامعة الاسلامية » ، ويتحدث عنهما حديثه عن الاستعمار!. . لطفي السيد هذا ، قد عاد ،في أواخر حياته ، يتحدث عن العروبة حديثاً جديداً ، ينقض به ما كتبه عنها في مرحلة « التغرب ». . ومثل ذلك صنع طه حسين بالنسبة لموقفه من العروبة القومية العربية . . لقد عادوا ، بشجاعة المفكر العظيم ، إلى « الموروث »، وانهزم فيهم « وافد التغريب » إلى حد كبير!. . وكانت هذه العودة الحميدة هي الحقبة التي طبعت بأسلحة الحياة الفكرية لهؤلاء الأعلام ، الذين بدأوا متغربين . . فهي ، إذاً ، ظاهرة صحية ، عاد بها هؤلاء الأعلام إلى قواعدهم مرة أخرى. .

وهذه الظاهرة الصحية ، التي حدثت في صفوف جيل من « المتغربين ـ الليبراليين » ، هي التي نبصر الآن نماذج لها وعلامات عليها في صفوف جيل من « المتغربين ـ اليساريين » . . فعلينا أن نحذر الخطأ والسطحية في التفسير . . إنها واحدة من علامات وظواهر النضج الفكري ، وواحدة من علامات وظواهر الانتصار الذي بحققه « الموروث العربي الاسلامي » ضد « وافد التغريب ليبرالياً كان هذا الوافد أو شمولياً؟ ! . .

والتدين . . ـ كمثال آخر على الهوية ـ . . نقول : إن أمتنا هذه أمة متدينة . . وهذا الكلام ـ الذي يتردد كثيراً ـ ليس عبثاً . . فالتدين قسمة من قسمات الهوية التي تتميز بها أمتنا العربية الإسلامية ، . . والتدين ، هنا ، لا يعني الشعائر وحدها ، كما أنه لا يعني « الدروشة » . . وإنما هو موقف من ثوابت كثيرة . . منها :

● الأسرة . . التي غدت ـ وكانت وستظل ـ في حضارتنا « حرماً مصوناً أ » ، قد اكتسب معنى « الحرم » في الدين! . .

صحيح أن « التغريب » و« التحديث على النمط الغربي » قد وجه الكثير من السهام إلى هذا البناء الأسري المتميز ، وأصاب هذا « الحرم المصون » بما يبعث أحياناً على الأسى . . فتفككت روابط كانت محكمة العرى ، وضمرت الأسرة التي كانت ممتدة . . الخ . . الخ . . لكننا نلحظ مغزى النظرة السائدة ، والتي تضع هذه الظواهر المرضية في إطار « الأمراض » التي لا بد من السعي إلى البرء منها ، وفي إطار « الشذوذ » الذي يجب أن يخلي

مكانه لتسود « القاعدة » . . قاعدة الأسرة ، باعتبارها « الحرم المصون والمصان ! » .

ولقد أدرك أعداء هذه الأمة ما للأسرة من مكان ومكانة في هوية الأمة وثوابتها . . فخافوا ، وهم يخلعون قانونها الإسلامي من على عرش المؤسسة القضائية ، من تعميم ذلك في محيط القانون الذي يحكم شؤون الأسرة ، فتركوا « قوانين الأحوال الشخصية » على حالها . . ليس من باب التسامح ، ولا حباً في الشريعة ، ولا سعياً لدعم بناء الأسرة المسلمة . . وإنما مخافة الثورة التي توقعوها إن هم مسوا هوية الأمة الحضارية في منطقة حساسة ، بلغت في الحساسية إلى مرتبة « الحرم المصون » . . !

● والقيم . . والأخلاقيات . . هي الأخرى من ثوابت الهوية التي انطبعت بالطابع القدسي للدين والتدين . . وإلا ، فهل فينا كثيرون يقيسون التعامل « بالمنفعة المادية » على نحو ما هو حادث في الحضارة الغربية ؟ . .

قد يكون « التغريب » و« التحديث على النمط الغربي » قد أحدث في واقعنا شيئاً من ذلك ، يبرز في المدن ، ويتوارى في الريف . . لكن الجميع يحجبون عنه الشرعية والمشروعية ، وينظرون إليه نظرتهم إلى الشذوذ عن القاعدة . . وإلى المرض الذي يرجون منه الشفاء! . . وإلى النتوء الخارج عن النسق العام والاتساق المقبول . .

● بل إن قسمة التدين لتبلغ في حضارتنا درجة تسترعي

الانتباه ، وتستحق الدراسة الخاصة والمتخصصة . . فلقد تعدى أثر التدين إطار القيم والاخلاقيات والعلاقات الاجتماعية ليصل إلى ميدان العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، فعرفت حضارتنا ما نسميه بـ« الروح المؤمنة » التي سرت ، لا في « علوم الشرع » وحدها ـ فهذا طبيعي ووارد ومألوف ـ وإنما في « العلوم العقلية » أيضاً ، التي اتسقت ، في المنطلق والنتيجة والغاية ، مع « علوم الشرع » . . بل لقد شاعت هذه « الروح المؤمنة » في العلوم الطبيعية ، التي نمت كعبادة لله ، يقيمها العلماء سعياً لاكتشاف أسرار الله في كونه ، وسننه في ملكوته ، فإذا ما طبقوها نراهم قد ربطوا الوسائل بالغايات مستهدفين من تطبيقاتها تلك السعادة الدنيوية لخلق الله ، تلك التي بدونها لن يستطيع الخلق عبادة الحق بعمران الكون الذي شاء لهم أن يعمروه؟! . .

ونحن نسأل : ماذا يعني إسلام مفكر فيلسوف مثل رجاء جارودي؟! . . وأهم من هذا ، ماذا يعني تعليله لاهتدائه للإسلام بأنه قد وجد فيه الدين الذي جعل الحضارة الاسلامية ترتبط فيها العلوم والمعارف بالحكمة والغاية؟! . . ذلك ملحظ يستحق التأمل العميق! . .

إن الذين يدرسون تراثنا العلمي يلحظون شيوع « الروح المؤمنة » في ثنايا هذا التراث ، وتخللها لحقائقه ونظرياته . . فحتى « قوانين » هذه العلوم غير غريبة ولا بعيدة عن « الايمان »! . .

فإذا قرأنا ـ من تراثنا ـ كتباً في [الأحجار والجيولوجيا] ، نجد المؤلف يبدأ هذه الكتب بـ[بسم الله الرحمن الرحيم] وبـ[الحمد لله] . . فإذا فرغ من مبحث **قال** : [والله أعلم] ! . .

وابن حزم الاندلسي [٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م] يؤلف في الحب كتابه البديع [طوق الحمامة]، فيبدأ الكتابة في الحب بداية الفقيه الذي يكتب في الالهيات! . .

وابن سينا [٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م] ـ وهو الفيلسوف العالمي ـ يقرأ كتاب أرسطو [ما بعد الطبيعة] فيستعصي عليه فهمه. . ثم يعاود المحاولة . . حتى يقع في يده كتاب للفارابي [٢٦٠ ـ ٣٣٩هـ ٨٧٤ ـ ٩٥٠م] يحل له المغاليق ، ويعينه على فهم [ما بعد الطبيعة] . . فماذا وجدناه قد صنع هذا العقل المتفلسف ؟ . . لقد وضع كتبه وأوراقه جانباً ، وأخذ شيئاً من نقوده ، وغادر منزله باحثاً عن الفقراء والمساكين ، يتصدق عليهم ، شكراً لله الذي أعانه على فهم [ما بعد الطبيعة] لأرسطو؟! . .

إن هذه « المواقف ـ الأمثلة » ـ بالغة الدلالة على هذا الذي نقول : إن حضارتنا العربية الاسلامية هي حضارة مؤمنة ، يصل تأثير التدين فيها إلى ما هو أبعد من الشعائر والقيم والأخلاقيات والمعاملات فيسري بروحه المؤمنة في العلوم ، حتى ما كان منها خاصاً بالطبيعة وفي تطبيقات هذه العلوم! . .

هذا عن حضارتنا العربية الإسلامية . .

أما الذين يقرأون مؤلفات الحضارة الغربية في العلوم الطبيعية فإنهم لن يجدوا « للروح المؤمنة » أثراً . . بل إنهم سيجدون النقيض على نحو أكيد! . . فهذه المؤلفات قد لا تتحدث عن الالحاد ، ولا تجادل في إنكار وجود خالق صانع وقادر في هذا الكون ، ولا تدعو إلى الهرطقة والزندقة ، ولكنها تصحب القاريء من البداية إلى النهاية فتقف بعقله ، عند حدود المحسوس ، والأسباب والمسببات في إطار هذا المحسوس ، وفي خلال ذلك كله فإنها لا تشعر القاريء بوجود قوة خالقة وراء هذا المحسوس ، بل ولا بالحاجة! . . وجود هذه القوة! . . إن هذه المؤلفات ، حتى إذا لم تنكر صراحة وجود هذه القوة الخالقة ، فإنها ترسب في الذهن الانساني تصوراً للكون لا يحتاج الانسان في إدراكه إلى أكثر من الأسباب والمسببات المادية التي يجدها ويلمسها أمام حواسه . . وهذا النهج الغربي . . وهذه الروح الغربية تكون العقلية غير المؤمنة ولذلك فإننا حين نتحدث عن الروح المادية والالحادية للحضارة الغربية ، لا نقف بمقاصدنا فقط عند « الطابع النفعي » في القيم والأخلاقيات ، وإنما نقصد إلى ما أشرنا إليه من سريان « الروح الملحدة » في التراث العلمي للحضارة الغربية ، الأمر الذي ميزها ويميزها عن حضارتنا العربية الاسلامية ، التي تميزت « بروحها المؤمنة » تسري في كل العلوم والفنون وسائر الميادين والمجالات . .

فنحن عندما نقول : إن لحضارتنا تميزاً بـ« الروح المؤمنة » ، التي هي أثر من آثار « التدين » في هويتنا

الحضارية . . عندما نقول ذلك لا « نتـدروش » . . وإنما نقصـد إلى ما قصد إليه جمال الدين الأفغاني عندما تحدث عن « التدين » فشبهه بـ« الْجِبِلَّة » و« الطبـع » الذي طبـع به إنسـان حضارتنـا ، العربي المسلم ، فهو حتى لو مرق من دينه ، وتزندق وألْحَدَ ، فإن أثر التدين وتأثيره يظل مطبوعاً فيه ، مثله في ذلك كمثل أثر الجرح في الجسم بعد الشفاء والانـدمال!. . فهـذا الإنسان لا يستـطيع الخروج من جلده ـ كما يقولون ! ـ .

● والوسطية . . إنها هي الأخرى ، في حضارتنا « هويـة » ، وواحدة من القسمات الثوابت. . والوسـطية هنا لا تعني المعنى السُّـوقي الذي شـاع بين العـامـة من المثقفين والسيـاسيين لهـذا المصطلح المظلوم!. . لا تعني انعدام الوضوح ، وافتقاد الموقف المحـدد ، واللعب على مختلف الحبـال ، وإمســاك العصـا من منتصفها. . الخ. . الخ . . وإنما تعني « الـوسطيـة » في المفهوم الاسلامي : « الأمة الوسط » و« الموقف الوسط » ، الذي هـو : عدل بين ظلمين وحق بين باطلين، واعتدال بين تطرفين. . ليس بالمعنى الأرسطي ، الذي يجعل الفضيلة وسطاً يتوسط رذيلتين ، متصوراً وجود مسافة عن يمين الفضيلة وعن يسارها، متساوية ، تفصل بينها وبينهما . . وإنما بمعنى اشتمال الموقف الوسط على محـاسن القطبين النقيضين التي يمكن جمعهـا والتأليف بينهـا . . « فالعقلانية الاسلاميـة » موقف وسط ، ليس بمعنى التـوسط بين « العقـل » وبين « النقـل » ، وإنمـا بمعنى التـأليف بين بـراهين « العقـل » و« النقل » جميعاً . . و« المـادية الاسـلامية » مـوقف

وسط ، ليس بمعنى التوسط بين المادة وبين الروح ، وإنما بمعنى الجمع بين محاسنهما والضروري منهما لخلق الانسان السوي و«والشخصية الاسلامية » شخصية وسط ، لا بمعنى انعدام انتمائها ، وإنما بمعنى جمعها بين فضائل « الجسد » و« الروح »، وفضائل « الدنيا » و« الآخرة » ، وفضائل « الدين » و« الدنيا »، وفضائل « الفردية » و« الجماعية » . . الخ . . الخ . .

ذلك هو معنى « الوسطية »، التي هي روح الحضارة العربية الاسلامية ومزاجها . . وأنا أحياناً أتساءل : لماذا نجد في التراث الفلسفي للحضارة الغربية تياراً مادياً ملحداً منذ اليونان وحتى العصر الحديث . . وهذا التيار قديم وعريق ، وسابق على ماركس [١٨١٧ - ١٨٨٣م] وعلى الماركسية ، كما يعرف الجميع؟؟ . . ولماذا لا نجد في التراث الفلسفي لحضارتنا العربية الاسلامية هذا التيار المادي الملحد؟؟ . . وهل المصادفة هي التي صنعت ذلك ، ووقفت خلفه؟ ! . . لا أعتقد . . ولا أظن ! . . وإنما مرجع هذا الافتراق وذلك التمايز إلى امتياز حضارتنا « بروح الوسطية » وقسمتها . . هذه الوسطية التي وازنت ما بين « العقل » و« النقل » فأصبح لنا « عقلانية إسلامية » تميزت عن « العقلانية اليونانية » التي لم تعرف « النقل - الوحي » ، فأثمر هذا التوازن منظومة فكرية متميزة . .

وإنه لأمر يستحق النظر والتأمل ، بل ويستوجبهما ، وهو أننا نجد أغلب الفلاسفة والمتكلمين والمفكرين المسلمين قد قالوا

بـ« قدم العالم » ، وهم ، في ذات الوقت ، مؤمنون بوجود خالق لهذا العالم القديم . . لقد جمعوا ، بالمنهج الوسطي التأليفي - وليس التلفيقي - بين القول بـ« قدم العالم » وبين الايمان بالخالق لهذا العالم . . على حين وجدنا أن ذات القضية هي التي قسمت الفكر في الحضارة الغربية ، تاريخياً ، إلى تيارين : مادي ، ومثالي . . فالذين قالوا بقدم المادة أنكروا وجود الخالق ، لأنهم رأوهما . ضدان لا يجتمعان ولا يأتلفان . . أما الذين قالوا بوجود الخالق ، فلقد أنكروا قدم المادة ، لأن الأمران عندهم ، أيضاً ، ضدان لا يجتمعان ولا يأتلفان . . ولقد تكون من الأولين « التيار المادي » ، ومن الأخيرين : « التيار المثالي » ، على النحو المألوف والمعروف لدارسي الفلسفة الغربية . .

أما في حضارتنا ، التي تميزت بالوسطية . . حضارة الأمة الوسط ، فلقد تآخت الحقيقتان ووجدنا [المعتزلة] - مثلاً - عندما يقولون بالخلق من « العدم »، ينبهون على أن هذا « العدم » : « شيء » ! . . ووجدنا ابن رشد - مثلاً - يقول إنه قبل « الوجود بالفعل » يكون « الوجود بالقوة ». . وأن « الخلق » هو « الخلق المستمر »، الذي يتحول به « الوجود بالقوة » إلى « وجود بالفعل ». . و« الوجود بالفعل » إلى « وجود بالقوة » ، وهكذا باستمرار ، تحول دائم لا ينتهي في هذا الوجود . . كما يقول : إن الله قديم ، ولذلك فلا بد وأن يكون فعله - العالم - قديماً أيضاً؟! . . وهو ذات المعنى الذي يعبر عنه الامام محمد عبده بقوله : « إن المادة أزلية ، كما أن الله أزلي »؟! .

هكذا وجدنا ، في الحضارة الغربية ، تياراً مادياً ملحداً ، متبلوراً ومستمراً عبر تاريخها الطويل . . وآخر مثالياً . . ولم نجد لذلك مثالا ولا شبيهاً في تاريخنا الفكري والفلسفي . . لماذا؟؟ . .

إن مرد ذلك هو امتياز حضارتنا بالوسطية ، التي هي مزاج حضاري مختلف ، أثمر في حضارتنا ما نسميه بـ« تدين الفلسفة . . وتفلسف الدين »؟! . .

فالمعتزلة ، وهم رواد وصناع « علم الكلام الاسلامي » - الذي هو فلسفة أمتنا - . . والذين مثلوا فرسان العقلانية والاسلامية ، هم الذين أسسوا فلسفتنا على قواعد الدين وأصوله ، بينما تناقضت الفلسفة مع الدين في الحضارة الغربية ، وقامت ولا تزال قائمة بينهما الحروب! . .

وهؤلاء المعتزلة ، عندما قال خصومهم ، من « أهل الحديث النصوصيين » : إن الأدلة ثلاثة ، هي : الكتاب . . والسنة . . والإجماع . . قالوا هم : بل إنها أربعة هي - على هذا الترتيب - : العقل . . والكتاب . . والسنة . . والإجماع . . وعللوا ذلك بالحاجة إلى العقل ، كقاض حاكم ، في التمييز بين المحكم والمتشابه ، والطلق والمقيد ، والخاص والعام . . الخ . . الخ . . من آيات الكتاب . . لأن هذا الكتاب - الذي هو معجزة الاسلام - والذي هو « النقل » قد جاء « معجزة عقلية » ، عُرضت على العقل ، وجعلته مناط التكليف ، والقاضي الحاكم فيها ، ولم تقصد إلى « إدهاش » هذا العقل

وإخراجه عن الأُطر التي أحكمتها وتحكمها البراهين. .

. فنحن ، هنا ، أمام « توليفة » جديدة ، وهي شيء مختلف تماماً عن « التلفيق ». أمام منظومة فكرية ومزاج حضاري قد مايز ما بين حضارتنا وبين الحضارة الغربية على وجه التحديد!. . بل مايز بينها وبين كثير من الحضارات. .

نحن نعرف أن المسيحية الأولى قد بلغت « في الصوفية المسالمة وفي السلام الصوفي » إلى حد الدعوة إلى إدارة الظهر للدنيا. . ومن ضربك على خدك الايمن ، فأدر له خدك الأيسر!. . ومن غصبك ثوبك ، فاعطه القميص!. . الخ. . الخ. .

وأن الحضارة الهندية قد بلغت في تصوفها حد الدعوة لإفناء الجسد ، بل لقد تعبدت بتعذيبه!. .

أما الحضارة الغربية فإن روحها المادية النفعية واضحة المعالم ، سائدة فيها السيادة المطلقة ، وفي كل الميادين ، حتى لقد طوعت المسيحية المتصوفة فغدت فيها طقوساً وشعائر لا علاقة لها بالصورة المثالية التي بدأت عليها !. .

لكن حضارتنا ، كما أوضحنا ، قد تميزت بالمزاج الوسطي المعتدل ، الذي وازن ويوازن بين ما حسبه الآخرون - في الحضارات الأخرى - متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها ، فضلاً عن التأليف والتوفيق. .

هكذا ، أصبح باستطاعتنا أن نقول : إن سمات من مثل : « العـروبة » ، و« التـدين » ، و« الوسـطيـة »، إنمـا تمثـل ، في حضارتنا : « هوية » . . وأن علينا أن نتخذها معياراً لصلاح أو عدم صـلاح . . لصحة أو عـدم صحة أي « وافـد » جديـد . . بل وأي « موروث » قديم؟! . .

التشكيك في ثبات الهوية

لكن البعض قد يقول : إن ما تسميه ثوابت و« هوية ».. قد لا يستعصي على التطور والتغيير.. ولقد ضرب لي بعض الأصدقاء مثلاً ليدلل به على ذلك فقال : إن البصمة يمكن أن تزال بقليل من الحامض؟!..

وأنا أقول : إن الأمر ليس بهذه البساطة... ولذلك فأنا أدعو إلى تأمل هذه الحقائق ، التي هي في رأيي ظواهر حضارية تستحق النظر العميق والتفكير الذي يستخلص منها الدلالات :

- إن كونفوشيوس [٥٥١ - ٤٧٩ق.م] لا يزال حياً في الصين حتى الآن؟!..
- والإسلام حي في « بخارى » كما هو حي في الأزهر الشريف؟!..
- والأرثوذكسية حية في روسيا الماركسية كما هي حية في مقر بابوية الكرازة المرقسية؟!..

حدث ذلك ، ولا يزال يحدث رغم القرون الطوال ، ورغم عوامل التطور والتغير ، الداخلية منها والخارجية . . الأمر الذي يجعلنا نعتقد أننا بإزاء « ثوابت » و« هوية » ولسنا بإزاء « متغيرات »! . .

● وتركيا - والاسلام هويتها - لقد جاء كمال أتاتورك [١٢٩٨ - ١٣٥٧هـ ١٨٨١ - ١٩٣٨م] - بناء على عوامل داخلية وخارجية - فنحى الإسلام جانباً ، وفرض العلمانية على تركيا ، ومر على ذلك قرابة القرن. . . والآن نسأل: ما هي تركيا التي تعلمنت؟! . . إنها شريحة محدودة جداً . . وأنتم ترون الآن البعث الإسلامي الذي يهز تركيا هزاً عنيفاً . . وما الانقلاب الفاشستي الذي قاده جنرالات حلف الاطلنطي ، بقيادة « إفرين » ، منذ سنوات ، إلا نموذج لمحاولات الغرب الحيلولة بين الاسلام وبين السيادة في هذه البلاد من جديد! . .

● والخديوي اسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢هـ ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م] في مصر. . لقد قيل عن مصر : إنها قد غدت « قطعة من أوربا » في عصره. . ثم جاء الاستعمار فأسرع الخطا على ذات الطريق . . ومر ما يزيد عن القرن على سيادة هذا النهج في مصر. . والآن نسأل : أية مصر تلك التي أصبحت قطعة من أوربا؟! . . وأية مصر تلك التي استعصت على أن تصبح قطعة من أوربا؟! . . إن الشريحة التي تغربت هي التي خيل إليها ، وهماً ، أنها قد أصبحت جزءاً من أوربا ، أما جسد الأمة الحقيقي

فإنه لم ولن يصبح قطعة من أوربا . . وعندما يجد الجد وتحدق بالأمة الخطوب ، ينطلق وجدان الأمة، عبر لسانها ، بنشيد : « بلادي . . بلادي »! . . ويصبح « الاسلام » هو الحصن الذي تتحصن به!. . وتبرز « العروبة » كالسند الشامخ الذي تستند اليه ، رغم كل محاولات المسخ والنسخ والتشويه. . بل وينسلخ يوماً بعد يوم من الشريحة المتغربة أفضل أبنائها ، يعودون إلى قواعد هويتهم الحضارية ، ليبراليين كانوا في تغربهم أو شموليين! . .

إذا ، فإن ما نسميه بـ« الهوية »، هو الجوهر ، والنواة ، والبصمة ، والمزاج ، والروح في هذه الحضارة ، وليس من السهل اقتلاعها . . إنها من الثوابت ، وليست من المتغيرات وقد يشتد الضغط والتأثير المقاوم والمعاكس لها ، فيجعلها كامنة تتحين فرصة الهزة أو الزلزال لتبرز وتسود من جديد! . .

والذين قرأوا تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ، يعلمون كيف سارت سياسة الفرنسة شوطاً كبيراً على درب النجاح ، حتى خيل لأنصارها أن الجزائر قد غدت ، بالفعل الامتداد اللاتيني الفرنسي لفرنسا ـ [الأم] ـ عبر البحر المتوسط. . . ويعلمون كيف كتب واحد من هؤلاء المتغربين ، الذين اندمجوا في فرنسا الأم ، يسخر من فكرة وجود جزائر عربية مسلمة متميزة عن « فرنسا ـ الأم » ، فعنون مقاله ـ في حقبة الثلاثينات من هذا القرن ـ بعبارة: [من يدلني على وطن اسمه الجزائر]؟! . .

وهؤلاء الذين قرأوا تاريخ الجزائر ، يعلمون جيداً أن هـذه الكلمـات التي عبرت عن الشـريحة التي تغـربت وتفرنست ، لم تمثل إلا « الوهم ـ السطحي » الذي علا، لحين ، جوهـر الهويـة الثابت، فلقد كانت العروبة، وكان الاسلام هوية الجزائر، كمنت لحين ، ثم انطلقت فأزاحت الوهم ، وحققت للجزائر النصر الذي تعرفون . . ولـم يفلح معها كل ما صنعه الاستعمار : على امتداد أكثر من قرن من « تطوير وتغيير! » .

التفاعل الحضاري

وغني عن البيان ـ كما أشرنا إلى ذلك مراراً ـ أن « التمايز » الحضـاري ، هـو مـوقف مختلف تمامـاً عن « الانغلاق » أو « العداء » الحضاري . . فرفض الانفتاح على الحضارات الأخرى هو موقف ضار ، فضلاً عن أنه غير ممكن في ظروف ثورة أجهزة الاتصال والتواصل التي تزداد فعالياتها في العصر الـذي نعيش فيه . . . إن « التمايز » الحضاري إنما ينطلق من حقيقة موضوعية تؤكد وجود سمات وخصائص وقسمات تمايز ما بين الحضـارات الغنية والعريقة ، تعبيراً عن تمايز الشخصيات القومية والمكونات التـاريخيـة لأمم تلك الحضـارات . . ولقـد أثبت سيـر التـاريـخ الانساني ، ولا يزال يثبت ويؤكد أن هذا التمايز لم يمنع من التقاء هـذه الحضارات ، وتفـاعلها ، وأن هـذا التفاعـل ، عندمـا كان صحياً ، ومن موقع الاستقلال ـ لا التبعية ـ وبنهج راشد ورشيد ، كانت ثمراته طيبة وخيـرة ، بل وضـرورية لمختلف الأطـراف ، وكانت نتائجه دعماً للتمـايز وليس إلغـاء له ، ونفيـاً للانغـلاق ،

الذي يحمل مخاطر الجمود والضمور والانقراض للحضارة التي تسلك سبيل الانغلاق! . .

إننا إذا نظرنا إلى حضارتنا ، في وضعها الراهن ، الذي فرضت عليها فيه تحديات كثيرة . . من مثل « التخلف الموروث » من عصور التراجع والانحطاط المملوكية العثمانية . . ومن مثل « التغريب » الذي جاءت به الغزوة الاستعمارية الحديثة ، فسنجد أن هذه التحديات قد كادت أن تعزل حضارتنا عن السيادة على أرضها ، وحاولت اقتلاعها اقتلاعاً ، ليحل النموذج الحضاري الغربي محلها ، بزعم أنه « البديل العصري » القادر على « تحديث » الحياة وتغيير « التخلف الموروث » . .

وإذا كنا نرفض « التبعية » للنموذج الغربي ، حرصاً على استقلالنا الحضاري ، وإيماناً منا بأن صلاحيته في بلاده ـ وهي صلاحية يتشكك الغربيون فيها الآن ـ لا تؤهله للصلاحية في بلادنا . . فإننا نرفض ، كذلك، أن يكون « التخلف الموروث » هو البديل للتغريب . . فهذا « التخلف الموروث » لا يعبر عن سمات حضارتنا وخصائصها ، لأنه ، في أغلبه ، وافد مملوكي أو عثماني ، وركام من الجمود والشعوذة صنعه عصر التدهور . . فهو نتوء شاذ عن المجرى الطبيعي لتطورنا الحضاري الأصيل . .

وبالطبع ، فإن رفض « التخلف الموروث » ورفض « التغريب »، يضع على عاتق الفكر العربي والاسلامي ثقل المهمة الأكبر والأعقد . . مهمة البحث الجاد لبلورة المشروع

الحضاري النهضوي البديل . .

فانطلاقاً من الاحتفاظ « بهويتنا » . . وبحثاً في الحضارات الأخرى عن « عوامل القوة » التي تدعم استقلال هذه الهوية ـ ولا تطمسها ـ والتي تزيد هذه الهوية فعالية ـ ولا تضعفها ـ . . والتي تخرج هذه الهوية من « الكمون ـ والوجود بالقوة » ، إلى « الظهور ـ والوجود بالفعل » ـ انطلاقاً من هذين المصدرين ، وصدوراً من هذين المنبعين . . وفي ضوء واقعنا المعاصر ، والتحديات التي تواجه الأمة ، وتشل فعالياتها ، وتبدد طاقاتها ، وتحول بينها وبين الانعتاق والانطلاق . . تأتي ـ بعد استخلاص الهوية من « الموروث » ـ ضرورة البحث في الحضارات الأخرى عن « عوامل القوة » ، حتى يكتمل للأمة المشروع النهضوي الكافل لبعثها الجديد . .

وإذا كان بعض من « الاسلاميين النصوصيين » يتشكك ويشكك في إسلامية وجدوى أي انفتاح على الحضارات الأخرى أو استلهام من هذه الحضارات . . .

وإذا كان بعض من « المتغربين » يتشكك ويشكك في قدرة الاسلاميين ـ بإطلاق ـ على ممارسة الانفتاح الحضاري . . فإننا نقول : إن ما أشرنا إليه من ضرورة التفاعل الحضاري ، ليس كلاماً غريباً على النهج العربي الاسلامي ، ولا هو بالحديث الجديد غير المسبوق، بل إن هذا الموقف هو الموقف العربي الاسلامي ، الغالب . . والأصيل . .

● فالرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من قبل أربعة عشر قرناً ، هو القائل عن « الحكمة » : « إنها الإصابة في غير النبوة » . . . فليست النبوة وعلومها ، فقط ، هي الحاوية للإصابة وللحكمة! . .

وهو صلى الله عليه وسلم ، الذي يعلم أمته ضرورة التماس الحكمة من مصادرها ، بصرف النظر عن المواطن والمعتقدات . . فيقول : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن » . . ولذلك ، فأنّى وجدها فهو أحق الناس بها ! . .

● وفقهاء الاسلام هم الذين شرعوا لضرورة الاستمرارية في مسيرة الفكر الانساني . . فقالوا : « إن شريعة من قبلنا شريعة لنا ، ما لم تنسخ »! . . فليست هناك حواجز تمنعنا من أن نصافح الآخرين ، أو أن نستلهم الوافد المفيد ، بل لا بد وأن نسعى إلى الوافد الصحي والضروري ، الذي يقوي استقلالنا ويدعم هويتنا وذاتيتنا . .

● والكندي ، الفيلسوف [٢٦٠هـ ٨٧٣م] هو القائل : « خليق بنا أن لا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها »! . .

● وابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١٠٢٦ ـ ١١٩٨م] يقول : « إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك . . سواء أكان مشاركاً لنا في الملة أو غير مشارك ، طالما كان صواباً . . » .

● وجمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] هو القائل : « إن أبا العلم وأمه هو الدليل ، والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات . . والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل » .

« والتمدن الأوربي »، هو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني . . ولا ملجيء للشرقي ، في بدايته ، أن يقف موقف الأوربي في نهايته . . ولا بد من التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم . . . أما المقلدون فإنهم يشوهون وجه الأمة ، ويضيعون ثروتها ، ويحطون من شأنها . . إنهم المنافذ لجيوش الغزاة ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون لهم الأبواب . . »! . .

● ورفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م] هو الذي يقول : « علينا أن نأخذ عن أوربا « المعارف البشرية المدنية . . والعلوم الحكْمِيَّة العملية » . . . أما روح حضارتهم وفلسفاتهم فهي مليئة « بالحشوات الضلالية ، المخالفة لسائر الكتب السماوية . . »! .

وعلى هذا الدرب سار رواد المد الاسلامي المعاصر . .

● فكتب حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] : وهو الذي رفض ما في الحضارة الغربية من « مادية وإلحاد وشك وإباحية وأثرة وربا . . » - كتب يقول : « إن طبيعة

الإسلام ، التي تساير العصور والأمم ، وتتسع لكل الأغراض والمطالب . . لا تأبى أبداً الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعد الاسلام الكلية وأصوله العامة . . إنه يدعو إلى أن نأخذ من كل شيء أحسنه ، وينادي بأن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها ، ولا يمنع أن تقتبس الأمة الاسلامية الخير من أي مكان ، فليس هناك ما يمنع من أن ننقل كل ما هو مفيد من غيرنا ، ونطبقه وفق قواعد ديننا ونظام حياتنا وحاجات شعبنا . . » .

● والمودودي [١٣٢١ - ١٣٩٩هـ ١٩٠٣ - ١٩٧٩م] - . وهو من أبرز من انتقد الطابع المادي للحضارة الغربية - هو القائل : « إن موقف الاسلام من الأخذ والعطاء بين الحضارات ، هو شيء فطري في الأمم التي تختلط بعضها ببعض ، فهو لا يجيزه فقط ، بل يريد له الازدهار . . فالإسلام لا يريد لجدران التعصب بين الأمم أن تبقى قائمة ، فلا تأخذ أمة في حضارتها من أمة أخرى شيئاً . . »! .

● وسيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م] - وهو الذي سمى الحضارة الغربية : « الجاهلية الجديدة » - نراه يدعو إلى الاسلام « كتصور مستقل للوجود والحياة . . ينبثق منه - للمسلمين - منهج ذاتي مستقل للحياة كلها . . » . .

وفي ذات الوقت ، يدعو سيد قطب إلى أن نأخذ عن الحضارة الغربية علومها الطبيعية ، التي هي - بتعبيره - « وليدة

العبقرية الأوربية في الابداع المادي . . »! . .

* * *

إذاً ، ليس هناك خلاف في حضارتنا على ضرورة « التفاعل الحضاري » . . فبدءاً من أحاديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، إلى الفقهاء . . والفلاسفة . . ورواد التجديد والصحوة الاسلامية . . ومروراً بتجربة هذه الحضارة في التفاعل مع غيرها من الحضارات ، ليس هناك خلاف حول هذا الموضوع . . لقد كاد الاجماع أن ينعقد في حضارتنا على ضرورة التمييز بين « هوية الأمة » . . التي تميزها حضارياً ، وبين « العلوم القائمة على الحقائق والقوانين وتطبيقاتها ، وهي التي لا وطن لها ولا جنس ، ولا تتشكل بأشكال البيئات الحضارية المتمايزة .

فالهوية ، لا بد وأن نبحث عنها في « الموروث » . . والعلوم الطبيعية ، وتطبيقاتها ، وما هو صالح ومفيد وضروري من التجارب الانسانية ، وكل ما يمثل « مصادر قوة » للهوية الحضارية المتميزة ، لا بد وأن نسعى إليه ، نستلهمه ، ونتمثله . ونوظفه لخدمة « المشروع الحضاري المتميز » ، ولخدمة الهوية الحضارية المتميزة . .

فليس هناك أدنى خلاف ، إذن ، حول ضرورة الانفتاح على الحضارات ، وضرورة التفاعل مع هذه الحضارات ، من موقع الراشد المستقل . . وإنما الخلاف ، كل الخلاف ، هو مع

دعاة « التبعية الحضارية »، الذين يزعمون ـ لتبرير هذه التبعية ـ أن الحضارة الغربية هي الحضارة « الانسانية.. والعالمية .. والعصرية » الوحيدة ، وأنها « النموذج » الوحيد للتحضر والتحديث وهم ، لذلك ، ينكرون « التعددية الحضارية » ، و« التمايز الحضاري »... إن الخلاف ، كل الخلاف ، هو مع هذه المقولة المغلوطة والدعوى الخطرة والباطلة..

إننا إذا وضعنا يدنا على الواقع الحضاري ، التاريخي والمعاصر ، فسنجد هناك تمايزاً بين الحضارات ، وتعددية في الحضارة.. فهل يعلم الذين يزعمون وحدة الحضارة ، التي هي في نظرهم الحضارة الغربية ، ما كتبه السياسي الاستعماري الأمريكي جون فوستر دلاس [١٨٨٨ - ١٩٥٩م] عن وحدة الحضارة الغربية ، تلك التي تضم ، في نظره ، الدعوة الصهيونية وحركتها والكيان العنصري الاستيطاني الذي أقامته في فلسطين ؟!.. هل يعلمون ذلك؟!.. وإذا علموا.. فهل يظلون على دعوتهم لأمتنا العربية الاسلامية إلى « التحضر » بذات الحضارة ، التي تجمع ما بين « دلاس » و« بيجن » و« شارون »؟!.. وهل هذا هو « الموقع الحضاري » الذي يرتضونه لأمتنا .. أمة العروبة والاسلام؟!..

***

إننا لا نؤمن « بالحياد » في الموقف تجاه « الموروث » و« الوافد ».. « فالوافد » طارىء ، لا بد وأن يخضع للفحص

والانتقاء والاختيار . . والمعيار هنا هو مدى ما يمثله من « مصادر للقوة » تتسق مع طابعه الحضاري ، وتزيد هذا الطابع ، قوة تعينه على أن يكون للأمة سبيلاً للتقدم والنهوض . . أما « موروثنا » فهو ذاتيتنا الحضارية ، وإبداع أسلافنا العظام ، ومظهر عبقرية أمتنا ، ومجلى الخصائص التي تميز حضارتنا العربية الاسلامية عن غيرها من الحضارات . .

وهذا « الموروث » ـ الذي يمثل الاسلام مكونه الأول ، ومعيار الصحة والخطأ فيه ـ ليس تاريخاً مضى وانقضى ولا أكفان موتى، ولا قيوداً تشد الحاضر إلى ماض سحيق . . وإنما هو طاقة مبدعة وخلاقة ، وروح سارية في عقل الأمة ووجدانها . . . وإذا كان تمايزنا الحضاري ، وعدوانية الحضارة الغربية ، يفرضان علينا الحذرعندما ننظر في « الوافد » لنختار . . فإننا لا يجب أن ننسى أنَّ « التجديد » هو سبيلنا المأمون إلى تمييز « الثوابت » من « المتغيرات » في « موروثنا » وفرز « المفيد » من « الضار » . . فبالتجديد وحده تعود الحياة لهذا « الموروث » اليوم وغداً . فتتحقق الاستمرارية الحضارية ، دونما قيود على توجهنا وتطورنا إلى الأمام! . .

نحو مشروع حضاري متميز . . .

ونحن نؤمن أن « النهضة » ـ بكل ما تعني من تغيير شامل وجذري ـ هي سبيل أمتنا الوحيد لقهر ما يفرضه عليها الأعداء من تحديات . . ونؤمن ، كذلك ، أن المهمة الملحة لحركتنا الفكرية هي بلورة المشروع الحضاري الذي هو « دليل » هذه النهضة . . وإذا كنا لا نزعم أننا نمتلك كل الوضوح الذي يؤهلنا لبلورة معالم هذا المشروع ، والذي نعتقد أن صياغته لا بد وأن تكون ثمرة عمل جماعي كبير ـ فإننا ندعو كل المؤمنين بتميزناالحضاري ، والمدركين لأهمية وضرورة استقلال أمتنا حضارياً ، ندعوهم إلى الاسهام في بلورة ملامح هذا المشروع ، الذي هو طوق النجاة لهذه الأمة من مخاطر « الجمود والتخلف الموروث » . . ومن مخاطر المسخ القومي والسحق الحضاري والتشوه المعرفي الذي تمارسه الحضارة الغربية مع حضارتنا ، وكل حضارات الأمم التي ابتليت بالاستعمار والتغريب . .

وفي إطار هذه المهمة الفكرية ، فلربما كان مفيداً أن نضع

أمام العقل العربي والمسلم « نقاطاً » هي أشبه ما تكون « برؤوس الموضوعات » و« المحاور » التي نعتقد بدخولها في قسمات صورة ذلك المشروع.. المشروع الحضاري العربي الاسلامي ، البديل.

● **إننا ندعو إلى تأمل « التوحيد »، باعتباره فلسفة الأمة ، وروح حضارتها ، والبوصلة الموجهة لعقلها .. في نظرتها للكون .. وفي الألوهية والتدين .. وفي التأليف الوطني والقومي والاسلامي .. « فالتوحيد » ملمح من أبرز ملامح حضارتنا ـ بل لا نغالي إذا قلنا : إنها حضارة التوحيد .. إنه ملمح من ملامح** حضارتنا ، به تميزت ، وبه جاءت دياناتها السماوية جميعاً .. فنحن نجده في تراث مصر القديمة عند أخناتون [١٣٦٩ ـ ١٣٥٣ ق.م] إلى الحد الذي تحدثت فيه أناشيده عن الله ، سبحانه كإله للكون كله .. إنه جزء من مواريث حضارتنا ، جاءها من بقايا الشرائع الالهية القديمة .. وبه تميزت عن صورة التوحيد في [العهد القديم] ، تلك التي جعلت « التوحيد » أقرب ما يكون إلى الوثنية ، فالله فيها هو إله لبني إسرائيل وحدهم ، أما الشعوب الأخرى فلها آلهتها الخاصة بها؟!..

وحتى وثنية العرب القديمة ، في جاهليتهم التي سبقت الاسلام ، فإنها كانت « انحرافاً » عن جوهر ونقاء هذا « التوحيد » [ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : الله ..] ـ لقمان : ٢٥ ـ .. [ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى

الله زلفى] ـ الزمر : ٣ ـ . .

وهـذه الروح « التـوحيديـة » التي بلغت في روح الحضارة الشرقية مبلغ « الهوية » والثوابت من القسمات ، هي التي جعلت المسيحية تعجز عن تلبية احتياجات الانسان الشرقي الاعتقادية ، عندما أصابتها التأثيرات « الهلينية » بما أخرجها من الاطـار النقي للتوحيد؟! . فكان دخول شعوب الشرق في دين الله ـ الاسلام ـ أفواجاً ، دونما إكراه ، بالترغيب أو الترهيب ، رغم حرية الاعتقاد التي أبقت المؤسسـات الكنسيـة ومـا لهـا من تـراث في الجـدل وخبرات في التبشير . . فلقد كان التوحيد الاسـلامي ، الذي بلغ الذروة في البساطة والنقاء ، والذي أعاد إلى هـذه العقيدة ـ التي هي جوهر الدين ـ صفاءهـا ونقاءهـا : كان هـذا « التوحيـد » هو « الهوية » التي أعادت شريعة الاسلام الكشف عن جوهرها، والتي اجتذبت الانسان الشرقي إليها . .

ولـذلك، فنحن نـدعو إلى تـأمل هـذا « التـوحيـد » ودوره وإمكانياته ، التي من الممكن أن يكشف عنها مشروعنا الحضاري المنشود .

● وندعو إلى تأمل « العروبة»، بمعناها الحضـاري ، غير العـرقي أو العنصري ، وتـأمل العـلاقة العضـوية التي تـربـطهـا « بـالاسلام » بمعنـاه الحضاري ، الـذي يتجاوز نـطاق الشعـائـر والطقوس فـلا يقتصر عليهـا وحدهـا . . . ففي هذه العـلاقة نفي للتناقض المزعوم بين الدائرة القومية والدائرة الاسلامية ، وترتيب

لأولويات العمل ، انطلاقاً من الدائرة الوطنية ، فالقومية ، فالاسلامية ، فالانسانية . . .

. ندعو إلى تأمل علاقة « العروبة » بـ« الاسلام » ، وما تعطي هذه العلاقة من امكانات وملامح في مشروعنا الحضاري الذي نفكر فيه.

● وندعو إلى تأمل « الوسطية الاسلامية » كمعيار للتوازن ، وباعث على الموازنة ، التي غدت ملمحاً من ملامح شخصيتنا الحضارية . . ومن ثم فإنها ملمح من ملامح مشروعنا الحضاري الذي ندعو إليه . .

إنني أتصور أن « وسطيتنا الاسلامية » هذه ستجعل لمشروعنا الحضاري ذاتية متميزة :

● ففي النظرة للإنسان : وسطية ، تراه خليفة لله في الأرض . . وليس السيد المطلق لهذا الكون . . وأيضاً ليس ابن الخطيئة المنبوذ ! . .

وفي الحرية : الاختيار في حدود الثوابت التي تمثل إطار الاختيار . . . ومن ثم ، فهنا وسطية بين الليبرالية المطلقة وبين الشمولية المطلقة . . قد تكون « الديمقراطية الموجهة » هي أقرب الصيغ للتعبير عنها . . . اتفاق على الثوابت والمعايير وإطار المشروعية . . ثم تعددية في السبل والمناهج والفروع والتفاصيل . .

● وفي الاقتصاد : ملكية الرقبة في الثروة القومية لله وحده . . . والأمة ، ككل ، مستخلفة عن الله في الأموال . . فلا مكان للحرية الاقتصادية والملكية الفردية ، بمعناها المطلق في الفلسفة الليبرالية الغربية . . . ولا مكان ، كذلك ، لتجريد الانسان الفرد من أي حق في التملك ، الذي يحفزه للخلق والتنمية والابداع . . . لأن كون « الملكية الحقيقية » لله ، يصحبها كون « الملكية المجازية » للفرد ، أي ملكية المنفعة ـ التي هي الوظيفة الاجتماعية للمال ـ .

● وفي طبيعة السلطة ، وعلاقة الدين بالدولة : توسط بين « الكهانة » ووحدة الدين والدولة ، وبين « العلمانية » وفصل الدين عن الدولة . . يتجسد في « التمييز » بين الدين والدولة . . فالدولة في مشروعنا الحضاري « إسلامية » ، للشريعة ـ بمقاصدها ـ الهيمنة عليها ، والمشروعية في قانونها . . لكنها ليست الدولة « الدينية »، التي تحكم بالحق الالهي و « رجال الدين » فتضفي العصمة والقداسة على البشر وتشريعاتهم باسم الدين ! . .

● وفي مفهوم « الأمة » : توسط بين المفهوم « القومي ـ العلماني » ، الذي يستبعد الدين من القسمات المكونة « للأمة » . . وبين المفهوم « الكهنوتي » ، الذي يستبعد غير المسلمين من إطار « الأمة » . . فالأمة ، بالمعنى القومي ، تستوعب كل الذين وحدت بينهم السمات القومية . . فهم ،

جميعاً ، أمة المواطنة ، يستوون ويتساوون في حقوقها وواجباتها. . ثم هم جميعاً يجمعهم الاحتكام إلى الشريعة ، التي هي - في أغلب ميادينها - قانون وضعي محكوم بإطار الاسلام وحدوده وروحه. . .

وعلاقة هذه الأمة بالدين علاقة وثيقة. . فدين الله واحد ، هو دين التوحيد في الألوهية ، والايمان بالبعث ، والعمل الصالح . . وفي إطار هذا «الدين» - الذي هو واحد أزلاً وأبداً - تعددت وتتعدد « الشرائع » - التي هي طرق للتدين بهذا الدين - أزلاً وأبداً كذلك . فالوحدة في الدين ، والتعدد في الشرائع الدينية - والاحتكام إلى شريعة الاسلام المدنية - التي لا نقيض لها ولا بديل عنها في الشرائع غير الاسلامية - هي صيغة الوفاق والاتفاق بين الأغلبية المسلمة والأقليات غير المسلمة في المشروع الحضاري الذي ندعو إليه. . .

ومكان الاسلام في تحديد مفهوم « الأمة » هو الرباط الذي يجمع الأقليات المسلمة ، غير العربية ، إلى الأغلبية التي جمعت بين العروبة والاسلام!. .

تلك نماذج لملامح في هذا المشروع الحضاري العربي الاسلامي. . وهي بالطبع لا تخرج عن إطار النماذج التي تنتظر - كما قلنا - الجهود الفردية والجماعية التي تغنيها وتكملها ، حتى تتحول إلى مشروع مؤهل لأن ينهض بالأمة وتنهض به الأمة من واقعها الراهن ، الذي تكالبت عليها فيه التحديات. . وخاصة

تحدي « التغريب » وتحدي « التخلف الموروث » . .

وإذا كنا نعتقد بالأهمية التي تمثلها هذه النماذج لهذه الملامح من « المشروع الحضاري » المنشود . فإن الأهم هو الاتفاق على :

● مبدأ التمايز الحضاري ، والتعددية الحضارية . .

● وضرورة الإستقلال الحضاري لأمتنا العربية الاسلامية . .

ثم لنجتهد جميعاً في بلورة ملامح هذا المشروع ، الكافل لأمتنا النهضة والانطلاق . .

تلك هي الكلمة السواء التي ندعو إليها كل الذين يؤمنون بأن الاستقلال الحضاري هو طوق النجاة لأمتنا العربية الاسلامية من مخاطر التحديات التي فرضها ويفرضها أعداؤها الكثيرون . .

- ٣ -
الأزهر والتغريب

تمهيـــد

● أمـا الأزهر ، فهـو ـ رغم انعـدام الحـاجـة إلى تعـريف مشاهير الأعلام ! ـ :

ذلك « المسجد ـ الجامع ـ الجامعة »، الـذي اقترن قيـامه بقيام « القاهرة »، فأعلنا تحول مصر من دور « الولاية » إلى مركز « الخـلافـة »، فكـان منـارة أهلتهـا لتنهض بعبء هـذا الـــدور الجديد . .

لقد شرع جوهر الصقلي [١٨٣١هـ ٩٩٢م] في بنـائه في ٢٢ جماد الأولى سنة ٣٥٩هـ ٣ إبريل سنة ٩٧٠م وتم بناؤه بعـد عامين [٩ رمضان سنة ٣٦١هـ ٢٤ يونيو ٩٧٢م] . .

وإلى جانب الصلاة بدأت تلقى فيه دروس العلم في صفـر سنة ٣٦٥هـ أكتوبر سنة ٩٧٥م ، أواخر عهد الخليفة المعز لدين الله [٣١٩ ـ ٣٦٥هـ ٩٣١ ـ ٩٧٥م] .

فلمـا كان عهـد الخليفة العـزيز [٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ ٩٧٥ ـ

٩٩٦م] استوى الأزهر جامعة علمية ومنارة فكرية وقبلة للعلماء والطلاب من كل الأجناس والأقاليم واللغات والطبقات.. وكان ذلك في سنة ٣٧٧هـ سنة ٩٨٨م... ثم توالت القرون ، وتعاقبت الدول ، وتغيرت النظم ، وتنوعت صروف الدهر.. والأزهر باق ، يزداد رسوخاً ، ويتزايد دوره ، ويتوهج ضياؤه.. فلقد احتضن العربية والاسلام فغدا له في حياة أهلهما مكانة الحمى والحارس الذي نهض وينهض بتنفيذ قضاء الله سبحانه عندما قال : [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون][1]....

هذا عن الأزهر....

● أما « التغريب » ، فإنه : الخاصية الفكرية للحضارة الغربية ، المتميزة بطابعها المادي ، وغير المتقيدة « بالنظرة المؤمنة » للكون ، والجانحة إلى فصل الدنيا عن الدين ، وتحرير الدولة من إطار الدين ، وتنحية النصوص والمأثورات الدينية من طريق العقل في كافة الميادين!...

وإذا كانت حملة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ ١٧٩٨م] قد مثلت طلائع الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على ديار العروبة وعالم الاسلام ، فإن هذه الغزوة الحديثة قد تعلمت من الغزوة الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م] أهم الدروس.. فالصليبيون قد جاءوا إلى بلادنا فرساناً

---

(١) الحجر : ٩.

مقاتلين ، ليس وراءهم فكر ، وليست لديهم مواهب حضارية ، ولا يملكون سَوى الجهل والشراسة والتدمير؟! . . ولذلك ، فعندما أفرز وطننا العربي مؤسسات الفروسية ودولها ـ [زنكية . . وأيوبية . . ومملوكية] ـ وقهر بها الفرسان الصليبيين ، لم تخلف الغزوة الصليبية وراءها أية آثار . . وكان تحرير السلطان الأشرف ابن قلاوون [٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣م] لمدينة عكا من بقايا الصليبيين في ١٧ جمادى الثاني سنة ٦٩٠هـ ١٧ يونيه سنة ١٢٩١م القضاء المبرم على جميع آثار تلك الغزوة التي استمرت قرابة القرنين من الزمان؟! . .

لقد تعلمت الغزوة الاستعمارية الحديثة من سابقتها درساً خطيراً وخطراً؟! فجاءت معها بفكر حضارتها المنتصرة، جنباً إلى جنب مع أدوات الدمار الحربي التي اخترعتها تلك الحضارة . . فبأدوات الدمار تفتح الأرض ، وتقبض على جهاز الدولة، وبالمغامرين والتجار ورؤوس الأموال يتم نهب ثروات عالم الاسلام وامتصاص خيراته وإفقار بنيه . . وبالقواعد العسكرية يتحول عالمنا إلى « هامش » يحقق الأمن لأوربا الاستعمارية . . وبالفكر التغريبي يتم أسر العقل العربي والمسلم ، حتى ينسلخ عن طابعه الحضاري العربي الاسلامي المتميز ، فيتحول ، هو الآخر ، إلى هامش للحضارة الأوربية المنتصرة؟! . .

بل لقد رأس دهاقنة هذه الغزوة وسدنتها أن « التغريب » والنجاح في سحق الشخصية القومية المتميزة للعرب

والمسلمين ، وتحويل أمتنا إلى هامش لحضارة الغرب ، هو الضمان لتأبيد النهب الاقتصادي لبلادنا ، ولبقاء هذه البلاد قواعد لأمن الغرب ، حتى بعد زوال الشكل السافر والمسلح للاحتلال . . فبالتغريب يقع العرب والمسلمون في « الأسر الاختياري »! . . وتصبح « التبعية » للغرب هدفاً يسعى إليه التابعون؟! . .

* * *

ومنذ البدء كان الأعداء على وعي تام بأن « العربية » و« الاسلام » هما حصن هذه الأمة عبر تاريخها الطويل ، وخلال كل الصراعات التي خاضتها في ذلك التاريخ . . . فمنذ أن ظهر الاسلام عقد التاريخ لواء قيادة الشرق للأمة العربية . . . ومنذ ذلك التاريخ كانت صيحة : « واإسلاماه !» هي أصدق الصيحات وأفعلها في تجميع الأمة ضد ما فرض عليها من مخاطر وداهم أوطانها من تحديات . . . ومن هنا كان اتجاه سهام التغريب إلى « العربية » و « الاسلام » . . ومن ثم كان إحداق المخاطر ، مخاطر التغريب بالأزهر ، حصن « العربية » وقلعة « الاسلام »؟! . . وكان الدور الرائد والفريد الذي نهض به الأزهر في أخطر ميادين صراع أمتنا ضد الغزوة الاستعمارية الحديثة! . .

حقاً . . لقد أحكم الاستعمار قبضته على أجهزة الدولة ، فصبغها بصبغته الادارية بل ونجح في أن يجعل قيم حضارته الغربية المعيار والموجه ومصدر المشروعية في هذه الأجهزة . .

ونفث فكريته التغريبية بواسطة « كتاب الاستشراق » وأساتذة الاستشراق الذين صنعوا لجامعاتنا الحديثة المساحة الكبرى من « عقليتها »؟! . . . وغدت القوانين المستمدة من فلسفة حضارته في التشريع هي السائدة والحاكمة في مؤسساتنا القضائية ، بدلاً من « فقه المعاملات » الذي أبدعه فقهاؤنا العظام . . . وتحولت مؤسساتنا الدستورية ، ومعها دساتيرنا ، إلى صورة باهتة لنظائرها في الغرب الاستعماري . . . وامتدت آثار التغريب لتشمل « الرؤى » و« الأفكار » و« المعايير » في الأدب والفن ، بل لقد استعرنا أدوات التعبير ، كما استعرنا المذاهب الفكرية ، وافتعلنا المشاكل حتى نجد في حياتنا الفكرية مكاناً للحلول التي ابتدعها الغرب لما اختصت به مجتمعاته من إشكالات؟! . . . وفي العلوم ومناهجها، وفي الفلسفة ومقولاتها سادت مناهج التغريب الآ-ـادية ، والتي تعتمد « العقل » وحده ، فاقتربنا من نهج الحضارة اليونانية ، بقدر ما ابتعدنا عن وحطية الاسلام التي وازنت ما بين « العقل » و« النقل »، وآخت بين « الشريعة » و« الحكمة »، وزاملت بين كتاب الله المقروء - القرآن - وكتابه المنظور - الكون -! . . . وغدت البيوت في مدننا ، ولدى علية القوم ومتوسطيهم ، وكذلك القيم السلوكية صورة لما هي عليه في أوطان الغزاة . . وأصبحت صحفنا السيارة ، وأزياؤنا المقبولة تقليداً لنظائرها في الغرب . . وغادرت المرأة « الحريم المملوكي - العثماني » ، لا لترجع إلى صورتها العربية الاسلامية : فقيهة في الدين ، مستقلة الذمة في المال ، والرأي في الزواج ، سكناً

وسنداً في تكوين الأسرة وبناء لبنة المجتمع الأساسية ، مداوية للجرحى ، ومشاركة في الجهاد . . الخ . . الخ . . وإنما ـ غادرت « الحريم » القديم لتسلك درب المرأة الغربية ، مازجة « الاسترجال » بالاغراق في استجلاب أدوات الزينة والشهوة على دربها الجديد؟! . . . . ونشأت الأحزاب السياسية ، فإذا النظريات والبرامج ، بل و« اللوائح » وقواعد التنظيم ـ فضلاً عن المثل الملهمة ـ لدى الكثير منها ـ امتداد لترسانة الغرب الاستعماري في هذا الميدان؟! . . . وظهر الحديث عن حاجة التقدم إلى سيادة اللهجات العامية في الحديث والحوار ، بل والكتاب والصحيفة ، بدلاً من لغة القرآن؟! . . .

هكذا . . . وعلى هذا النحو ، شهدت أرضنا طوفان التغريب ، وامتدت آثاره فلونت بلونه عقول « الصفوة » و« النخبة » التي صنعت في جامعات الغرب ، أو في جامعاتنا التي قامت على نمط جامعات الغرب ، اللهم إلا من عصم الله من آثار هذا الطوفان الطاغي الذي اقتحم ديارنا في ركاب الاستعمار الحديث! . . . .

الأزهر؟! :

لكن الأزهر ربض في موقعه ، متحصناً « بالعربية » و« الاسلام »، وذائداً عنهما ، ورافضاً كل ألوان التغريب ، وممثلاً الاستثناء ـ ربما الوحيد ـ الذي رفض التغريب ونجا من تأثيراته ، لأكثر من قرن ، حتى ظهرت ـ لتزامله في رفض التغريب ـ

التنظيمات الاسلامية التي شرعت تجاهد من أجل الاسلام السياسي والدولة الإسلامية . . .

وهنا . . من حق المرء ، بل ومن واجبه أن يتساءل :

لماذا استطاع الاستعمار - دون كبير عناء - أن يمد طوفان التغريب الى الحد الذي حاصر به الأزهر ومعاهده الدينية المعدودة على الأصابع ، رغم ما للأزهر من تاريخ عريق ، وما في « العربية » و« الاسلام » من طاقات نضالية متناقضة بالطبع مع فكرية التغريب ؟! . . ولماذا لم تتسع الدائرة الرافضة للتغريب من حول أزهرنا العريق؟! . . .

في اعتقادنا أن السبب الرئيسي في ضعف إمكانيات الأزهر المقاومة لتيار التغريب ، كامن في أن الهجمة التغريبية قد داهمت الأزهر وهو في « لحظة ضعف »! . . وأنه قد خاض معركته هذه وهو أشبه ما يكون بمن « نزع سلاحه »! . . أو على الأقل سلاحه الأفعل في مثل هذا الصراع؟! . . .

لقد عاش الأزهر حياة مصر والعروبة والاسلام ، كائناً حياً ، يفعل في الأمة ، وينفعل بها . . يقوى بقوتها ، ويضعف بضعفها . . . فلما كانت العصور الوسطى ، وسيطرت السلطة العسكرية المملوكية الأعجمية على الدولة ، دخلت حضارتنا دور الأفول ، فتوقف الابداع والخلق والاجتهاد في ميادين « العربية » و« الإسلام » ، وبعد مرحلة « الجمع والتصنيف » المملوكية ،

انحـدرنـا إلى مـرحلة « الشـروح والحـواشي والتهميشـات » العثمانية ، فضعفت فعالية أسلحة الأزهر عن النـزال ، وعن نزال فكرية التغريب بالذات ، تلك التي جاءت مسلحة بثمرات إبداع حضـارة منتصـرة ، ملكت العلم وتـطبيقـاتـه ، وامتلكت الأرض وأحكمت قبضتها على رقاب المستضعفين!...

ولقد أسهم في زيادة ضعف الأزهر عن المقاومة ما أصابه به العثمـانيون خـلال القرون الثـلاثـة التي سبقت غـزوة الاستعمـار وهجمة التغريب...

● فـالسلطان العثمـاني سليم [٨٧٥ - ٩٢٦هـ ١٤٨٠ - ١٥٢٠م] عنـدما فتـح مصر [سنـة ٩٢٣هـ ١٥١٧م] نـزف من عروقها أزكى دمائها ، وحملها معه إلى بلاده : لقد انتزع من مصر ألفاً وثمانمائة إنسان ، فيهم أبرز الصناع والعلماء والمبـدعين في مختلف الفنـون والصناعـات ، وفيهم أيضاً قـاضي القضاة وأبـرز الفقهاء؟!.. لقد فرغ عقل مصر من أبرز حملته وصناعه ، فزادت خسارتها بفقدهم عن خسارتها في التحف والنفائس والمصنوعات والآثـار التي اغتصبهـا هـذا السلطان من المسـاجد والأضرحـة والقصور ، وحملتها لـه قوافـل الجمال إلى الآستـانة !.. وكمـا تعـطلت بمصر خمسـون صناعـة[1] ، أصـاب الضعف والعـطب إمكانات الأزهر الشريف!..

---

(١) أمين سامي باشا [تقويم النيل] ج ٢ ص ٦ ، ٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩١٦م .

● وبعـد أن كان الأزهـر يمد مصـر ـ فضـلاً عن غيـرهـا ـ بـالقضاة ، أصبح قضاء مصـر للأتـراك منذ المحـرم سنة ٩٢٩هـ ـ نوفمبر سنة ١٥٢٢م ـ[1]! . .

● وكانت المدارس ، التي بنيت بمصـر منذ عصـر صلاح الـدين الأيوبي [٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م] قـد غـدت الامتداد المادي والفكري للأزهر ، يدرس فيها شيوخه ، ويتخرج منهـا العلمـاء على منهجـه ، فجـاء العصـر العثمـاني ليـدمرهـا بمظالمه ، حتى ليتحـدث علي مبارك بـاشا [١٢٣٩ ـ ١٣١١هـ ١٨٢٣ ـ ١٨٩٣ م] عن ذلك في [الخطط] فيقول : « لقد أهمل أمر المدارس ، وامتدت أيدي الاطماع إلى أوقافها ، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا في مفارقتها . وصار ذلك يـزيد في كـل سنة عما قبلها ، لكثرة الاضـطرابات الحـاصلة بالبـلاد ، حتى انقطع التدريس فيها بالكلية ، وبيعت كتبها وانتهبت ، ثم أخذت تتشعث وتتخرب . . فامتدت أيدي الظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبـابيكها ، حتى صـار بعض تلك المدارس الفخمـة والمبـاني الجليلة . . زريبـة أو حـوشـاً ، أو غيـر ذلـك . ولله عـاقبـة الأمور[2] »؟! . .

---

(١) المصدر السابق . ج ٢ ص ٧ .

(٢) علي مبارك [الأعمال الكاملة] ج٣ ص٤٠٦ ، ٤٠٧ . دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨١م .

● ولقد انعكس « الفقر المادي والفكري »، الذي ميز الحقبة العثمانية ، على الأزهر ، فزادت غربته عن العلوم التي أبدعها السلف ، والتي تأسست عليها صفحة ازدهار حضارتنا ، ووقف التدريس فيه عند الكتب التي ألفها « علماء » العصر « المملوكي ـ العثماني » ، وهو العصر الذي توقف فيه الابداع وأغلق فيه باب الاجتهاد. . بل واقتصر التدريس ، غالباً ، على علوم الوسائل والأدوات. . . حتى لقد غدت علوم وفنون مثل : المنطق والفلسفة والتاريخ والجغرافيا ، غريبة ، يرتاب فيها الكثير من الشيوخ ، ويخشون ضررها على الاسلام؟! . .

وفي الحوار الذي يحكيه المؤرخ الجبرتي [١١٦٧ ـ ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢م] والذي دار بين الوالي التركي أحمد باشا ـ [كور وزير] ـ وبين شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوي [١٠٩٢ ـ ١١٧٠هـ ١٦٨١ ـ ١٧٥٧م] تجسيد للحال الفكرية التي بلغها الأزهر [١١٦٢هـ ١٧٤٩م] أي قبل نصف قرن من حملة بونابرت وبدء هجمة التغريب :

« **الوالي التركي** : المسموع عندنا بالديار الرومية ـ [التركية] ـ أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها ، فلما جئتها وجدتها ـ كما قيل ـ : « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه »؟! . .

شيخ الأزهر : هي يا مولانا ، كما سمعتم ، معدن العلوم والمعارف .

الوالي : وأين هي؟! وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً ، وغاية تحصيلكم : الفقه ، والمعقول ، والوسائل ، ونبذتم المقاصد! . . .

شيخ الأزهر : . . . غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة إلى علم الفرائض والمواريث . . .

الوالي : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشريفة ، بل هو من شروط صحة العبادة ، كالعلم بدخول الوقت ، واستقبال القبلة ، وأوقات الصوم والأهلة ، وغير ذلك .

شيخ الأزهر : نعم . . معرفة ذلك من فروض الكفاية . . . **وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقة الطبيعة ، وحسن الوضع ، والخط ، والرسم والتشكيل ، والأمور العطاردية . وأهل الأزهر بخلاف ذلك ، غالبهم فقراء ، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق ، فيندر فيهم القابلية لذلك!**[1] » .

هكذا صنعت الحقبة العثمانية بالأزهر . . قلصت مجاله المادي ، بتدهور المدارس التي مثلت هذا المجال ، وأصابته

---

(١) الجبرتي [عجائب الآثار] ج ٢ ص ٨٢ ـ ٨٥ . طبعة لجنه البيان العربي . القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

بالفقر الفكري ، الذي كان سمة لهذه الحقبة في كل المجالات وجميع الولايات. . . وهكذا جاءت الهجمة التعريبية القوية لتجد الأزهر أشبه ما يكون بالفارس الذي يحمل سلاحاً تراكم عليه الصدأ وعلاه الغبار؟!. .

لكن الأزهر ـ مع ذلك ـ لم يستسلم ، وما كان بالامكان أن يستسلم لتيار التغريب. . لقد حصن موقعه ، فنجا ، لأكثر من قرن ونصف ، من تأثيرات التغريب ، ومثل وسط المجتمع الذي مال إلى التغريب الاستثناء الداعي إلى أن تعود الأمة إلى ذاتها وهويتها الحضارية المتميزة ، والتي بدونها لن يتحقق لها الاستقلال الحقيقي عن التبعية للاستعمار! . .

والأمر الذي يثير الدهشة والإعجاب معاً أن الأزهر في معركته هذه التي قاوم بها التغريب قد استخدم كل أسلحته ، السلبي منها والايجابي على حد سواء؟!. .

المقاومة بـ« المحافظة » :

في صراع أمتنا ضد التحديات التي فرضها عليها الأعداء تجارب تعز على الفهم والتبرير من قبل الذين لا يفقهون الحدة والعنف والمخاطر التي مثلتها هذه التحديات. . . ففي الجزائر ، مثلاً ، وعندما مارس الاستعمار الفرنسي قهر الشخصية القومية للشعب الجزائري ومسخ الهوية الحضارية للأمة ، بمحاولته « فرنستها » ، وسلخها من العروبة وانتزاعها من الاسلام

الحق . . . حارب الجزائريون دفاعاً عن ذاتهم الحضارية وهويتهم القومية بكل ما أتاحت لهم ظروفهم الصعبة من أسلحة وإمكانيات . . **وعندما أصبح « التعليم » يعني « الفرنسة » ، والانسلاخ عن الهوية المتميزة عن المستعمرين ، أصبحت « الأمية » سلاحاً احتمى به العامة واعتصم به الجمهور ضد الذوبان في حضارة الاستعمار؟! . . فالذين ظلوا على « أميتهم » ظلوا عرباً مسلمين ، حتى قيض الله للشعب قيادته العربية المسلمة المناضلة، ممثلة في [جمعية العلماء المسلمين] بقيادة الشيخ** عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠م] **فخاضوا المعركة المقدسة التي أعادت الجزائر إلى أحضان العروبة والاسلام! . . .**

وفي صراع أمتنا ضد التغريب صنع القطاع الأكبر من علماء الأزهر شيئاً شبيهاً . . ففي مواجهة الفكرية التي لا تعترف بغير « العقل » ـ بمفهومه اليوناني ـ والتي تتبنى نهج الحضارة اليونانية ، التي لم تعرف عقلانيتها الوحي والنصوص والمأثورات ، تحصن جمهور علماء الأزهر ـ والأزهر كمؤسسة تعليمية ـ « بالنقل والنصوص والمأثورات» ! . .

وكانت الحضارة الغازية قد أدهشت « الصفوة » وبهرت « النخبة » ، ورجحت كفتها كل الرجحان عندما عقدت المقارنة بينها وبين الفكرية التي سادت في العصر « المملوكي ـ العثماني » . . . ورفضاً لهذه الحضارة الغازية استمسك الأزهر

كمؤسسة والجمهور الأعظم من علمائه بهذه الفكرية التي سادت في تلك القرون!. . لقد اعتصموا « بالقديم » ، على علاته ، خوفاً من « الجديد ـ الغريب »، وانطووا على « الذات »، بما حملت من أمراض ، حذراً من أن يقتلعها « الجديد الوافد »!. .

ولقد كان لهذا الموقف « المحافظ » على القديم ، بل والمتسم « بالجمود » في محافظته هذه ، منطقه الذي أفرزته ظروف الصراع. . . فالمحافظة على « الذات »، بما فيها من سلبيات ، خير من فقدانها بالكلية . . وبقاء « القديم »، على علاته ، أولى من سيادة « الجديد التغريبي » الذي يهدد بسحق الشخصية القومية والهوية الحضارية للأمة. . وفي الحالة الأولى ـ المحافظة والجمود ـ تبقى « الذات »، وتبقى إمكانية تجديدها وتطويرها. . . أما في الحالة الثانية ـ التغريب ـ فإن الخطر يحدق بمستقبل الأمة الحضاري ، ويهدد ذاتيتها بالذوبان!. . .

كان ذلك منطق أهل « المحافظة » على القديم ، والاعتصام بهذه المحافظة إلى حد « الجمود » ، وكان ذلك موقفهم تجاه طوفان « التغريب ». . وهو منطق وموقف لا يخلو من الوجاهة ، ولا تنعدم منه الايجابيات ، خاصة إذا رأيناه في إطار عصره ، وعلى ضوء الخطر الذي تصدى له ، آخذين في الاعتبار المقارنة بين أهله ، الذين ظل انتماؤهم للأمة واضحاً وأصيلاً ، وبين الذين تغربوا ، فأصبحوا ـ كما قال جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] ـ : « منافذ لتطرق

الأعداء. . . وطلائع لجيوش الغالبين ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم![1] » .

والمقاومة بـ« التجديد » :

لكن بعضاً من نابهي علماء الأزهر رفضوا موقف الجمهور ، ورأوا المخاطر الكامنة في مقاومة التغريب بالمحافظة والجمود ، فشرعوا ينبهون قومهم إلى ضرورة « التجديد » ، باعتباره الطريق الأكثر أمناً والسبيل الأفعل في الحفاظ على ذاتية الأمة الحضارية والنجاة بمستقبلها من الذوبان في حضارة الغزاة. . . **لقد أبصروا أن المحافظة والجمود والانكفاء على فكرية الحقبة المملوكية العثمانية قد تضمن نجاة المحافظين من الذوبان والتغريب ، لكنها لن تضمن نجاة الأمة من هذا الخطر الداهم ، لأن مذهب المحافظة والجمود لا يقدم « البديل » الذي ينافس ما يقدمه المتغربون ، بل إن ما لدى المحافظين لا يعدو فكرية عفى عليها الدهر ، ولا علاقة لها بجوهر فكر الاسلام وإبداع المسلمين في عصر الأزدهار الحضاري. . .**

أبصر أعلام التيار التجديدي هذه الحقيقة، وطرحوا منطقهم الجديد :

● إنك إذا لم تجدد فقه المعاملات وتطوره ، بالاجتهاد ،

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٧ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

فستدفع الناس ـ تحت إلحاح الضـرورة ، والافتقار إلى البـديل ـ ستـدفعهم لتبني القـوانين الـوضعيـة ، على مـا فيهـا من خـلاف للشريعة ومخالفة للدين! . . .

● وأنت إذا لم تجـدد أسـاليب الكتـابـة والتعبيـر وتـطور « العربية » كي تستوعب فكر العصر وعلومه ، فـإنك تفتـح الباب واسعاً لدعاة الكتابة باللاتينية وتدريس العلوم بلغات « الفرنجة » ، وتبني مذاهب الغرب وأساليب أهله في التعبير! . . .

● وإذا نحن لم نجدد فكرنـا الاسلامي ، بتخـليصـه من سذاجة العصور المظلمة وخرافاتها ، وبإحياء العقلانية الاسـلامية المتميزة وتطويرها ، غلبتنا على عقول النـاشئة ، واستـولت عليها رغماً عنا فلسفات الغرب اللادينية! . . .

فبالتجديد نستطيع أن نجعل من فكرنا الاسـلامي المنطلق والمصـدر والمكون الأول لنمط حضـاري متميز ، نتقـدم بـه إلى الأمة باعتباره السبيل لنهضتها الحديثـة وبعثها القـومي الجديـد ، وبـذلك يتقـدم الأزهـر ـ بـاسم الاسـلام والمسلمين ـ بـالبـديـل المنـافس ، عن جدارة وبـاقتدار ، لفكـريـة التغـريب التي تبشـر بحضـارة الغرب سبيـلاً أوحد للنهضـة والتقدم . . أمـا المحافـظة والجمود ، فإنهما وإن أنقذا ذوات المحافظين من التغـريب ، إلا أنهما ـ لعجزهما عن تقديم البديل الصـالح والقـادر على منافسة الحضارة الغربيـة المنتصرة ـ وفي المـدى الطويـل ـ يمثلان أكبـر خدمة تقدم لدعـاة التغريب؟! . . فـالمحافـظة والجمود سيـدعان

الأمة فريسة سهلة ، سرعان ما تقع في شراك المتغربين! . . .

هـذا فكـر وبشـر المجـددون من نـابهي علمـاء الأزهـر الشريف! . . وعلى هذا الدرب التجديدي تواصلت حلقات أعلام التجديد ، أولئك الذين خالفوا وصارعوا تيـار « المحافـظة » وتيار « التغريب » كليهما ! . . .

الشيـخ حسن العـطار : [١١٨٠ - ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ - ١٨٣٥م] :

أما طليعة هذا التيار التجديدي فهـو حسن العطار. . ذلـك الشيخ الذي جـاب أقاليم الـدولة العثمـانية، فـاطلع على مواطن ضعفهـا ، ثم اقتـرب من علمـاء الحملة الفـرنسيـة على مصـر ، يعلمهم العربية ويقرأ كتبهم ويطلع على تجاربهم العلمية ويتـأمل منـاهجهم في التفكيـر ووسـائلهم في التعبيـر. . ويلمس أسبـاب قوتهم . . .

وبعد أن تأمل الشيخ العطار مواطن ضعفنا وأسبابه ، ومظاهر قوة الغرب وعواملها ، أدرك أن انقـطاع أمتنا عن علوم الحضـارة العـربية الاسـلاميةالحقيقيـة ، والـوقـوف عنـد علوم الـوسـائـل والأدوات ، وإهمال علوم المقاصد والغايات ، هو الـذي يحول بين الأمة وبين امتلاك سلطان العلم ، ذلـك الذي امتلكتـه أوربا فتسلحت به وجاءت لتستعبـد بقوتـه وجبروتـه أمة الاسلام! . . فالتصدي لأوربا لن يكون بالمحافظة والجمود ، وإنما بالتجـديد

والتغيير . . ومن هنا كانت صيحة العطار : « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها »؟! . . .

لقد قرأ الرجل في العلوم والفنون ، التي كان معاصروه يرونها غريبة عن الأزهر ، بل وخطرة على الدين . . ووجه طلابه إلى دراسة هذه العلوم[1] . . . ثم شرع يحدث شيوخ عصره عن أصالة هذه العلوم في حضارتنا وتراثنا ، وعن إخبائها لعلوم الشريعة ، فقال : « إن من تأمل في علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا ـ مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية ـ لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التي ألفت فيها ، حتى كتب المخالفين في العقائد . . ثم هم ـ مع ذلك ـ ما أخلوا في تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات! . . » .

ثم يمضي العطار ليقارن بين حال هذا السلف الصالح وبين حال الخلف غير الصالح ، في عصره ، أولئك الذين وقفوا عند « النقل » ، وعجزوا عن « التجديد والابداع والاجتهاد » ، وكان وقوفهم عند مؤلفات عصور الانحطاط دون عصور الازدهار والابداع . . فيقول : **« ومن نظر في ذلك ، وفيما انتهى إليه الحال في زمان وقعنا فيه علم أنا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم؟!! . .**

---

(١) انظر [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج ١ ص ٥٣٦. دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م . ومحمد عبد الغني حسن [حسن العطار] ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٧٠ ، ٧٥. طبعة دار المعارف ـ سلسلة نوابغ الفكر العربي ـ القاهرة سنة ١٩٦٨م .

فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عندنا ، وقد اقتصرنا على النظر في كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم ، نكررها طول عمرنا ، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر في غيرها ، حتى كأن العلم فيها! . . »[1] .

وفيما يتعلق بتجديد سبل التعبير ، تخفف العطار من السجع والمحسنات اللفظية . . وأدخل « فن الكتابة » في دروسه بالأزهر ، ولفت أنظار طلابه إلى الأمهات في فن الشعر العربي ـ كالأغاني للأصفهاني ـ وسلك في تحقيق النصوص القديمة منهجاً علمياً في توثيق هذه النصوص وتقويم مادتها . . ووجه النابهين من تلاميذه الشيوخ إلى تدريس الأشعار والأخبار ، وما يطور ويجدد وسائل البيان[2] . . .

ولقد انعكس هذا النهج التجديدي للشيخ العطار في الميادين التي اهتم بالكتابة والتأليف فيها، فوجدنا له في الحكمة والمنطق والكلام والعلوم البحتة ، مثل الهندسة والطب والتشريح والفلك نحواً من ثلاثة عشر كتاباً[3]؟! . . .

---

(١) انظر [حاشية العطار على جمع الجوامع ، ج ٢، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ . طبعة القاهرة سنة ١٣١٦هـ .

(٢) [حسن العطار] ص ٦٦ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٠ .

المرجع السابق . ص ٨٤ ، ٨٥ . وانظر كذلك الفيكونت فيليب دي طرازي

(٣) [تاريخ الصحافة العربية] ج ١ ص ١٢٩ . طبعة بيروت سنة ١٩١٣ م .

الشيخ رفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠ ١٨٠١ - ١٨٧٣م] :

وثاني أبرز هؤلاء المجددين ، هو الشيخ رفاعة ، تلميذ الشيخ العطار! . .

لقد تخرج الطهطاوي من الأزهر سنة ١٨٢٢م ، واشتغل بالتدريس فيه عامين ، وبالوعظ في الجيش عامين . . ثم سافر إلى باريس خمس سنوات ليؤم طلاب البعثة العلمية في أمور الدين . . لكنه تعلم هناك الفرنسية وعلومها ، ورصد مشاهداته بين ظهراني أهلها . . فلما عاد إلى الوطن سنة ١٨٣١م أصبح إماماً للحركة الفكرية وللعملية التعليمية على حد سواء؟! . .

والبعض يتوهم - من فرط إعجاب الطهطاوي بعلوم الحضارة الأوربية - أن الرجل كان الطليعة لدعوة « التغريب »، على حين نراه واحداً من أبرز دعاة التجديد لحضارتنا العربية الاسلامية! . .

● لقد وعى الطهطاوي تراث أمته ، وعرف أن العلماء في تراثنا الحضاري لم يكونوا هم الفقهاء فقط . . ولقد وجد ذلك في باريس . . فلما وجد الأزهر قد خاصم علوم الحضارة ، ووقف عند علوم الشريعة ، انتقد هذا الواقع ، لا من منطلق « المتغرب » وبمنطقه ، وإنما من منطلق من يضرب المثل ويستمد العظة والعبرة من نهج معاصر بهرت ثمراته معاصريه؟! . . قال

الطهطاوي لقارئه : « . . . ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس . . فاسم العلماء يطلق على من له معرفة في العلوم العقلية . . وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عمن عداهم ، وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها ، وأن الأزهر ، وجامع بني أمية بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس بخارى ، ونحو ذلك ، كلها زاخرة بالعلوم النقلية ، وبعض العلوم العقلية . . من العلوم الآلية![1] » . . .

● أما علوم المقاصد والغايات ، والتي خاصمها الأزهر يومئذ ، وأساء بها الظن ، وخاصة عندما رآها متداولة بين يدي الأوربيين ، فإن الطهطاوي يدعو إلى تعلّمها ، فهي علوم إسلامية الأصل ، إنسانية الانتماء ، وهي علوم « التمدن المدني » ، ولن تضار الشريعة ولا التمايز الحضاري إذا جاورت هذه العلوم علوم الشريعة في مناهج الأزهر الشريف . . . فهو يدعو طلاب الأزهر وشيوخه إلى أن يضيفوا إلى علوم الشريعة « معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التي لها مدخل في تقدم الوطنية . . . فهذه العلوم الحكمية العملية[2] ، التي يظهر الآن أنها أجنبية ، هي علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن في خزائن ملوك الاسلام

---

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) أي المعللة بحكمة وعلة ، والخاصة بالتطبيقات . . ويقابلها علوم الدين ، المأخوذة من الوحي ، والتي نتعبد بها ، نظراً وتطبيقاً .

كالذخيرة؟!..[1] »..

● بل إن الطهطاوي ـ وهو الذي نهض بالمسؤوليات الرائدة في « التعليم المدني » على عهدي محمد علي باشا [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م] والخديوي إسماعيل [١٢٤٥ ـ ١٣١٢هـ ١٨٣٠ ـ ١٨٩٥م] ـ يحدثنا عن أن امتزاج علوم الحضارة بعلوم الشريعة في الأزهر هو وحده الكفيل بتحقيق الآمال؟!.. « فمدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط بجماعة الأزهر ، التي ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية![2] »..

واليوم... وبعد قرن ونصف من كتابة الطهطاوي لكلماته هذه، نتساءل: **ترى لو وضعت أفكار الرجل في التطبيق، أكان هناك مجال لما حدث من ازدواجية في مؤسسات التعليم ، أتاحت للتغريب نصيب الأسد في هذه المؤسسات؟!..**

● وعندما استجابت الدولة لتأثيرات التغريب الاستعمارية ، ولم يسعفها تيار المحافظة بالاجتهاد الفقهي الذي يجعل الشريعة تلبي احتياجات العصر ، فطلبت من الطهطاوي أن يترجم القانون الفرنسي... من باب العلم بالفكر القانوني الأوربي ، أولاً.. ثم

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج ١ ص ٥٣٤ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٥٣٣ .

تصاعد النفوذ التغريبي فجعل هذا القانون الفرنسي شريعة للمحاكم المختلطة ! . . كتب الرجل ليذكر قومه بتراثهم الاسلامي في فقه المعاملات ، وليدعو إلى تطويره بالاجتهاد كي يلبي احتياجات العصر فلا تقع مؤسستنا القانونية والقضائية في أسر التغريب . . كتب يقول : « . . **والمعاملات الفقهية ، لو انتظمت ، وجرى عليها العمل ، لما أخلت بالحقوق ، بتوفيقها على الوقت والحال ، مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الأمور المستيقظين! . . ذلك أن من أمعن النظر في كتب الفقه الاسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية ، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبواباً مستوعبة للأحكام التجارية ، كالشركة ، والمضاربة ، والقرض ، والمخابرة ، والعارية ، والصلح ، وغير ذلك . .[1] » . .**

● وكما كان الطهطاوي صريحاً في دعوته للاستفادة من « التمدن المدني العملي » في الحضارة الأوربية ، فلقد كان صريحاً كذلك في دعوته للحفاظ على تمايزنا « الفكري والثقافي » . . فالطابع المادي في الحضارة الأوربية ، والذي جعل عقلانيتها منكرة للوحي والشرع ، جانب خطر ، يرفضه الطهطاوي ، ويحذر من الوقوع في شراكه وحبائله . . وهو يحكي كيف أن للأوربيين في العلوم الفلسفية « حشوات ضلالية ، مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون عليها أدلة يعسر على الإنسان

---

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٦٩ .

ردها؟! . . . إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من البدع . . . وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه . . فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع؟! . .[1] .

« فالعقل » الذي يتحفظ الطهطاوي ، هنا ، على تحسينه أو تقبيحه للأشياء - ما لم يؤيد الشرع حسنها أو قبحها - هو « العقل » في الحضارة الأوربية ، المنكر « للنقل »، والذي لا يقيم من « الوحي » إطاراً يتحرك فيه . . أما « العقل » في حضارتنا ، ذلك الذي زامل « النقل » وتآخا معه في الهداية للإنسان ، بالتوازن الذي أثمره إخاؤهما ، فهو مما تتميز به حضارتنا وتمتاز ، ولسنا مدعوين من قبل الطهطاوي ، والنهضة التي كان علماً عليها ، إلى التخلي عن هذا الذي يميزنا حضارياً عن الأوربيين! . . .

الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] :

أما الإمام محمد عبده فلقد كان أبرز أعلام هذا التيار التجديدي ، وأعظم من تكونت للتجديد من حوله مدرسة في تاريخنا الحديث . . لقد نضج عقل الإمام ومصر رازحة تحت الاحتلال الانجليزي . . ومن آفات الهزيمة تقليد المهزومين

---

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ١١٤ ، ١١٥ .

للمتصسر تقليداً أعمى ، وأكثره ما يكون في الشكليات والسلبيات ؟!.. الأمر الذي زاد من مخاطر التغريب.. وعلى الجانب الآخر بدا عجز المحافظة والجمود في الصراع ضد المتغربين ، خصوصاً مع تزكية السلطة الاستعمارية لتيار التغريب.. وأمام هذا الاستقطاب الذي جعل الأمة فريقين ، المتغربين ، وأهل الجمود ، أعلن الاستاذ الإمام رفضه لكلا الموقفين ، **وبشر بالموقف الثالث الداعي إلى تجديد « دنيا » الأمة عن طريق تجديد « دينها »، بتنقية أصوله وجواهره من غبار عصور الانحطاط !.. ولقد حدثنا عن هذا الموقف الثالث ، الداعي لتحرير العقل الاسلامي كي ينهض بأمته ويبعث حاضرها ويبني مستقبلها ، انطلاقاً من الأصول وعصور الازدهار ، وبالتجاوز لمرحلة الجمود والانحطاط...** حدثنا عن هذا الموقف فقال : « لقد نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ، ودخلت فيما فيه يدخلون ، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون ، واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون ، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه ، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت إليه ، وارتفع صوتي بالدعوة إلى :

١ ـ تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري.. فهو صديق للعلم ، باعث على البحث في أسرار الكون ، يدعو إلى

احترام الحقائق الثابتة ، ويطالب بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل . .

٢ ـ إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير . . .

٣ ـ التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . .

ولقد خالفت في الدعوة إلى ذلك رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون العصر ومن هو في ناحيتهم ! . .[1] » . .

وعلى حين كان تيار « المحافظة » يرفض التجديد والتغيير في علوم الأزهر وطرائق التدريس فيه . . وتيار التغريب يدعو لأن نبدأ من حيث انتهت أوربا ، لنصبح أوربيين ، نفكر كما يفكرون ونحيا كما يحيون . . . دعا الأستاذ الامام إلى الموقف الثالث ، الرافض لدعوتي الجمود والتغريب على حد سواء . .

● فهو ينتقد مناهج التعليم في المدارس الاميرية . . وفي المدارس الأجنبية . . . وأيضاً ينتقد مناهج الأزهر الشريف ![2] . .

● وهو قد علق الآمال في الاصلاح على تجديد المؤسسات

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] . ج ٢ ٣١٨ ، ٣١٩ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

(٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ١١٠ ـ ١١٢ .

الـدينيـة الكبـرى الثلاث : الأزهـر ، والقضـاء الشـرعي ، والأوقـاف. . وتحدث عن أن اصلاح الأزهر وتجـديده هـو طوق النجاة له من الخراب؟![1]. .

● وانتقد « التقليد »، وهاجم « سلفية البداوة النصوصية »، ومجد العقلانية الاسلامية التي جعلت للعقل أعظم السلطان حتى في ميدان النصوص والمأثورات. . فالذين « يقفـون عند ما يفهم من لفظ الـوارد ، دون التفات إلى مـا تقتضيه الأصـول التي قـام عليهـا الـدين. . هم أضيق أفقـاً من المقلدين ، وليسـوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء![2] »... « والعقل هو جوهر إنسـانية الانسان . . وهو أفضل القوى الانسانية على الحقيقة. .[3] »... « والقرآن ـ وهو وحده المعجز الخارق ـ قد دعا الناس إلى النظر فيـه بعقولهم ،. . فهـو معجزة عـرضت على العقـل ، وعـرفتـه القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر في أنحائها ، ونشر ما انطوى في أثنائها. . فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الانساني الـذي يجري على نـظامه الفـطري. . والمرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع بـه. . فمن ربي على التسليم بغير عقل ، والعمل ، ولو صالحاً ، بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الإيمـان أن يذلـل الانسان

---

(١) المصدر السابق . ج ٣ ص ١٧٧ .

(٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ٣١٤

(٣) المصدر السابق . ج ٥ ص ٤٢٨ ، ج ٣ ص ٢٨٩ .

للخيـر ، كما يـذلل الحيـوان ، بل القصـد منـه أن يـرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعـرفان في دينـه ، فيعمل الخيـر لأنه يفقه أنه الخير النافـع المرضي لله ، ويتـرك الشر لأنـه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه! . .[1] » . . وليس هناك أدنى خـلاف بين الدين والعلم ، فقـوانين الكون ـ التي هي مـوضوع البحث العلمي ـ هي « سنن الله في الأمم والأكوان . . وهي ثابتة لا تتبـدل . . ومهما بحث النـاظر وفكـر ، وكشف وقرر ، وأتى لنـا بأحكام تلك السنن ، فهو يجري مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ! . .[2] » . .

● وإذا كان تيار « المحافظة » ، الجامد عند فكريـة العصر « المملوكي ـ العثماني » قد عجز عن تقديم البديل الذي تنهض به الأمة . . على حين يدعو تيار « التغريب » لأن نبدأ من حيث انتهت أوربـا . . فإن الأستـاذ الامام يـدعو إلى تـأسيس « النهضة » على « الدين » « فهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لا منـدوحة عنها ، فإن إتيـانهم من طرق الأدب والحكمـة العاريـة عن صبغة الـدين يحوجـه إلى إنشاء بنـاء جديـد ، ليس عنـــده من مـواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً . وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيـره ،

---

(١) المصدر السابق . ج ٣ ص ١٥١ ، ٢٧٩ ـ ٢٨١ ، ج ٤ ص ٤١٤ .

(٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ٥٠٢ ، ٢٨٤ .

وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره؟!![1] ».

وتأسيس النهضة على الدين لا يعني الوقوف عند حدود علوم الشريعة ، لأن كل العلوم الأخرى هي إسلامية بمقدار ضرورتها لانها من أمة الاسلام وتحريرها وتطوير حياتها وتعمير مجتمعاتها. . فالنهضة الاسلامية ، وسباق الأوربيين وسبقهم يتطلب من ولاة أمور المسلمين تجديد الدين والدنيا معاً « . . **ولو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه ، ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم في إحدى اليدين ، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم![2]** » . .

* * *

تلك لمحات من قصة الأزهر مع « التغريب »، الذي كان ولا يزال الخطر الأكبر الذي تهدد ويتهدد أمتنا ، منذ بدء الغزوة الاستعمارية الحديثة ، قبل قرنين من الزمان. . . .

إنها صفحة مشرقة في تاريخ الأزهر ، يزهو بها على

---

(١) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٣١ .
(٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

المؤسسات التي سقطت ـ كلياً أو جزئياً ـ في براثن التغريب. . فلقد كان للأزهر في هذا الميدان شرف الرفض والمقاومة ، شارك في ذلك « المحافظون » من أبنائه « والمجددون »؟! . .

وإذا كانت قصة الصراع بين الأزهر وبين التغريب. . والتي هي ، في الحقيقة ، قصة صراع حضارتنا المتميزة بالوسطية ـ والتي وازنت بين « الدين » و« الدنيا » بين « الحكمة » و« الشريعة » بين « العقل » و« النقل » ، بين « المادية » و« الايمان »، بين « الفرد » و« المجموع »، بين « السلم » و« الحرب » ، بين « الشك » و« اليقين » ـ هي قصة صراع حضارتنا هذه ضد حضارة المادة والعنف والنفعية وتنازع البقاء! . . إذا كانت هذه القصة مليئة بالدروس والعبر والعظات الصالحة للاستلهام ، فإن أولى المؤسسات باستلهام دروسها وعبرها وعظاتها هو الأزهر الشريف. . فكثيرون يريدون أن تطمئن قلوبهم إلى أن ما أصاب الأزهر من « تطوير » لن يوقعه في شرك « التغريب »، الذي تفرد بشرف مقاومته والاستعصاء عليه لأكثر من قرن ونصف من الزمان؟! . .

فإذا كان « التجديد » وارداً ومطلوباً . . فهو ، بالقطع ، غير « التغريب » . . وشتان بين صقل الذات ، بتجديد الأصول وتطويرها ، وبين مسخ الذات ، عندما تتجاوز الثوابت والمميزات! . .

وبعد . .

فلا نحسب أن هناك ثمة شك في أن أمة مثل أمتنا لم يعد كافياً لها ، وهي تخوض معركة تحررها من بقايا الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة . . لم يعد كافياً لها ، ولا محققاً لأهدافها . . أن تقف عند حدود :

● « **الاستقلال السياسي** » . . وما يرمز له من « عَلَم » و« نشيد »؟! . .

● « **والاستقلال الاقتصادي** » . . وخاصة إذا كان يعني : « التنمية على النمط الغربي ، والمرتبطة به » . . لأنها ستكون ، عندئذ ، « تنمية للتبعية » ، تفقد شبهها بالاستقلال ، بل وتناقض المعنى الحقيقي للاستقلال؟! . .

ولا بد من أن تضيف أمتنا إلى شعاراتها ، المعبرة عن أهداف معركتها ضد الاستعمار ، شعار :

● « **الاستقلال الحضاري** » . . لأنه هو الذي يعطي لشعاري :

« الاستقـلال السيـاسي » و« الاستـقـلال الاقتـصـادي » مضمـونهمـا الحقيقي والصـادق . . والمحقق لمـا وراء تحقيقهمـا من غايـات وأهداف! . . . كمـا أنه هـو الضامن لـرسوخ الاستقـلال الـوطني والقـومي في وجـه محـاولات التسلل والاحتواء التي تعددت سبلها وخفيت أساليبهـا على الذين لا يجعلون من شعار « الاستقلال الحضاري » الإطار والمعيـار لكـل الشعـارات والأهـداف التي تسعى الأمـة لتحقيقها في معركتها ضد الاستعمار! . . .

* * *

وعلينا أن نتذكـر ، ونعي دروس التاريـخ . . تاريـخ صراع منطقتنا وأمتنا ضد موجات الغزو الاستعماري التي اقتحمت علينا ديارنا عبر تايخ طويل . . .

● فعنـدما فتـح العرب مصـر ، بقيادة عمرو بن العـاص [٥٠ق . هـ - ٤٣هـ ٥٧٤ - ٦٦٤م] لم تكـن هـزيمـة الـجيش البيـزنطي وجـلاء حاميـاته عن مصـر بكافيـة لتحقيق « الاستقلال الحقيقي » لمصـر عن البيـزنـطيين . . . لأن مـذهبهـم الـديني - الملكاني - كان قد « احتل » مؤسسات الفكر والـدين في البلاد ، واقتلع مـذهـب الشعب المعبر عن فكـريتـه و« أيـديـولـوجيتـه » - المـذهب اليعقوبي - وطـارده إلى الصحراء ! . . ومن هنـا كـانت إعادة عمرو بن العاص للبطرك القبـطي بنيامين [٣٩هـ ٦٥٩م] إلى مركز التوجيه الفكري ، وإعادة كنائس مصر ومؤسساتها الفكرية

إلى دينها ومذهبها وفكريتها . . كان هذا الانجاز والتحول الفكري والحضاري هو المجسد والمعبر عن أن مصر قد تحررت ، حقيقة ، من احتلال البيزنطيين؟! . . .

● وعندما انتصرت أمتنا على فلول فرسان الاقطاع الصليبيين [٦٩٠هـ ١٢٩١م] لم تواجه بموقف مماثل . . فلقد كانت الغزوة الصليبية هجمة برابرة لا يملكون سوى العنف والدمار . . ومن ثم فلم يخلفوا ، عندما جلت جيوشهم عن بلادنا ، أية تأثيرات فكرية يمكن أن تمثل قيوداً تشد عقل أمتنا إلى ركابهم ، فتنتقص من حقيقة الاستقلال الذي تحقق بهذا الجلاء! . . .

● أما مع الغزوة الاستعمارية الحديثة ، والتي تعالج أمتنا معارك التخلص من آثارها . . فإن الأمر أكثر خطراً ، وأشد تعقيداً . . . فلقد جاءت هذه الغزوة بحضارة منتصرة ، انتزع بريقها إعجاب فريق من صفوة مفكرينا ، واستهوى « أسلوب عيشها » قلوب قطاع عريض من أمتنا . . فكان أن أصبح « التغريب » جيشاً استعمارياً آخر لا بد من صراعه إذا نحن شئنا تحقيق المعنى الكامل للاستقلال؟! . .

ففي « العقل » . . وفي « الوجدان » . . وفي « المؤسسات الفكرية والتعليمية والقانونية » . . وفي « النادي ، والصحيفة ، والكتاب ، والإذاعات المسموعة والمرئية ، ودور المسرح والسينما . . الخ . . . الخ . . » هناك مهام ومهام للذين يدركون أن

استقـلالنا الحقيقي ، وتحـررنا الكـامل من جميـع الآثار الضـارة للغزوة الاستعمارية الحديثة لن يتحقق إلا باستقلالنا الحضاري ، الـذي تعود به أمتنـا العربيـة الاسلاميـة لتحتل مكـانها الـطبيعي والـلائق في منتدى الأمم العـريقة ، صـاحبة الحضـارات الغنيـة والمتميزة . . . ومن ثم تسهم في ثراء الفكر الانساني من جديد . . مواصلة بذلك مسيرة أسلافها العظام . .

وبقدر عظم المهمة . . يجب نحقيق أكبر قـدر من وضوح الرؤية « للغايات » . . « وللوسـائل والسبـل » الكافلة تحقيق هـذه « الغايات » . . .

إن فتح النوافذ العقلية على كل المواريث الحضـارية هـو السبيل إلى تلافي مخاطر الذبول والموات . . .

وإن التمييز بين ما هو « ضروري - نـافع » في دعم ذاتيتنـا الحضارية المتميزة ومشروعنا الحضاري الخاص ، وبين ما هـو « ضار » ماسخ لذاتيتنا ومشوه لتميزنا وناسخ لاستقلالنا . . إن هذا التمييز هو القضية الأعقد ، وهو الجهاد الأكبر في ميدان التفـاعل بين حضارتنا وغيرها من الحضارات . .

فما أسهل أن ينحاز البعض إلى قوقعة العزلة والانغلاق . . وما أسهل أن ينخرط البعض في موكب التبعية الفكرية الذليل . .

ومن هنـا كان « التجـديـد » للمـوروث . . و« التـطويـر » للخصوصية » . . ودعمهما بعوامـل القوة التي أثمـرتها إبـداعات

الحضارات الأخرى . . هو الميدان الحقيقي للجهاد الأكبر الذي وجب ويجب على كل قادر على الإسهام في هذا الجهاد بنصيب . . قل أو جل هذا النصيب! . .

ولنتذكر دائماً أن « التجديد »، من خلال مشروع حضاري متميز ، هو السبيل إلى النهضة والقوة . . . على حين كان ولا يزال « التحديث على النمط الغربي » - وهو في جوهره « تبعية » - السبيل إلى بقائنا هامشاً ملحقاً بـ« مركز التحدي » الغربي؟! . .

فلنتأمل - ونحن نختم هذه الصفحات عن [الاستقلال الحضاري - كلمات الرجل الذي ارتاد لفكرنا ونضالنا هذا الطريق في عصرنا الحديث . . كلمات جمال الدين الأفغاني التي تقول :

« إن نهوضنا وتمدننا إذا لم يؤسس على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه . . ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق . . وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا (من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط. لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية ، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب ، والاستكانة لهم ، والرضا بسلطانهم علينا ، وبذلك تتحول صبغة الاسلام ، التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب ، إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي »؟! . . [1] .

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

المصادر

- إبن أبي الحديد :

[شرح نهج البلاغة] تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.

- إبن باديس :

[كتاب آثار ابن باديس] طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م .

- إبن رشد (أبو الوليد)

[فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م.

- إبن عبد الوهاب :

[رسالة هدية طيبة] .

[رسالة هذه مسائل الجاهلية]

منشورة ضمن [مجموعة التوحيد] طبعة المكتبة السلفية. القاهرة. .

- إبن القيم :

[أعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

- أحمد صدقي الدجاني (دكتور) :

[الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م .

- أمين سامي باشا :

[تقويم النيل] طبعة القاهرة سنة ١٩١٦م .

- الجبـرتي :
[عجائب الآثار في التراجم والأخبار] طبعـة القاهـرة سن
١٩٥٨م .

- جمال الدين الافغاني :
[الأعمال الكاملة] دراسـة وتحقيق : د. محمد عمـارة .
طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م . وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩م .

- حسن العطار :
[حاشية العـطار على جمع الجـوامع] طبعـة القاهـرة سنة
١٣١٦هـ .

- صفي الدين البغدادي :
[مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقـاع] تحقيق :
علي البيجاوي . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م .

- الطهطاوي (رفاعة رافع) :
[الأعمال الكاملة] دراسـة وتحقيق : د. محمد عمـارة .
طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

- عبد الكريم الخطيب :
[الدعوة الوهابية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م .

- علي سامي النشار (دكتور) :
[مناهج البحث عند مفكري الاسـلام] طبعة القـاهرة سنـة
١٩٦٧م .

- علي مبارك :
[الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة .
طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

- عمر طوسون :
[البعثات العلمية في عهد محمد علي ، ثم في عهدي عباس الاول وسعيد] طبعة الاسكندرية سنة ١٩٣٤م .

- الغزالي (أبو حامد) :
[الاقتصاد في الاعتقاد] طبعة القاهرة - صبيح - بدون تاريخ .

- فيليب دي طرازي :
[تاريخ الصحافة العربية] طبعة بيروت سنة ١٩١٣م .

- الكواكبي (عبد الرحمن) :
[الاعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة .
طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م.

- لو ثروب ستودارد :
[حاضر العالم الاسلامي] ترجمة : عجاج نويهض .
تعليقات : شكيب أرسلان . طبعة بيروت سنة ١٩٧١م .

- محمد عبده (الامام) :
[الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة .
طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

ـ محمد عبد الغني حسن :
[حسن العطار] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

ـ محمد عمارة (دكتور) :
[العرب والتحدي] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م .
[الاسلام والعروبة والعلمانية] طبعة بيروت سنة ١٩٨١م .
[مسلمون ثوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م .
[العروبة في العصر الحديث] طبعة بيروت سنة ١٩٨١م .
[تيارات الفكر الاسلامي] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢م .

ـ محمد فؤاد عبد الباقي :
[المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب. القاهرة .

ـ المهدي (محمد أحمد) :
[منشورات المهدية] تحقيق : د. محمد ابراهيم أبو سليم. طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ .

ـ هانوتو (جابرييل) :
[الاسلام والرد على منتقديه] مجموعة ابحاث . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .

ـ ونسنك (أ. ي) :
[المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف] طبعة ليون ١٩٣٦ ـ ١٩٦٩م .

الفهرس

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٨٦١٣ / ١٩٩٣
I.S.B.N 977-01-3503-8

يعالج هذا الكتاب قضية محورية من خلال دراسات ثلاث، تمثل أقساماً ثلاثة في هذا الكتاب:

١ - الاستقلال الحضارى.. وماذا يعنى فى النهضة المنشودة لأمتنا..؟

٢ - والعلاقة بين «موروثنا» العربى الإسلامى وبين «الوافد» الغربى؟..

٣ - ونموذج تطبيقى لهذه العلاقة، من خلال دراسة موقف واحدة من أعرق مؤسساتنا الفكرية والتعليمية - [الأزهر] - .. موقفه من «التغريب»..

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٩٥٠